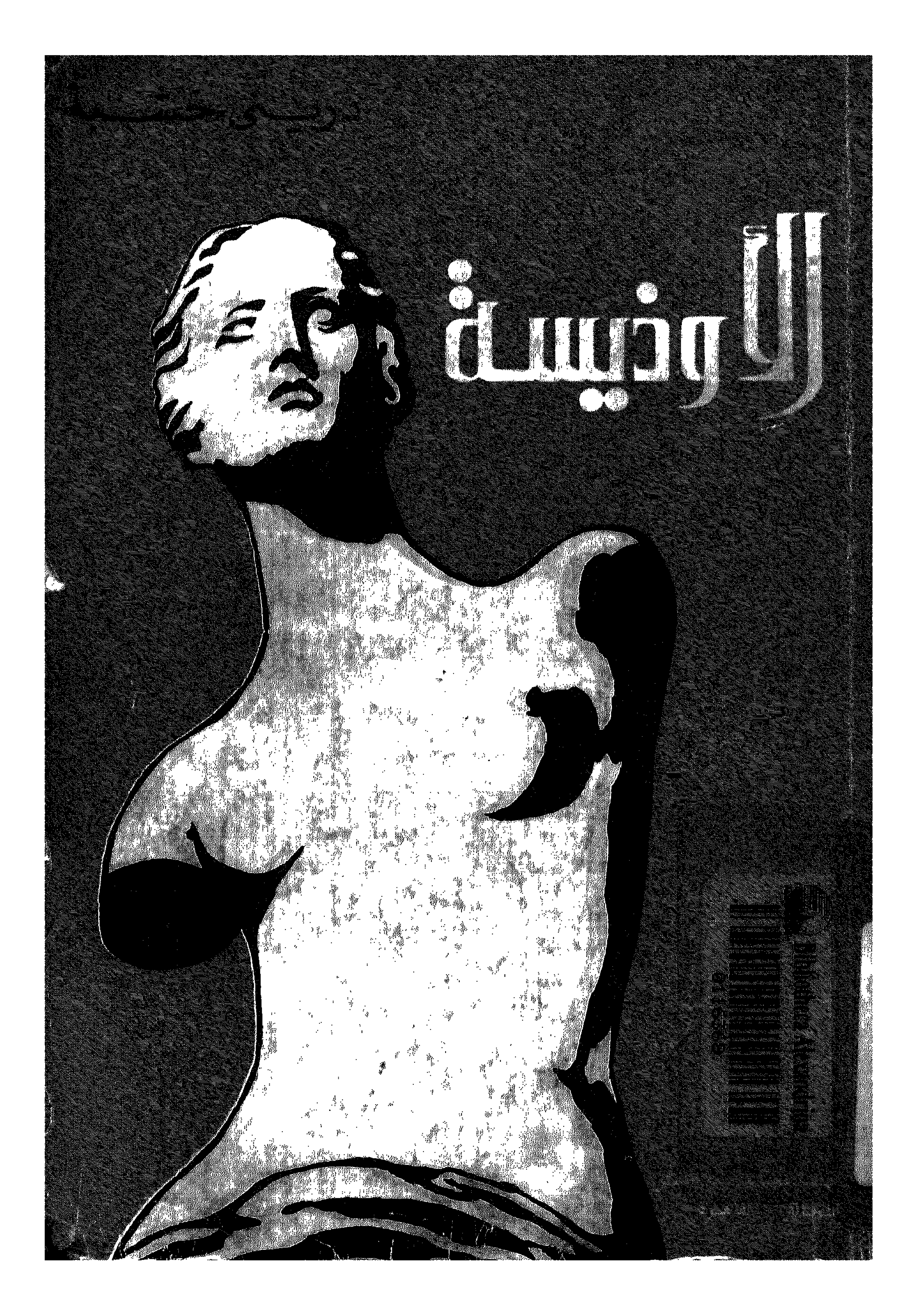

الأوديسة

دريني خشبة



دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

إلى اليونان الخالدة
أهدي هذه النفحة من هوميروس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وهذه هى قصة الأوذيسة ، وبطلها أوديسيوس ، أو أوليسيس ، أو عولس كما يسميه الشرقيون .

وقصة الأوذيسة ملحمة متفرعة من قصة حروب طروادة ، تلك الحروب الطويلة القديمة التى نشبت بين جيوش دول المدن اليونانية وبين جيوش طروادة [1] وحلفائها من آسيا الصغرى فى ذلك الوقت ، وسببها هو ما ذكرناه فى قصة الإلياذة ، إذ نزل باريس بن الملك بريام ملك طروادة ضيفاً على الملك منلوس ملك أسبارطة فلم يلبث أن سرق زوجته وكنوزه وفر إلى طروادة فنشبت الحرب التى دامت عشر سنوات حتى استطاعت الجيوش اليونانية اقتحام المدينة بفضل الحيلة التى أشار بها أوديسيوس بطل قصة الأوذيسة وهى حيلة الحصان الخشبى الضخم الذى اختبأت فيه نخبة من أشجع فرسان الجيش اليونانى .. مما هو مذكور فى قصة حروب طروادة .

وقصة الأوذيسة هى إحدى الملاحم التى نظمها الشاعر الأعمى هوميروس فى تارخ تلك الحروب الطويلة المريرة .. ولم يبق من تلك الملاحم إلاقصة الإلياذة ، وهى تاريخ السنة العاشرة من تلك الحروب أما قصة الأوذيسة فتروى ماحدث لبطلها أوديسيوس بعد انتهاء حرب طروادة وذلك فى طريق عودته بحراً من طروادة إلى مملكته إيثاكا .. لقد لقى أو ديسيوس من المتاعب ، وخاصة من المغامرات ، شيئاً كثيرا وقاسى من الأهوال ما نقرأ تفصيلاته فى تلك الملحمة . . أى القصة التى يتحدث فيها الشاعر عن ألوان البطولة والقوة والحب والحرب ومواجهة الظروف القاسية التى لا يصبر عليها إلا أشجع الشجعان .

(١) طروادة مدينة قديمة على بوغار الدردنيل فى الشاطئ الآسيوى .

والقصة تروى أن بنلوب ملكة إيثاكا وزوجة البطل أوديسيوس كانت امرأة عظيمة نبيلة وعلى قسط كبير من الجمال . وكان لها ابن واحد اسمه تلماك — أو تلماخوس — كان لا يزال صبياً صغيراً فى أول القصة ، وأن ملوك اليونان الأقوياء الظالمين لما رأوا أن أوديسيوس قد تأخر عن العودة إلى بلاده ، وطالت السنون والأيام ولم يعد إليها ظنوا أنه قد مات أو غرق ، فطمع كل منهم فى الزواج من بنلوب الجميلة ، وأقدموا يخطبونها ، لكن بنلوب الوفية الطاهرة كانت تردهم رداً جميلا ، وتعدهم أنها حينما تفرغ من نسج ثوب تظاهرت بالعمل فيه على منسجها فسوف تنظر فى خطبتهم لتختار من بينهم زوجاً لها بدلا من أوديسيوس ، وهى إنما كانت تحتال بتلك الحيلة عسى أن يكون زوجها لا يزال حياً وعسى أن يعود ليحارب هؤلاء الملوك السمجاء الذين أقبلوا من بلادهم وحاصروا قصر بنلوب ولم يشاؤوا الانصراف عنه حتى تختارلها زوجا منهم .

ويحسن هنا أن نتذكر أن معظم الأمم القديمة كانت أمماً وثنية ، ولم يكونوا يعبدون إلهاً واحداً ، بل كانوا يعبدون آلهة متعددة ، وكان اليونانيون بالمثل يعبدون مئات من تلك الآلهة التى كان كبيرها زيوس ، رب السماء والأرض والصواعق فى نظر اليونانيين ، ثم أخوه نبتيون ، أو پوسيدون ، رب البحار ، ثم أخوه بلوتو أو هيدز أو حادس رب الموتى والدار الآخرة ؛ وكان لزيوس زوجات كثيرات أنجب منهن ابنه أپولو رب الشمس وديانا ربة القمر مينرڤا ربة الريح والحكمة والعدالة وأرباباً كثيرين غير هؤلاء سوف نلقاهم فى هذه القصة كما لقيناهم فى قصة الإلياذة وسوف نضحك كثيراً على سخافاتهم .

ومن العجب أن هؤلاء الأرباب الأغبياء قد انقسموا على أنفسهم فى تلك الحروب المهلكة ، فبعضهم كان يؤيد أهل طروادة ضد اليونانيين ، وبعضهم كان يؤيد اليونانيين ضد أهل طروادة .

وقد كانت مينرڤا ربة الحكمة والعدالة تؤيد أوديسيوس وتعطف على ابنه

تليماك ولذلك تنكرت فى صورة بطل من الأبطال ثم زارته لتطلب إليه أن يذهب للبحث عن والده لأنه لم يمت ، بل لا يزال حياً يكافح فى سبيل الوصول إلى دياره .

فلماذا إذن تأخر أوديسيوس عن الوصول إلى إيثاكا ؟ وماذا عانى من الأهوال فى طريقه إليها ؟ وماذا صنع حينما عاد ؟ وماذا كان من أمر زوجته بنلوب وأمر ولده تليماك ، وأمر أعدائه الملوك اليونانيين ؟

هذا هو موضوع الأوذيسة ، تلك القصة الرائعة التى لم نشأ أن نترجمها ترجمة تطابق أصلها اليونانى ، بل فضلنا روايتها رواية تيسر فهمها وتعطى خلاصتها لكثرة ما ورد فيها من أسماء الآلهة وأنصاف الآلهة وما أثقلها به هوميروس من أسماء الأبطال الخرافيين والحوادث العارضة التى قد يثقل على ذهن القارىء الملول متابعتها .

وننصح للقارئ بالرجوع إلى قصة الإلياذة ليجمع بين الصورتين كما ننصحه بقراءة كتاب الأساطير اليونانية حتى يحصل على صورة متكاملة لهذا القصص اليونانى الرائع الذى يقرأه اليوم جميع الشباب فى مكتباتهم المدرسية ومكتبات بيوتهم فى جميع أرجاء العالم ، لما فيه من شحذ للفكر وتنبيه للخيال ، وما يشتمل عليه من صور البطولة والشجاعة وتعويد القراء على التفكير إزاء كل مشكلة أو صعوبة يواجهها .

هذا ، وقد قمنا بكثير من التعديلات فى القصة وفى الأسلوب تيسيراً على شباب القراء ومما لا يخفى على إخواننا القراء القدامى .

درينى خشبة

مقدمة الطبعة الاولى

.. وها هى ذى قصة الأوذيسة ... أو الحلقة الثالثة من روائع الأدب اليونانى التى أخذت على عاتقى تقديمها بطريقتى الخاصة لقرائى الأعزاء فى جميع الأقطار العربية ... أولئك القراء الذين أكرمونى فتقبلوا كتابىّ السابقين : أساطير الحب والجمال عند الإغريق ، وقصة طروادة ، متضمنة إلياذة هوميروس الخالد ، الذى فُتِنْت به ، فلم أبال أن أقدم طُرفتيه المجيدتين لقراء الأدب الرفيع فى أقل من ستة أشهر ، ليشقا طريقهما وسط تلك الزحمة الصاخبة من مئات الكتب فى الأدب الرخيص .

ها هى ذى قصة الأوذيسة إذن . . .كما رويتها ، وهذبت حواشيها ، منذ عشر سنين ، جارياً فيها على المنوال الذى اخترته فى تقديم كتابىّ السابقين . . . ذلك المنوال الذى مازلت أراه أسلم الطرق لتحبيب روائع الأدب القديم إلى نفوس القراء فى هذا الزمن المترَف العجول الملُول .

وبعد ... فلقد قلت أكثر ما كنت أصبو إلى قوله عن هوميروس فى المقدمة الطويلة التى صدَّرت بها لقصة الإلياذة ، وذكرت فيها الشئ الكثير عن قصة الأوذيسة ، والذى لا أزال أرجوه هو أن يوفقنى الله إلى إصدار ما أعددته للطبع من روائع الأدب اليونانى الذى كان فى إحيائه إحياء أوربا الحديثة ، والذى لابد لمصر الحديثة ، بل للعالم العربى الحديث ، من الإلمام به ، إن كان فى نيتنا خلق أدب عربى حديث .

دريني خشبة

بين مينرڤا وتليماك

أنشد ياهوميروس ؟

وظل فى فم الأبد قيثارته المِرنَّة ، ونآيه المطرب ، وعوده الآنّ ، ونعمته الحلوة الحنون ؟

أنشدْ ياشاعر العصرِ الخالى .

وحُلَّ فى الأسماع موسيقى مدويّة ، وفى العيون دموعاً جارية ، وفى القلوب رحمة ومحبة ، وانفح عرائس الشعر من لدنك سلطاناً ، وحكمة وبياناً ، وسريراً وصولجاناً .

تَغنَّ ياشاعر أو لمب !

ولترسلْ من جنتك نعمةً تنتظم الأفلاك ، ورنّةً تجلجل فى الأفق ، وآهةً تزلزل قلوب الجبارين !

* * *

سقطت إليوم (١) ونزح المغير عنها بخيله ورَجله ، فتعالىْ ياعرائس الفنون فافقدى أوديسيوس فى ذلك البحر اللجى يذرعه ؛ موجة تلبسه وموجة تخلعه ، لا يعرف لمملكته ساحلا فيرسو عليه ، ولاشاطئاً فيقصد إليه .... يخبط فى اليمِّ على غير هدى ، ويرسل عينيه فى الماء والسماء على غير بصيرة ... زرقة متصلة فى العلو والسفل ، وتيهُ لانهائى يخبط فى أحشائه أسطول السادة المنتصرين ...

والأقدار وحدها تعلم لماذا ضل أوديسيوس بجنوده فى ذلك العُباب ، وقد عاد كل أقرانه إلى هيلاس بعد طول النأى وشَحط المزار ، إلاهو وإلاهم ، ممزقين فى دار الغربة كل ممزَّق ، يتجشمون المصائب والأهوال ، ويتخبطون بين موج كالجبال ، ويخلصون من بحر إلى بحر ، ومن

(١) Ilium هى طروادة .

رَوْعٍ إلى روع . فإذا أرسوْا على أرض وظنوا أنهم نجوا ، أفزعهم فيها غير الذى رجوا ...

ولقد رقت قلوب الآلهة ، وودوالو أدركوا برحمتهم أوديسيوس ... إلا نبتيون الجبار ، رب البحار ، الذى يضمر للبطل فى أعماقه كل كراهيةٍ وكل بغضاء ، والذى آلى أن يصب على رأسه كل تلك الأرزاء ...

وحدث أن كان نبتيون فى حرب مع الأثيوبيين ، فانتهزها الآلهه فرصة سانحة ، وعقدوا مجلس الأولمب فى ذروة جبل إيدا ، وتفضل الإله الأكبر، زيوس [1] ، فافتتح الجلسة بكلمة مخلصة توجع فيها لما يلقاه من بنو الإنسان من صروف الحِدْثان ، واستطرد فذكر مأساة أجاممنون المسكين وما لقيه على يدى زوجه وعشيقها الأثيم إيجستوس من غدر وغِيلة ، ثم أنحى باللائمة على هولاء البشر البائسين الذين يقولون إن كل ما يصيبهم من خير وضير هو من عند الآلهة ، وما هو إلا من عند أنفسهم ... ولكن لا يفهمون ؟

ثم نهضت مينرڤا ربة الحكمة ، ذات العينين الزبر جديتين ، فأيدت ما قال أبوها سيد الآلهة ، وأثنت عليه ، ثم ذكرت أوديسيوس . . . « ذلك التعس المسكين الذى تخطفه هو وصحبه البحر ، وقُضى عليه دون أقرانه جميعاً أن يشقى هذا الشقاء الطويل ، عند عروس الماء الفاتنة كلبسو فى جزيرة أو جيجيا ، ثمانية أعوام أو يزيد ماذنبه ؟ ما جريرته ؟ لماذا يُنفى هذا العبد الصالح فى أقصى الأرض يا أبى ؟ خير عبادك أجمعين . أذكركم ضحى الأضحيات باسمك ، وقدم القرابين من أجلك ، وحارب أعداءك وجاهد شانئيك ! لقد نمى إلىَّ أن كلبسو تحاول جاهدة أن تستميل قلب البطل ، وأن تنسيه وطنه إيثاكا . . . ياللهول ! كيف ياأبتاه ! وهذه الزوجة التعسةُ بنلوب ؟! بنلوب المحزونة المرزَّأة ! بنلوب التى صبرت

---

(1) Zeus أو Jove أو Jupiter

وصابرت طوال هذه السنين على ما كرثها الدهر به من بعد زوجها ؛ بنلوب التى حافظت على طهرها وإخلاصها ؛ أتظل هكذا سجينة فى قصرها المنيف الباذخ ، ويظل هذا القصر محاصراً بخطابها المجانين من أمراء الأقاليم ! ! أبى ! ياسيد الأولمب ! ألا تدرك برحمتك أوديسيوس ، وترده إلى وطنه ليذود هذه الكلاب التى ولغت فى حوضه ، وكادت تخوض فى عرضه ؟ تداركه ياأبى ، تداركه بعطفة واحدة منك ، وإنك على إنقاذه لقوى مكين » .

واستجاب لها سيد الأولمب ، وقضى أن يعود أوديسيوس إلى إيثاكا ؛ لكنه ذكرها برب البحار نبتيون ، وذكرها بما بينه وبين البطل من تراث وثارات ، « سببها هذه الفعلة الجنونية التى فعلها أوديسيوس بواحد من السيكلوبس[1] ، أبناء نبتيون إذ اقتلع عينه الواحدة التى كان ينعم بسبيلها بزينة الحياة . . . إطمئنى يابنية وقرى عيناً . . إننا نحن الأعلون ، وسيرى نبتيون أنه لن يَغلب الآلهة مجتمعة أبداً . . . »

وشاعت الغبطة فى أعطاف مينرڤا ، وتضرعت إلى مولاها أن يُنفذ ولده هرمز إلى جزيرة أوجيجيا فيأمر عروس الماء كلبسو أن تُعدَّ مركباً عظيما لأوديسيوس ورفاقه ، ليعودوا عليه إلى أوطانهم ؛ ثم ذكرت أنها ستمضى من فورها إلى إيثاكا حيث الخُطاب المآفين يحاصرون قصر بنلوب ، وحيث ابن أوديسيوس المنكود ، تلماك ، يشهد خراب مملكة أبيه ولايستطيع أن يحرك ساكناً ، لصغر سنه . . « إنى سألهب إحساسه ، وأفتح عينيه على ماينبغى . . . سأجعله يخرج من هذه العزلة المعيبة ليبحث عن والده ، فإنه لم يعد طفلا بعد . . » .

وانطلقت مينرڤا فربطت نعليها السحريتين ، على قدميها الجميلتين ، وحملت رمحها العظيم الذى تقطر المنايا من سنانه ، ووضعت تاجها المرصع على رأسها الكبير ، وأطلقت ساقيها للريح حتى كانت بعد لحظة على مقربة من قصر أوديسيوس ، فهبطت من السماء إلى الأرض ؛ وفى لمحة انقلبت فاتخذت شكل

---

(١) سيأتى ذكر ذلك فى الكتاب العاشر من الأوديسية

الآدميين ، وتخايلت فى جسمان الأمير منتس[١] وطيلسانه ، ثم تقدمت فدخلت ردهة القصر الواسعة ، حيث اجتمع الخُطاب المجانين من أجل وليمة ، وتلفتت يَمنة ويَسرة ، ورأت الفتى السادر الساهم الحزين تلماك ، وقد تعقدت فوق جبينه هموم . . . وهموم ، وتغضنت ملئ أساريره آلام . . . وآلام .

وماهو إلا أن لحها تلماك حتى أخذه من هيبتها شئ عظيم . . . فهب للقائها مسرعاً ، ثم مد إليها يده مصافحاً وهو لا يعرف من هى ، وقال : « مرحباً مرحباً بالغريب المكرم ! هلم فشارك فى ذلك القِرى ، ولنتحدث بعدها فيما أقدمك إلينا . مرحبا وأهلا وسهلا ! . . . » ودلف نحو الصالة المزخرفة ، وتبعته مينرڤا ، وفى يمناها رمحها الجبار الذى يقدح من سنانة الشرر ، حتى إذا بلغا العمود الأكبر الذى أسندت إليه مئات الرماح ، والذى كان أوديسيوس يسند إليه رماحه وعدة حربه ، تناول تلماك الرمح وأسنده بعد جهد ، حيث برز بكل عظمته وكل جلاله بين رماح الخطاب الفاسقين . وتقدم نحو أريكة وثيرة منعزلة ، وسأل مينرڤا فاستوت عليها ، وكانا ثمة بمأمن من أن يستمع إليهما أحد . . . وأقبلت جارية فينانة رائعة تحمل طستاً وإبريقاً من الذهب ، فصبت الماء على يدى الضيف ويدئ تلماك ، ثم مضت فأحضرت مائدة نُسقت عليها الورود والرياحين . ونشط النادل[٢] يحمل أطباق الطعام والفاكهة والحلوى ، يأتى بها ملأى ويمضى بها فارغة . . .والندمان[٣] فيما بين ذلك يجذب الزق[٤] إليه ويسقى . . . ثم يسقى . . . وشرع الخطاب المجرمون بدورهم يلتهمون مالذ وطاب من أكل وشراب . . . حتى إذا انتهوا شرع فيميوس نايه وانطلق يغنى .

(١) يروى أن منتس كان تجارا غنياً وكان يحمل هوميروس فى رحلاته الواسعة من غير أجر ، ولذلك كافأه هوميروس فخلد اسمه بذكره فى الأوديسة .

(٢) النادل خادم المائدة .

(٣) الندمان ساقى الشراب .

(٤) الزق قربة الخمر .

وانتهز تلماك فرصة انصراف القوم إلى لهوهم وشرابهم فسأل الضيف قائلا :

« يا أعز الأصدقاء ! أرأيت إلى أولئك الفساق ؟ لو أن رب البيتُ هنا ، أكانوا يلهون لهوهم هذا أو يفسقون فسوقهم هذا ؟ كلا ! لقد كانوا إذن أسرع إلى الهرب ، منهم إلى ذلك الطرب ؛ ولكن . . . أواه ! . . . أين هو ! أين أوديسيوس العظيم الذى انقطعت عنا أخباره ويئست من أوبته دياره . ولكن حدثنى بربك من أنت ؟ ومن أى الأقاليم قدمت ؟ وَمنْ هم رجال البحر الذين ألقوا مراسيهم عند إيثاكا ؟ أغريب أنت أيها السيد؟ أم كنت فيما خلا من الزمان من أصدقاء أبى وأحبائه ؟ »

وقالت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين :

« ليهدأ بالك يابنى ، فإنى مجيبك على كل ماسألت . إنك ترى الآن منتس أمير (جزيرة الطافيان) البحارين ، وسليل انخيالوس الكبير . ولقد أبحرنا من جزيرتنا مُيممين شطر جزيرة النحاس من أجل ذلك المعدن الثمين ، وسفننا ملقيه مراسيها بالقرب من غابات (نيوس) ولقد كنا ولا نزال من أحب ضيفان أبيك وأودّهم إلى فؤاده ، فلما سمعنا بما حل به من شدة ، وبيته من لأواء ، استوحينا آلهتنا فخبّرتنا أنه لابد عائد إلى وطنه سالماً غانماً ، وأنه لابد منتقم من هؤلاء الفجار الأشرار . ولكن خبرنى بأربابك ، أفى الحق إنك لأنت أبن اوديسيوس العظيم ؟ إن ملامحك تشبه ملامحه ، وإنك لقريب الشبه منه جداً ، وإن هذا البريق الذى يشع من عينيك هو نفسه الذى كان يشع من عينى أوديسيوس ، يالآلهة ! كم سَمَرْتُ إلى أبيك قبل أن يشد رحاله إلى طرواده ! فهل يُقدر لى أن أسْمَر إليه مرة أخرى ؟ إننى من وقتها إلى اليوم لم أره ، وهو كذلك لم يرنى . . . ألا ما أشد شوقى إليه ! ما أشد شوقى إليه ! . . . »

وشاع بارق من الأمل فى نفس تلماك فقال : ويحك أيها الصديق ! إننى أنا ابن أوديسيوس مافى ذلك ريب ، والعالم كله شهيد على ذلك » .

ثم اختلطت الزرقة بالخضرة فى عينى ربة الحكمة وقالت : « على رسلك ياتلماخوس ! إذن فما هذه الولائم وتلك السمط ؟ وهذا الزحام من أين أقبل ؟ إنى لأقلب ناظرى فى القوم فلا أرى شريفاً ذا حسب يتسأهل أن يحتفى به أو يقام له وزن ! »

ويبتئس تلماك ويجيب : « أيها العزيز . . لقد هاجرت الفضيلة من هنا فى أثر المهاجر العظيم ، وكأنها آلت ألا تعود إلا معه ! وكان هو ، تداركته السماء ! يُلقنها هؤلاء بنظرة واحدة تكفى لتزول منها الجبال . . . واأبتاه ! لقد أطمع العاديات فينا بطول نأيه . فيا للنوى[1] ! إننا لا ندرى اليوم أين مقره ولا أيان مستودعه . ولو قد سقط تحت أسوار اليوم لاجتمع الإغريق من كل حدب هنا . . .هنا . . . فى حاضرة إيثاكا ليذرفوا دموعهم من أجله ، وليقيموا له نُصباً عالياً رفيع الذرى شاهق الأوراق[2] ، وليكتبوا اسمه الكريم فى صحائف صدورهم بمداد أبدى من التبجيل . . .ولكن ! . .واأسفاه ! . . .لقد انتصر انتصار الأبطال ، ثم مضى على وجهه فى فجاج البحار . وغدونا لا تحلم العين بنظرة مفردة منه ، ولا الأذن بلفظة عذبة من لسانه المبين ! . . . تباركت ياآلهة الأولمب ! ماذا عندك من الأقضية المخبوءة لى ؟ الذئاب ! إى يا آلهة . هذه الذئاب ! وحوش البرية التى اجتمعت من كل فج . . من الجزائر المتناثرة فى البحر ، ومن المدائن المترامية فى البر . . . من ساموس ، ودلشيوم وزاكنثوس ، ومن كل إقليم وكل مصر . كلهم يرابطون حول هذا القصر ولا يستحيون . . .الفساق ! الأوشاب العرابيد ! يطلبون يد الزوجة الوفية . . الأم المكلومة... بنلوب ! بنلوب الباكية المحزونة المصدَّعة ! كنز أوديسيوس الذى لا يفنى ! يطلبون يدها ولا يرحمون وفاءها وبكاءها ولأواءها... فلا تستطيع أن تردهم لعجزها ، ولا تستطيع أن تجيبهم

---

(١) السفر والبعد عن الديار

(٢) روق الخيل فقد

وهى لا تدرى من أمر زوجها شيئاً . . .وهم طوالَ هذه السنين يريغون نعماء أبى ، فكهين فى أشربات وآكال ، حتى أقفر الزرع وجف الضرع ، وما أحسبهم مبقين على شئ . . .حتى علىّ ! »

* * *

وانثال الحنان فى فم مينرفا ، إذ هى تجيب الفتى المحزون بقولها :

« ويح لك أيها الفتى ! رحمتا لك يا بنى الصغير ! أواه ! لو أن أباك هنا اليوم ليذُود أولئك المناكيد ! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلاعب رمحيه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له لسهاماً مسمومة سقاها أبى بعد إذ رفض أن يُسمَّها إيلوس بن مرمريس . . . وهو لو صوبها إلى أولئك المفاليك لأبادهم . . .يارحمتا له ! إن أحداً غير الآلهة لا يعلم إن كان لا يزال حياً يرزق أو أنه قد ابتلعه اليم أو عاجلته المنون . . .تلماك ! ياابن أعز الناس على ! إصغ إلى ، واحفظ ما أقول : إنك لست طفلا بعد ! فلم لا تشمر عن ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك ! لم ترضى أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟ لم لا تكلمهم بنفسك فى أمر أمك ؟ ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن شاءوا ؟ أليس أبوها أحق بهذا الشأن من كل رجل سواه مادام أوديسيوس لم يؤب ؟ لِمَ يربضون هنا كسباع الفلاة يوهون ثروتك ويأكلون مالك ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك ؟ استمع لما أقول ياتلماك ! نَبِّئْ القوم فليجتمعوا لك ، ولتسمعهم كلمتك ، ولتصارح أمك إن هى أرادت منهم بعلا فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد . ثم انهض أنت ياابن أوديسيوس ! فابحث عن أوديسيوس . أعدَّ ما استطعت من سفين وزاد ، وميرة وعتاد ، ولتبحر على بركة الآلهة ، فلتذهب أولا إلى (بيلوس) حيث الحكيم الباسل نسطور ، ثم إلى أسبارطة حيث صاحب هذه الداهية منلوس[1] . . . أقلعْ بفُلكك إلى هذين

---

(١) زوج هيلين أخت سلوب والتى كانت سبب حرب طروادة .

فسائلهما أين مضى أبوك فقد تقع منهما له على خبر . . . ولتكن لك أسوة فى الفتى الجرئ المقدام أورست الذى قتل قاتلى أبيه [1] ، وفيهم أمه . . . بوركت ياأورست ! بوركت يا أورست ! هلم يا تليماك فقد تعود بأبيك حياً فيرد الشرف والمجد إلى هذا البيت ؛ وقد تعود به ميتاً فترفع ذكره ، وتقيم قبره ، وتخلد فى العالمين أثره ! والآن ، فلأنهض أنا إلى رجالى وسفنى . فلقد بعدت طويلا عنهم . . . وكلى يقين يابنى أن تقدر نصيحتى وعلى الآلهة فلتتوكل ! » .

وحين انتهت مينرفا من هذا الحديث ، حدجها تليماك بنظرة ثم قال : « أيها الصديق حباً ، ويا أبر الأوفياء سمعاً ! لقد أيقظت فىّ ضميراً أنت أحييته ، فألف شكر لك . . . أبداً لن أنسى كلمتك : أنا ابن أوديسيوس ! فلأبحث عن أوديسيوس ، وحاول الفتى أن يقدم لمحدثه هدية سنية تكون تذكاراً لهذا اللقاء . ولكن مينرفا شكرته وأبت أن تأخذ شيئاً ، ثم قالت « إذا نجحت فى مسعاك يا بنى فسوف أعود . وسوف أقبل أية هدية منك ! » .

ثم انطلقت ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين . ولشد ما ذهل الفتى ووقف مسبوهاً مشدوهاً حين رأى هذا الأمير (منتس) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نسراً كبيراً يضرب الهواء بجناحيه ، ثم يعلو ويعلو . . . فيكون فى السماء ويغيب عن ناظريه ؟ .

ولم يُحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات المُلِحَّةِ على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه ؛ وجددِ الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلهاً يساعده ، هو هذا الضيف الذى أرسل جناحيه وغاب فى السماء .

وانطلق تليماك حيث جلس الخطابُ الفساق يستمعون إلى أغانى فيميوس ، وحيث وجد أمه فى الشرفة العليا تستمع هى الأخرى إلى تلك

---

(١) أخا ممنون .

الأغاريد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكى . . . وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء غناء لا يثير شجوها وشجنها . . وتثور النخوة فى قلب الفتى فيصيح بأنه : « علام العويل يا أماه ؟ وما وقوفك هذا الموقف تسترقين الغناء ؟ وما اعتراضك على المغنى ؟ دعيه فليتغنَّ ما يشاء ، فلقد غدونا سخرية القضاء وهزْوَ المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس وذهبت معه كرامة هذا البيت ، وإنى لصاحبها بعده . . . فادخلى . وليدخل معك قيانك ، ولتقمن جميعاً بشئون المنزل ولْتَلتَفِتِى إلى مغزلك ومنسجك ، ودعى كل ماعدا ذلك للرجال . . . لى . . . لى أنا وحدى : سيد هذا القصر ! » .

وأثرت مقالة الابن فى نفس أمه ، فانثنت مع قيانها إلى مخدعها بالطابق العلوى ، حتى إذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء لها حزنها أن تذرف . أما تلماك فقد انطلق وسط القوم ونادى بأعلى صوته : « أيها الفساق ! يا خُطّابَ أمى ! خذوا فى لهوكم ، وتمتعوا قليلا أو كثيراً ، فإذا كان الغد فاجتمعوا فى الساحة الكبرى ، فإن لى كلاماً معكم . . . سأطلب إليكم أن تشدوا رحالكم من هنا ! أتسمعون ! لقد طالما أتلفتم لنا زاداً وعتاداً . . . ألا فلتلتمسوا الزاد والعتاد من عند أنفسكم ؛ ولْتقيموا أفراحكم وولائمكم فى غير هذا المكان ؛ فإن أبيتم فإنى مستعين بالآلهة عليكم ، ولتقتصَّ منكم السماء بما جرحتم [1] . . . » .

ومْا كاد يفرغ من كلمته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجأتهم بهذا الكلام الخشن الذى لم يعتادوه . ونهض أنتينوس من مجلسه وقال : « تلماخوس ! لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن . . . يا لشؤم اليوم الذى تتوجك السماء فيه ملكا على إيثاكا . . .عرش آبائك وأجدادك ! » .

---

(١) جنيتم

ويجيب تلماك . « ليس أحب إليَّ من الملك حين تخلعه عليَّ السماء . . . غير أن أمره إليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس . . . أما أنا . . فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر . . . ولا غرو . . . فإن هذا من حقى !) .

وأجابه يوريما خوس : « إن من حقك أن تقول ما تشاء يا أخانا تلماخوس . . . أما مُلك إيثاكا فالسماء وحدها تؤتيه من تشاء . ولكن قل لنا بربك من هذا الضيف الذى كان معك الساعة ، هل من قِبَلِ أبيك أقبل ؟ أم إن له عليكم لدَيْناً ؟ إن أحداً منا لم يلقه ولم يره ، ولكنا لمحناه من بعد ، عليه سيماء النجابة والجلال . من أين أقبل ياتلماخوس وفيم قدم ؟ . . . » .

وأصلح تلماك من شأنه وقال : « أيها السيد يوريما خوس ! إن يقينى أن أبى قد انتهى . . ولن تغرَينى هذه الكلمات المعسولة التى يتشدق بها المنجمون . . . أما هذا الضيف . . . فـ . . . هو من أصدقاء أبى طبعاً ، وقد أقبل لمجرد الضيافة ، وهو الأمير منتس أمير أهل البحار وسيد تافوس ، وابن سيد هذا الزمان . الملك الشجاع أنخيالوس » .

قالها تلماخوس وهو أعرف الناس بضيفه ؛ ثم انثنى كل إلى مخيمه ، وانثنى تلماك إلى مخدعه بالطابق العلوى ، حيث كانت مربيته يوريكليا تنتظره ، وتوقد له الشموع والسرُج . يا لها من أنثى طيبة تخلص لمولاها وتحنو عليه . . . لسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها ! . . . ولسرعان ما هيأت له فراشة الوثير . . .

وقضى تلماك ليلة طويلة ساهرة ممتلئة بالهواجس والأفكار .

تليماك يجادل الخطاب

موَّهت أورورا[1] ابنة الفجر الوردية مشرق الأفق ، فهب ابن أوديسيوس من مرقده ، وأصلح من شأنه ، وتقلد سيفه ، ثم انفتل مختالاً ، كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه ، وجعل يقلب عينيه فى هذه الخيام المضروبة التى تملأ حديقة القصر ، والتى يثوى فيها أولئك الفجار الأشرار خُطابُ بنلوب ؛ وتلبَّث قليلا وفى القلب لظى . وفى النفس كلوم ؛ ثم صاح بالملأ فهبوا مسرعين ، وأخذوا يَنسلون إلى الردعة الكبرى ، حتى إذا انتظم عقدهم والتأم شملهم تقدم هو متهدجاً نحو عرش أبيه ، وفى يمينه رمح ظامئ إلى تلك الدماء النجسة التى تتدفق فى أبراد تلك الذئاب ، وعن جانبيه كلباه الضاريان ، وفى عينى كل منهما جمرتان . وكانت مينرفا نفسها تضفى على الشاب سيماء النبل ، وترفرق فوق ناصيته أمواهاً من العظمة والمجد ، لتقذفَ منه الرعب فى قلوب أعدائه ، حتى لبهرهم أن يروا فى تلماك ذاك الضر غامة المختال .

وما كاد الفتى يستوى على عرش آبائه الصيد ، واجداده الصناديد . حتى نهض شيخ يحمل فوق كاهله السنين الثقال ، وتشتعل فى رأسه شيبة التجاريب وجلائل الفعال . وكان هو إيجبتوس بعينه . . إيجبتوس المسكين الذى بعث بولده أنتيفوس فى أسطول عظيم وجند لَجِب . ليشارك فى حرب إليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ، وكر وفر ، وجال وصال ، وصمد وانتصر . . . ولكنه . . . وا أسفاه ! . . لم يعد إلى أوطانه فى العائدين ، بل صحب أوديسيوس فى رحلته المشئومة وراء البحار ، حيث

---

(١) ربة الفجر فى الميثولوجية اليونانية وإحدى تابعات أبو للو وقائدة عربته — الشمس — عندما تبزغ من أبواب المشرق .

أكله السيكاوب الوحش فيمن أكل . وقف إيجبتوس بين أبناء له ثلاثة ، أحدهم من خطاب بنلوب ، ثم قال :

« أيها الرفاق ! يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها أول مرة منذ أن بارح أوديسيوس بفلذات أكبادنا نُدعى فنجتمع مثل هذا الاجتماع .

فمنذ الذى دعا إليه ، وماذا يبتغى ؟ أنفحة من نفحات الشباب ، أم زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر من جيشنا الهالك يبشر بعودته ؟ لينهض باركته السماء فليحدثنا عما دعانا إليه » .

وتناول تليماك صولجانه من قواسه ، وتقدم حتى كان فى وسط القوم وجهر فقال .

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هذه الدعوة ! أنا تليماخوس بن أوديسيوس ، صاحب هذه الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل . . . لقد دعوتكم لأشكو إليكم بؤسى وحزنى . . لا لأزف إليكم بشريات الجيش المفقود الذى لا يعلم مصيره إلا زيوس ! لقد فقدت والدى ، ووالد الإيتاكيين جميعاً ، ثم أنا اليوم حبيس هذه الدار ، أسير هؤلاء الخطاب [1] الذين يطمعون فى الزواج من والدتى ، غير متقين فى عرضى إلاًّ ولا راعين لأبى ذمة ، يذبحون النَّعم [2] ويُريغون [3] الزاد ، ويعاقرون ابنة العنب ، ولا يبالون أن يهلك الزرع والضرع ، ما داموا يبيتون وبطونهم ملآى ، وبيت غيرهم على الطوَى [4] . . . ! لقد استباحوا هنا كل شىء ، مادام لا أوديسيوس هنا فيردعهم ، ولا حول لى فأغل أيديهم ، ولا ضمائر فيصيخوا إلى قولى ، ويرحموا ضعفى . ليذهبوا من فورهم إلى جدى

(١) يلاحظ القارئ أن الاجتماع كان عاما ولم يكن قاصرا على الخطاب فقط . بل كان يضم جمهوراً من أهل إيتاكا كذلك .

(٢) الماشية .

(٣) يدسمون .

(٤) الطوى الجوع .

فيخطبوا إليه ابنته إن أرادت أحدهم بعلا . فهو بها أولى وبشأنها أحق . . . إنكم ضعفاء أيها الإيثاكيون الأوفياء . . . ولو استطعتم لرددتم عنى غائلتهم . . . فلقد طفح الكيل ، وحزب الشر ، وعم الأذى . . . والآن ، أوجه إليهم قولى . . . ولن أستحى أن أصارحكم مرة أخرى أيها الخطاب . . . اخجلوا إذن ! ولتصبغ الفضيلة وجناتكم بحمرة الحياء ! أذكروا ما عسى أن يعيركم به جيرانكم ! واخشوا قارعة تحل عليكم من أربابكم . . واتقوا يوم تلقونهم تودون لو تلففتكم الصواعق . . يا قوم ! استحلفكم بسيد الأولمب ، بربة العدالة ثيميس ، إلا ما تركتمونى أقضى البقية الباقية من أيامى فى شقوتى وحدى ! هل أجرم أبى مرة مع أحد منكم فأنتم اليوم تأخذوننى بجريرته ؟ فيم إذن مقامكم هنا ؟ وفيم إذن تستنزفون آخر قطرة من خمرى دون مقابل ؟ اذهبوا ! اذهبوا ، ودعوا تلماك خوس البائس تحز فى نفسه أشجانه ، وتبرى اصطباره بلواه ! ! »

ودق الأرض بصولجانه ، وانفجر يبكى ، وكأنما انهمرت دموعه فى نفوس القوم ، فوجموا وجوماً شديداً ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة ، حتى نهض أنتنيوس آخر الأمر فقال .

« لله بيانك يا تلماخوس ! لقد كنت بليغاً حقاً ! ولكنك لم تصب كبد الحقيقة حين قصرت علينا اللوم ، وحين لا ملوم إلا أمك ! لقد خدعتنا جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تتم أربعاً ، إذ رسائلها تترى علينا ، تحيى فى نفوسنا الآمال ، وتذكى فينا الأمانى ! لقد كانت وعودها تترادف كالبروق الخُلَّب ، وتتراءى كالسراب المُضِلّ اتخذت لها منسجاً وطفقت تعمل عليه وهى تغرر بنا ، وتقول : « أيها الإغريق : لقد قضى[1] أوديسيوس ما فى ذلك ريب ، وكلكم تطمعون أن تفوزوا بزوجته ، ولكن أبى ليرتيس رجل شيخ ، وهو يدب بخطى وئيدة إلى حافة القبر ،

---

(١) مات

أفليس أخلق بى وبكم أن تنتظروا حتى أنسج له هذا الثوب لتكون منه أكفانه . وحتى لا أكون مضغة فى أفواه الإغريقيات إن تركته برغم ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاته ؟ » . ولقد أجبنا سؤلها وتلبثنا طويلا ، نرجو لو نفرغ من نسج هذا الكفن . بيد أنها كانت تنقض بالليل ما تنسجه بالنهار . وهكذا دواليك . ظلت تخادعنا تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى وصيفاتها ، إذ حدثتنا به ، واستطعنا أن نضبطها وهى تنقض غزلها أنكاثا فى ضوء المشاعل ، فى جنح الليل . فأجبرناها على إتمامه بالرغم منها . . . هذه هى الحقيقة يا قوم ! والآن ! فلترسل أمك أيها الفتى إلى أبيها ، وليختر لها من بيننا بعلا ، أو فلتختر هى لها بعلا . . . أما إذا عكفت على مكرها بنا . فلتثق أن شيئاً منه لم يعد يجوز علينا ، مهما ظنت أنها أحذق من تيرو ، أو أكيس من ألكمينا ، أو أبرع من ميسينيه[1] . . . . حسبها ما خدعتنا ! وإنا نقاسمك يا تلماك أننا لن نبرح عاكفين على ما شكوت ، من ذبح لنعمك ، وإراغة لزادك ، ومعاقرة لخمرك ، حتى تختار لنفسها ؛ أو . . . فلتخرب هذه الدار ، ولينضب معين خيرها . .

وشاعت الكبرياء فى كل جارحة من جوارح تلماخوس فقال « أنتينوس ! ماذا أصابك؟ كيف تسألنى أن أقهر أمى التى غذتنى ونشأتنى على غير ما ترضاه ؟ كيف أطردها من قصر بعلها الذى لا يعلم غير الله إن كان حياً أو ميتاً ؟ لبئس ما أجزيها به ، ولشد ما أغضب أبى وأثير غضب الآلهة علىَّ إن فعلته ! ! إنها ستدعو إيرينيس كى تنتقم لها منى ، وستنصب علىَّ لعنات الناس جميعاً ! ؟ ويحك أيها الرجل ! لن أقولها أبداً . . بل اذهبوا أنتم فسلوها ما شئتم ؛ فإما أجابت طَلِبتكم ، وإلا فانصرفوا غير مأجورين . . . أذهبوا . . . فأولموا ولائمكم فى غير هذا القصر ، وأريغوا من زادكم ، وأنفقوا مما تحبون ! ! أما إن رأيتم أنه أحلى لكم أن تأكلوا

---

(١) من ربات الفنون عند اليونان

مال غيركم . فإنى سأهتف أبداً بالآلهة أن تقتص لى منكم . فهى محيطة بكم ! . . . » .

* * *

وماكاد تليماك يفرغ من مقالته حتى أرسل سيد الأولمب نسرين عظيمين طفقا يضربان الهواء بخوافيهما ، ثم جعلا يُدَوِّمان فوق الملأ ويقدحان الشرر من أعينهما . . . نذيرَى ردى ، وصيحة منون . ثم انطلقا نحو المدينة وغابا فى ظلام البعد .

وشده القوم ، وريعت أفئدة الخطاب ، وأخذوا يتخافتون . . ثم نهض فيهم القديس هاليتير بن نسطور المعروف بورعه وصدق نبوءته ، فقال :

« أيها الناس ! يا أبناء إيثاكا ! اسمعوا وعوا ! ليحذر الخطاب الغافلون ما يخبئ لهم الغيب من شر أوشك أن ينقذف على رؤوسهم ! إن أودسيوس حى يرزق ، وأنه عائد إلى وطنه ، بل إنه ليُغِذُّ السير إلى هنا ! وإنه ليحمل الموت الأحمر إلى خصومه ، والخير الأخضر إلى مواطنيه ! أنا ماليتير . قدِّيسكم الذى لا يكذب قد أنبأته قبل أن يبحر إلى طروادة بذلك النبأ وأنه عائد إلى وطنه بعد أن ينتصر على أعدائه ، ويذيقهم ضعف ما صنعوا ولن يجديهم أن يتوبوا أو يندموا . . . وليأتينكم نبؤه بعد حين ! » .

وسخر القوم منه واستهزأوا به . وقام بوريماك يرجمه بهذه الكلمات :

« انقلب إلى دارك أيها العجوز الخرف ! هلم إلى أحفادك الكسالى فتنبأ لهم بما ينبغى أن يأخذوا حذرهم منه ! لقد قصف المنون عود أوديسيوس الفينان . فليته قصف عودك كذلك ! طير؟ ! ها ! إن الطير طالما يستنسر فى سماء إيثاكا ؟ إن أكبر الظن أنك تطمع فى منحة من ابن مولاك تليماك . . . ولكن اصغ إلى ؟ لتكن لك منحة منا إن تنبأت له عما يكاد يذهب بك وبه من بطشتنا إن لم يختر لنفسه ! أسمعت ؟ لقد نصحنا له أن يرسل أمه إلى بيت أبيها ليختار لها الكفء الذى ترضى ، فلم ينتصح وأنا أرسلها كلمة

صريحة فى غير مين ، إننا لن نبرح عاكفين على ما نحن فيه من هذا الخير ، حتى تخضع بنلوب . فنمضى مأجورين . . وثق ، أيها الشيخ المهيب الخرف أن نبوءاتك لن تفزعنا ، بل هى تضاعف سخطنا عليك ، وبغضاءنا لك . . . ألا ما أطيب الإقامة هنا ؟ ! لتزدد بنلوب عناداً ، فإنا لا نزداد إلا جِلاداً . . . » .

ونهض تلماك فقال :

« على رسلك يا يوريماخوس ! وعلى رسلكم أيها الخطاب جميعاً . . . لقد أرسلتها كلمة حق فلم تستمعوا لها ! أبداً لن أضرع إليكم مرة أخرى . . . الآلهة بينى وبينكم ، ، والإغريق أجمع أعلم بأمرى وأمركم ؛ غير أن لى طلبة إليكم بودى لو أنلتمونى إياها . . فهل تسمحون بمركب وعشرين بحاراً فأقلع من فورى هذا إلى بيلوس ثم إلى أسبرطة ، عسى أن أسمع خبراً عن أبى ، أو أتلقف نبوءة من سيد الأولمب الذى بيده ملكوت كل شيء . . . إنى إذا أيقنت أن أبى لا يزال حياً فقد أوفق إلى العثور به ولو بعد حين ، أما إذا استيقنت من هلاكه فإنى عائد إلى إيثاكا ، فمقيم له نصباً يتفق وهذا المجد الباذخ والذكر التليد ، ثم يكون لى مطلق الحرية فى منح أحدكم يد أمى فتكون زوجه المخلصة إلى الأبد ، بعد أن أتم لأبى كل المراسم الجنائزية ، لتقر روحه العظيمة ، وتسكن إلى ربها فى ظلال هيدز [1] .

وكان فى المجتمعين رجل تبدو عليه مخايل النبل ، وفى رأسه جمرات المشيب ، تهالك على نفسه حين وقف ينافح عن تلماك فإذا هو الشيخ منطور ، الذى كان أوديسيوس قد استخلفه على أهله قبل إبحاره إلى طروادة ، لصداقة قوية كانت تجمع بينهما . . . قال منطور :

« إسمعوا إلىَّ يا أهل إيثاكا ! مالكم اليوم قد نسيتم آلاء ملككم

(١) اسم الدار الآخرة فى الميثولوجيوهى حادس دار بلوتو .

أوديسيوس عليكم ، وهو الذى كان يرعاكم كأب ، ويغدق عليكم من فيضه العميم ؟ ما لكم قد تقاعستم دون هؤلاء الخطاب الذين يذهبون بخير مولاكم ويأكلون مال ابنه بغير الحق ، وهم قلٌ وأنتم كثر ، آمنين مطمئنين ، لا يرهبون أوبة مفاجئة من البطل الشريد . . . ؟ » .

وهاجت كلمة الرجل كوامن الخطاب فهب أحدهم وهو ليوكريتوس ، يقول :

« رويدك يامنطور ! أيها الثرثار العجول ! كيف تجرؤ أيها الرجل فتثير الشعب على الخطاب وهم سادتك ؟ هل أعجبتك كثرتهم يامنطور ؟ إذن فأبشر بعجزهم دون ما ابتغيت ، وثق أن ملك إيثاكا نفسه لن يستطيع معهم شيئا إذا حاول إخراجهم من بيته هذا ، إذا قدر له يوماً أن يعود ، إنه إذا فعل فسيذوق وبال أمره ، ولن تنال منا حماقاتك ولا نبوءات هاليتير ، وبنلوب نفسها لن تسر بأوبة أوديسيوسس ؛ ولكن اسمع أيها الشيخ ، إنه لن يضيرنا أن يذهب تلماخوس فيذرع البحر باحثاً عن والده ، وله أن يتخير من السفن ما يشاء . . . » .

وتفرق القوم ، وأسرع الخطاب إلى خيامهم ، وانقلب تلماك إلى شاطئ البحر ، حيث وقف فوق صخرة ناتئة يناجى مينرڤا :

« أيتها الربة المباركة ! ياإلهة الحكمة مينرڤا ! يامن كنت أمس ضيفة مكرمة تحت سقف هذا البيت ؛ أصلى لك ، أنا تلماخوس التعس ، وأبتهل أن تباركيني وتسددى خطواتى ، وأن تكونى رائدى الأمين فى عباب هذا البحر ، وأن تشدى أزرى وتكونى معى إلباً على هؤلاء الفساق العرابيد ، وأن تشرقى فى ظلماتى البعيدة ، وأن تحلى أمناً وسلاماً علىّ . . . يامينرڤا ، يامينرڤا ، إستجيبى ياربة العدالة . . . » .

واستجابت مينرڤا ، وأقبلت فى صورة الأمين منطور حتى كانت قبالة تلماك ، ثم شرعت تكلمه كلمات هن أروح من أنفاس الفجر ، وأندى من نسمات الورد ، وأعذب من قطرات الندى :

السلام عليك ياتليماخوس ! السلام عليك حين تثبت أنك ابن أوديسيوس الوفى وفرع دوحته الوارف ، وحين تبدوفيك بدوات من حوله وطوله وقوة بأسه ، وحين تقلع على بركة السماء وفى عناية الآلهة ورعاية سيد الأولمب ؛ فى رحلة لن تكون عبثاً . . . أنت ابن أبيك ياتليماك . . . أتى بك من بنلوب . . . وآية ذلك هذه الروح القلقة التى تشيع فيك من أجله ، هذا الجبروت الذى هو نفحة منه ، وذلك الصوت الجبار الذى يتلجلج فى فمك كأنه فيض من لسانه ، وذلك الذكاء الوقاد الذى هو قبس من ذهنه العظيم . . . بشراك ياتليماك ! لا يحزنك خيال أعدائك فقد أوشك القضاء أن ينقض على رؤوسهم فيحطمهم . . . أنا . . أنا هذا الشيخ المهدم ، صديق أبيك وأمينه منطور ، سأكون معك ، وسأخدمك ، وأسهر عليك ، وأفديك ، . . لكن لتمض الآن فلتعد للرحلة ما هو حسبها من زاد وعتاد ، ونخبة أولى بأس من رجالك الأقوياء ، سأنتقى أنا نفسى اشدهم مراساً وأصدقهم عزيمة . . . امض على بركة الآلهة . . . امض . . . لا وقت لدينا فنضيعه . . هلم . . . » .

وسكتت مينرڤا . . . ولكن حرارة كلماتها أشرقت بالآمال فى نفس تليماك ، فذهب وقلبه يخفق بألف أمنية . . . إلى القصر . . . حيث رأى الخطاب يذبحون ويعدون نار الشواء ، وحيث قفز أنتينوس للقائه ساخراً مستهزئاً :

« تليماك ! ناشدتك الآلهة إلا ما شاركتنا غداءنا واطرحت بغضاءك هنيهة ! هلم ! خذ نصيبك من هذا الشراب أيها الصديق . لا يشغلك أمر هذه الرحلة . . . فقد أمرنا أن يعد لك الآخيون سفينة عظيمة وقدراً من الزاد كبيراً ، وعصبة من الرجال أولى قوة . . . وسنبحر قريباً فتذرع البحار وراء أبيك . هلم . . . هلم . . . »

ولكن تليماك عبس عبوسة قاتمة ثم قال :

« أنتينوس ! إليك عنى فما أستطيع مشاركة خصومى السفلة غداءهم ولا لى قلب فأشرب النخب من يدك ! لا بورك لكم هذا الذبح الذى لا يحل لكم ، والذى استبحتموه من غير حق ، إذ أنا طفل أحبو . . . أجل ! لأستعجلن لكم الخراب ولأسعين فى حتفكم ، ولأذهبن إلى بيلوس فأنتصر إذا عزنى النصر فى إيثاكا ! أيها الذئاب ! حتى سفائنى وعتادى تنكرونها على ! » .

وكان اللئيم قد أمسك بيمين تلماك كالمصافح المستهزىء ، ولكن تلماك جذبها ساخطاً ، وترك الكلاب تغمزه وتلمزه ، وتستهزئ بهذا العون الذى يرجوه من بيلوس ، وتلك الجحافل التى يأمل أن يجردها عليهم من أسبرطه . . . « ومن يدرى ؟ فقد يهتدى إلى إيفير المثمرة ، فيجد فى أعشابها بقلة يدس لنا منها فى كؤوسنا فتريحه منا . . . » . . « . . . بل من يدرى ؟ فلقد يبتلعه اليم كما ابتلع أوديسيوس من قبل ، وتكون هنالك الطامة ! إنا إذن نقتسم هذا المتاع وتلك الضياع ، ثم نمهر أحدنا الذى تختاره بنلوب بعلاً لها ، بهذا القصر المنيف ! . . . » .

وتركهم تلماك ، ومضى قدماً إلى غرفة أبيه بالطابق العلوى ، حيث كنوزه التى لا تقدر ، من عدة للحرب وذهب مدخر ، وخمرة معتقة ، وروح اذفر ، وخز وديباج ، ودروجوهر ، ومغافر[1] أعدت لليوم المنتظر . يوم يعود أوديسيوس فيظفر ويقهر ، ويطهر بيته من ذاك النفر . .

ووجد عندها حارستها يوريكليا فصاح بها .

« ربيبة ! يوريكليا ! هيا ! صبى من خمرك فى زقاقى ! من مدامتك التى أدخرتها لأبى . . . لا . . . لا . . . ليس من صفوتها ياربيبة ، احتفظى بصفوتها له ، املئ اثنى عشر دنا ، وهيئ عشرين جوالقاً من دقيق ، هيا . . أعديها كلها لتحمل إلى سفينتى بعد أن تنام الملكة . . . لا

(١) المغفر والمغرة زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

يعلمن أحد بأمر رحلتى إلى بيلوس وأسبرطة . . حتى ولا أمى ! سأرحل ثمة . . سأتسمع أخبار . . . »

وصمت تلماك هنيهة . . واستعبرت ربيبته يوريكليا ، وأرسلت هذه الكلمات على أجنحة من الحنان ، وفى أنسام من الرحمة .

رويدك يابنى ! أى سفر وأى نوى ! لقد انتهى أوديسيوس وانتهى معه كل شئ ! وهو اليوم رفات سحيق فى رمس عميق فى بلد لا نعرفه ! أتسافر ياتلماك ليأتمر هؤلاء الذئاب ، وقد يسلطون عليك من يغتالك ، ثم ينتصفون كل مالك بعد ذلك ؟ حاشاك يابنى ! لتبق معنا نحن الذين أحببناك واصطفيناك ! فيم تذرع عباب هذا البحر ولا رجاء لك فى مطمح ولا ثقة لك فى شئ ؟ » .

وأجاب تلماك فى رفق .

« رويدك أنت ياربيبة ! إنى لم أعتزم شيئاً من تلقاء نفسى . . . إنها السماء هى التى توحى إلى ! ولكنى أستحلفك بكل أربابك ألا تقصى شيئا مما اعتزمه على أمى إلا بعد أحد عشر يوماً أو اثنى عشر يوماً من رحيلى . . . فإنها لو علمت بسفرى لأظلمت فى عينيها مباهج الحياة وذهبت نفسها علىّ حسرات » .

وأقسمت يوريكليا بكل أربابها ، وانثنت تهئ دنان الخمر وأحمال الدقيق .

أما مينرڤا ! أما ربة العدالة والحكمة الخالدة ، ذات العينين الزبرجديتين ، فقد يممت شطر البحر وقصدت إلى المرفأ حيث لقيت نويمون بن فرونيوس سيد الملاحين ، وسألته إحدى جواريه المنشئات ، فأعد لها واحدة من خيارها . وما كادت ذُكاء تلج فى خدر الأفق ، وما كاد الشفق يبكى فيصبغ بدموعه جبين السماء ، حتى كان الملاحون قد هيأوا القلوع ونشروا الشراع ، وخبروا مجاديفهم وحمّلوا عددهم ، وتزودوا من

السلاح ؛ وكانت مينرڤا نفسها تستحثهم ، فسرعان أن تهادت السفينة ، ورقصت نشوى فوق هامات الموج .

وذهبت مينرڤا ، فى صورة منطور وفى طليسانه فأشرفت على عصية الخطاب ؛ وتمتمت بكلمات فانتشر الظلام فوق خيامهم ، ولعب النعاس ملء جفونهم ، وكانت الكؤوس لا تزال تقهقه فى أيديهم ، فسقطت عن غير عمد لتسقى الأرض من تحتهم شرابا !

وطفقوا ، تحت طائف من الكرى ، ينسلون إلى خيامهم . . .

وأدلفت مينرڤا نحو القصر لتلقى تلماك .

« تلماك ! هلم ! البدار ! أنت هنا وكل رفاقك فى الفلك المشحون ينتظرونك ! هلم ! يجب ألا نضيع وقتنا سدى »

ونهض تلماك ! وسارت مينرڤا ، وسار هو فى أثرها حتى كانا عند سِيف البحرِ ، وحتى أشرفا على السفينة .

« مرحباً يارفاق ! هلموا فاحملوا هذه الدِّنان وتلك الأحمال إلى السفينة ! لا أحد يعلم أمر رحلتنا حتى ولا أمى ! إلا ربيبتى !

وامتثل الملاحون أمر سيدهم ، ثم تقدمت مينرڤا فركبت السفينة ومن ورائها ابن أوديسيوس ، وجلست هى عند الدفة ، ونشط البحارة فهيأوا المركب ، وحدجت المغرب ربة العدالة بعينيها الزبرجديتين فهبت النسمات رُخاء ، ورقصت تحتها الأمواج من طرب ، وانتصب تلماك واقفاً يحث رجاله ؛ واضطرب الماء تحت السفينة واصطخب ، وصب القوم دنانا من الخمر تقدمه للآلهة وقرباناً لمينرڤا وتحية لا تبيد !

واحلو لك الليل وتدجى غيهبه ؛ ثم انجاب ظلامه عن فجر مبين !

بيلوس ...

تليماك يسائل نسطور عن أبيه

برزت ذكاء من لجه المشرق فصبغت آرادها [1] الذهبية جبين الأفق النحاسى ، وسكبت الأضواء الجميلة لتهدىَ إلى السبيل السوى ، والقت السفينة مراسيها تلقاء بيلوس ، مدينة نليوس [2] ؛ حيث وجدوا القوم على الشاطئ يُقربِّون القرابين باسم پوسيدون ، ذى الشعر اللازوردى ، وقد جلسوا فى صفوف تسعة ، وفى كل صف خمسمائة شيخ عتيد . وذبحت كل فئة قرابينها : تسعة عجول سمان ذوات خُوار ، فأكلوا الحوايا [3] ، وضحوا بالسواعد والأفخاذ ؛ ثم أقبل تليماك وبين يديه مينرڤا تتهادى وتقول :

« تليما خوس ! تشجع يابنى ، ولا تجعل للحياء سبيلا إلى نفسك ، وتقدم إلى أمير هذه البلدة الصنديد ، نسطور ، فقد تكون لديه أخبار عن أبيك ، وقد يجلو لك الشكوك التى تخامرك ، وثق أنه لن يخفى عليك من أمره خافية ، فقد تقدمت به السن ، وهو اليوم أحكم الناس . »

ويقول تليماك :

« أواه يامنطور ! ما أحسبنى أقوى على لقاء الرجل ، وأنا من تعرف من قلة الشأن ورقة الحال . . أنا الفتى الحدث . أنَّى لى بلقاء الشيخ ذى التجاريب ؟ »

---

(١) أشعة الشمس وذكاء هى الشمس .

(٢) نليوس هو ابن بوسيدون (نيتون) إله البحار وألد أعداء أوديسيوس .

(٣) الأمعاء وماليها والخوار صوت العجول .

وتجيبه ذات العينين الزبرجديتين .

« لا عليك يابنى ! إن هى إلا كلمات تقولها وعلى الله قصد السبيل ! العالم كله يعرف أنك نشأت فى ظروف قاهرة ما كان لك بها يدان ؟ »

ودلفت مينرفا ، ودلف فى إثرها تلماك ، حتى كانا فى وسط القوم . وحيث جلس نسطور العظيم بين أبنائه ، وحيث اشتغل أهله بالشواء ، وهب الجميع للقائهما . وتقدم ابن نسطور الأكبر ، بيزستراتوس ، فصافحهما هاشاً ، وتلقاهما باشاً ، وأجلسهما فوق الفراء المبثوث إلى جنب أبيه ، وأخيه الأصغر تراسميديس ، وقدم لكل مضغة من حَوِيَّةٍ ، ثم كأساً ذهبية من شراب كريم ، تذوقه قبل أن يجئ بها ، ثم قال مخاطباً مينرفا .

« مرحباً بك أيها الضيف المكرم ! لقد شرفت فى عيد نبتيون ، وبودنا لو أفرغت باسمه ما فى هذه الكأس من شراب صلاة له وزكاة ! ونرجو لو أشركت فى التقدمة زميلك ، فما أحسبه إلا محباً للآلهة ، خابتاً لها »

وتبسمت مينرفا ، وتناولت الكأس فى وقار ، وأرسلت هذه الصلاة باسم رب البحار :

« نبتيون العظيم تقدس اسمك ، وأحاط بالدنيا ملكوتك . . يامنقذ الضالين ومغيث المتضرعين ، أدرك بلطفك التائبين إليك ، ونجهم من دأمائك [1] ببركة أسمائك ، مولاى وتقبل من نسطور ومن ذريته ، وتقبل من جميع أهل بيلوس أضحياتهم ، ثم تفضل يامولاى فسدد خطى تلماخوس وخطاى إلى ما أقلعنا فوق هذا المركب الشاحب من أجله . . آمين آمين ! . »

وتناول تلماخوس الكأس بدوره ، ثم أفرغ ما فيها ، وتمتم بصلاة قصيرة ؛ وما كاد يفرغ حتى تفرق المدعوون من أهل بيلوس طاعمين

(١) البحر .

شاكرين ، إلا مينرڤا وصاحبها ، وإلى نسطور وولديه . . . ثم قال نسطور :

« أما وقد فرغنا من غذائنا فماذا أيها الوافدون ؟ من أنتم ؟ ومن أين حملكم هذا البحر ؟ أتجار أنتم ؟ أم قرصان تملأون الشطئان ذعراً وفزعا ؟ »

واستجمع تليماك شجاعته ، ونفخت فيه مينرڤا من روحها ، وتكلم فقال :

« على هينتك يا ابن نليوس العظيم ، يافخر هيلاس ؛ إنى أنا ابن صديقك وصفيك أوديسيوس ، سعيت إليك من أقصى الأرض أسائلك عن أبى ! أبى ! صفيك وخليلك الذى صال معك تحت أسوار إليوم وجال ، ثم لاأحد يعرف من أنبائه اليوم شيئاً ! لقد انتهت إلينا أخبار الأبطال اليونانيين جميعاً وعرفنا مصارعهم ، إلا إياه . . . أين رقد ؟ وأنّى ثوى ؟ وأيان قرت رفاته إن كان قد شالت نعامته [1] ، أو مضى على وجهه فى الأرض إن كان لا يزال حياً . . . إن الآلهة نفسها لا تشاء أن تدلنا من أخباره على أثر . ولشد ما أخشى أن يكون قد ثوى هناك . . فى أعماق مملكه نبتيون ، مع الجميلة امفتريت [2] لذلك سعيت إليك يا فخر هيلاس كيما تحدثنى عن أبى ، وكيما تذكر لى بعض ما تعرف عما ألم به إن كنت قد شهدته ، أو تقص علىّ ما عسى أن تكون قد سمعته من بعض حاشيتك التى تجوب هذه البحار . قل تحدث يانسطور ، ولا تخف عنى شيئاً . . . قل . . . إنى أستحلفك بكل ما كان يفتديكم به فى ساحة إليوم أن تقص على أنباءه . لقد كان يحبك ويجلك ويوقرك ، فاجز ابنه بعض ذلك »

وكأنما رأى نسطور حلماً لذيذاً فقال :

« ويحك أيها الصديق الشاب ! ما أروع ما هجت ذكريات الماضى المفعم بالأشجان ! ذكريات السادة الذّادة والمغاوير الصناديد ، الذين

---

(١) شالت نعامته أى مات .

(٢) ملكة البحار وزوجة نبتيون

سقطوا تحت أسوار إليوم العتيدة فأرووا ثرى الميدان بدمائهم وسطروا آية المجد بُمهَجهم ! إيه اخيلوس ياسليل الآلهة ؛ وبتروكاوس يامعجز الأنداد والأقران ؛ وأجاكس ! أجاكس الذى كان أمَّةً وحده ! لقد رقدوا جميعاً تحت قلاع بريام الجبار الشيخ ! ورقد معهم ولدى ! آه ياولدى ! أو اه ياقطعة قلبى وفلذة كبدى وثمرة حياتى وسُؤْدَدى ! يا أشجع الشجعان يا أنتيلوخوس ! أية قصة وأية مأساة ؟! يارعاك اللّه أيها الشاب المحزون ! أنّى لى أن أقص عليك أحداث سنين تسع كانت هموماً متصلة واحزاناً فاجعة وآلاماً تتسعر فى جميع القلوب !؟ أى لسان ذرِب يقص فلا يُملّ ، وأى فم رطب يحكى وما يعى ؟ ألا لو أنك أقمت تسمع الأعوام الطوال فاأحسب القصة تنتهى ! القصة التى لم تجد فيها شجاعة الألوف لولا خدعة أوديسيوس وحيلته ، وطول أناته وهمته ! ولكن حدثنى بربك أيها الشاب : إنك حقاً لولد أوديسيوس ؟ أجل ! إنك بملامحك وقسماتك غصن دوحته ، وأنك بكلماتك. العذاب عسلوج أرومته ! أوْه ، أوديسيوس ! يارفيق الشباب وحبيب القلب ! لشد ماتعتلج فى النفس تلك الخاتمة الهائلة التى قضاها على الأرجيف[1] سيد الأولمب بعد انتصارهم، وقبيل أوبتهم ! لقد حنقت مينرفا على ولَدَىْ أتريوس إذ تنازعا فقال قائل منهما نضحى لربة العدالة عند سيف البحر تلقاء إليوم . ولكن الآخر أبى ، وأبحر على أن يقدم لها القرابين فى آرجوس ! ياللتعيسين ! أجا ممنون البائس ومنلوس المسكين ! إنهما لم يصليا لمنيرڤا فحاق بها غضبها ، وعبثاً حاولا بعد ذلك أن يترضياها ! اختلف الأخوان ونام الجند حتى مطلع الفجر ، ثم أقلع نصف الأسطول فى موج ثائر مصطخب من غضب الآلهة ، بقيادة أجا ممنون ، وما هى إلا سويعات حتى هدأ اليم ونام الموج ؛ وبلغنا تندوس فذبحنا الأضحيات باسم الآلهة ، وسبحنا لرب البحار نبتيون ، فتطامن

(١) جنود أرجوس إحدى مقاطعات اليونان .

العباب ؛ ولكنا ما كنا ندرى ما تنسجه يد جوف [1] حولنا . بل لم يكن يخامرنا أقل شك فى وصولنا إلى الوطن سالمين . ذلك أن أوجه النظر اختلفت ثمة ، ونشب بين القادة نزاع فى الرأى : هل يقلعون من تندوس ، او يتلبثون بها حتى تنجلى العاصفة التى شرعت تهب فى عنفوان وشدة ؟ وهنا ، آثر ملاحو ابيك أن يعودوا أدراجهم بسفائنهم إلى طروادة ، وذلك مجاملة للقائد العام . بيد أنى لم أر هذا الرأى ، بل فررت من العاصفة بسفائنى إلى جزيرة لسبوس ولحق بناديوميد ، ثم وصل منلوس فى إثره ؛ وأرسينا ثمة ؛ وانتظرنا إذناً من السماء ، أو قل بارقة من الآلهة ، نقلع بعدها . وكانت العاصفة تشتد وترقص فوقنا ومن تحت أساطيلنا . فلم نر بُداً من المجازفة وإلا تكسرت جوارينا على الصخور وفوق الأواذىّ [2] ، . . . ياللهول ! لقد بلغت قلوبنا الحناجر قبل أن نصل إلى جيريستوس ! حمداً لك يانبتيون وثناء عليك ؛ وقلَّ أن نذبح باسمك ألف قربان من كل عجل جسد وكبش حنيذ ! ولقد فاز ديوميد فوصل بجنوده سالماً إلى آرجوس ، وكذلك فاز الجبابرة الميرميدون ، جنود أخيل ، بقيادة شبله العظيم نيو بتوليموس ، فوصلوا إلى أوطانهم غانمين ، ووصل من بعدهم فيلوكتيتيس . . . كذلك وصل أجا ممنون وليته لم يصل ! لاريب أنك سمعت بما حاق به ! لقد قتله المجرم إيجستوس [3] . ولكنه دفع روحه ثمناً لفعلته ؛ إن العيش لم يطب لابن أجاممنون حتى ثأر لأبيه ، فانقض كالصاعقة على قاتله وغاله بيده ! ياللفخار أيها الصديق الشاب حين تنتقم لأبيك فتسجل اسمك فى سجل الخالدين ! »

وشاع العجب فى نفس تلماك ، فقال :

« ويك نسطور ! إنه سيكون انتقاماً عادلا بحق السماء ، وستتغنى

---

(١) ريوس أوجوبيتر كما يسميه الرومان وهو كبير الآلهة .

(٢) الأوادى : الأمواج مفرده آذى

(٣) يجد القارئ شرح ذلك فى كتابنا التالى (أشهر المذاهب المسرحية) إن شاء الله .

الأجيال القادمة بقصته ، وسيرويه الخلف عن السلف . كم ذاوددت لو مكنت لى الآلهة فى أعناق هذه العصبة الفاجرة من الخطاب الآثمين الذين يدُلِون علىَّ بعددهم وعُددهم ، والذين يقذفون فى وجهى بالإهانة تلى الإهانة ... واأسفاه ! ليت شعرى لم لاتؤيد الآلهة حتى على باطلهم ؟ لقد نفد اصطبارى وكلّت حيلتى ... فماذا أعمل ؟ »

وقال نسطور : « أيها الصديق ، لقد أذكرت منى غافلا ... ويحك تليماخوس ! لقد تناقل الناس ماكان من حماقة هذه الطغمة التى تستبيح عرض أوديسيوس ، وتستنزف ثروته ... ولكن ، من يدرى ؟ هل أمنوا أن يعود يوماً فيستأصل شأفتهم ، ويُديل منهم ، وتكون له الكرة عليهم ؟ لقد كان أبوك العظيم حبيب مينرڤا وصفيها ، وهى لابد آخذة بناصرك كما أخذت بناصره من قبل ، وهى لابد مدركتك وشيكا ، وحائلة بين أعدائك وأعداء أبيك ، وبين هذه الزيجة المحرمة »

ويجيب تليماك :

« ألا من يدرى ؟ إنه لا أمل لى فى ذلك قط ! آه أيتها الأحاسيس الغريبة التى تجيش فى قلبى ! الآلهة فقط هى القادرة على تحقيق ذلك بمعجزة ! »

وهنا ، حدجته مينرڤا بنظرة هائلة من عينيها الزبرجديتين ، وقالت له :

« تليماخوس ! أية كلمة هائلة زل بها لسانك ؟ ! ما أيسر على الآلهة أن تقول للمستحيل كن فيكون ! أنا نفسى كم تجشمت أهوالا فى أسفارى ثم عدت بعناية اربابى سالماً إلى أرض الوطن ؟ بل كم من أناس ظنوا أنهم نجوا من الموت فى يم غشيهم بموج كالظُّلَل ، فلما وصلوا إلى البر حاقت بهم مناياهم كما حاقت به منيته أجاممنون ، حين خر صريعاً بيد إيجستوس الأثيم ، ويد زوجه الملكة [1] الغادرة الفاجرة الزنيم ! حقاً ، إن الآلهة

---

(١) كليتمنسترا

لاتملك أن تحول بين المرء وبين المنون ما دام قد جاء أجله ، مهما يكن حبيبها وأعز عبادها عليها . »

وعبس تلماك عبوسة خفيفة ، وقال :

« مهما يكن من الأمر فلندع هذا الآن يامنطور ! إننى لا أمل لى مطلقاً فى عودة أبى ، ولكنها أقضية من السماء ومقادير أن أذرع وراءه البحار ، وأن أعود فأسأل فخر اليونان نسطور ، اللبيت الأريب الذى حكم كما هو مأثور أجيالاً ثلاثة ، والذى يتألق فى عينيه سناء الآلهة . أعود فأسائله كيف قتل أجاممنون ؟ وكيف تهيأ لايجستوس أن يقتله ، وهو من هو أعلى منه نسباً وأعز حسباً وأشرف قدراً ، وأين كان منلوس الملك شقيق أجاممنون ؟ ألم يكن قد عاد بعد إلى أرض الوطن أم كان لايزال يطوى الآفاق ، فشجع ذلك إيجستوس ونفخ فى قلبه ؟ »

وقال نسطور : « رويدك أيها الصديق الشاب فإنى قاصٌ عليك نبأ ما لم يأتك به علم ... وتالله لو لم يُقتل إيجستوس قبل عودة منلوس ، ما أقيم على رفاته جدث ، وما بكت عليه عين ، ولألقى بدنه النجس لكلاب البرية وطير الفلاة تنوشه وتمزقه وتتغذى به جزاء فعلته الشنعاء وجرمه الذميم وخطيئته التى لاتغتفر إصْغ إلى . . . لقد أناب منلوس عنه حارساً أميناً يسهر على أمور المملكة . . . ذاك هو أتريدس الحميم ، الذى تغفله إيجستوس ، واتصل بمولاته سراً وهو لايدرى ، واستطاع أن يدبر معها هذه المؤامرة الشنيعة التى انتهت بنفى الحارس الأمين ثم قتله فى برية موحشة غالته فيها السباع الضارية والأوابد[1] الكاسرة ، حتى إذا خلا لها الجو أسْلست له الملكة القياد فحكم وساد ، وطغى واستبد ، وسلط على البلاد أعواماً سبعة طوالاً . . . كل هذا والسماء ساهرة لاتغفل ، فقد عاد أورست بن الملك الغائب ، وابن الملكة الفاجرة ، فأنقذ عرض أبيه وقتل الوحش اللئيم الذى دنس شرف المملكة ، ولطخ بالوحل هذا المجد الأثيل ، ثم قتل أمه . . . أجل ، قتل أمه وجمع حوله

(١) الوحوش .

الأرجيف البؤساء يحتفلون بهذا النصر ويصلون للآلهة التي أنقذتهم من ذاك الشر.
. . وبينما هم في أفراحهم وانشراحهم إذا بالملك العظيم يصل بأساطيله بعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر . . . فلقد أبحرنا (أنا ومنلوس) من طروادة معاً ، وما كدنا نبلغ صنيوم[1] ، أو لمرافىء أثينا ، حتى وقع ما لم يكن لنا بحسبان . . . ذلك أن رب الشمس أبوللو غال بسهامة التي لا تطيش ربان الأسطول العظيم فرونتيس ، فاضطر الملك أن يلقي مراسية حتى يصلى على صديقه ويقيم الشعائر على جثمانه ثم أقلع ، وما كاد ، حتى اضطرب البحر، وفغرت اللجج أفواهها ، وتدافع الموج حول الأسطول كالجبال ، وعم الجو ، وغامت السماء ، وانقضت الصواعق فانشعب الأسطول وتفرقت سفائنه ، وانشطرت وحداته ، فبعضها اتجه برغمه نحو شطئان مصر ، وبعضها غاص إلى الأعماق ، وخمس فقط . . . وصلت بعد طول الجهد إلى هنا »

« بني ... أيها الصديق الشاب ... أخلق بك أن تذهب من فورك إلى منلوس فتسائله عن أبيك ، فلقد لقي الأهوال في البحر ، ولا ريب أنه سمع كثيراً مما جرى فيه من مختلف الأمم في رحلته المشئومة ... هلم ... انطلق إليه ... وإن لم تسعفك سفينتك فإني ممدك بكل ما تحتاج من مركب البر أو البحر ، وهاهم أولاء رجالي معك أينما توجهت ، بل هاهم أولاء أبنائي ، ليصحبك أحدهم ، أو كلهم ، إلى منلوس ، فإن عنده الخبر اليقين »

وكانت الشمس قد توارت بالحجاب ، والليل قد نشر ظلامه فوق الطبيعة المنهوكة الخامدة فنهضت ابنة زيوس العظيم ، مينرفا الخالدة ، وهي لا تزال في صورة منطور أمير البحر وفي طيلسانه ، فقالت : « مرحى يافخر هيلاس ! لقد قلت حقاً وتكلمت صدقاً ؛ هلم ، البدار البدار ، اقطعوا ألسن القرابين[2] وأريقوا الخمر باسم الآلهة ، باسم نبتيون قبل كل شئ ...)

---

(١) sunium

(٢) كان من التقاليد الشائعة أيام هومير أن تقطع ألسن القرابين وتحرق باسم الآلهة لينصرف الجمع .

وانتشر الولدانُ بين المدعوين يصبون الماء على أيديهم بعد أن أدوا التحية الخمرية المقدسة لأربابهم ، ثم تفرقوا شيعاً ، ونهض تلماك وصاحبه لينصرفا ، لولا أن صاح بهما نسطور :

« حاشا يارفاق ! انتما ضيفى [1] ، فكيف تبيتان فى سفينتكما تحت طل الليل وهذا بيتى فيه كنٌّ لكما ، وفراش وثير ، وفيه ، والحمد للآلهة ، خير كثير ، وهؤلاء أبنائى سُمَّاركما ، وهم ثمة طوع لكما »

وشكرت مينرڤا للملك عطفه ثم قالت : « بوركت أيها الملك ، ليبق تلماك هناك ، ولأمض أنا إلى البحر لأسهر على صوالح مركبى ، ولأطمئن بحارتى ، فكلهم أتراب تلماك ، وكلهم متطوعون لخدمته وفاء وحباً ، وليس يجمل إلا أن أبيت أنا معهم تلك الليلة ، على أن نقلع صبيحة الغد إلى كوكون ، ولتأذن فتمنحه عربة وزوجاً من صافنات جيادك ليلحق بنا ثمة . يصحبه أحد أبنائك ، مادمت قد عرفت فيه ابنا لأعز أحبائك وأوفى أصدقائك »

ثم حدثت المعجزة ... فإنه ما كادت مينرڤا تتم كلامها ، حتى انتفضت انتفاضة هائلة ، وتحولت من صورة منطور أمير البحر إلى نسر عظيم مهوب اللفتات ، ما عتم أن ضرب الهواء بخافيتيه ، حتى حلق فى السماء ، وغاب فى لانهايتها ، بين دهش القوم ، وشديد حيرتهم »

وتناول نسطور العظيم يد تلماك ، وظل يقلب فيه بصره ، ثم قال :

« أيها الصديق ، لشد ما عظمت منزلتك ، وسمت مكانتك ، حتى لتكون فى رعاية الآلهة وعناية السماء ! هذه دون ريب ابنة سيد الأولمب — الكريمة مينرڤا — التى ما وقرت أحداً من أبناء هيلاس كما وقّرت أباك :

ولكن أنت ! أنت يامليكة العدالة ! ضرعت إليك أن تتلطفى بنا جميعاً ! امنحينى بركاتك . أنا وأبنائى وشعبى . . . اكتبى أسماءهم فى الخالدين ،

---

(١) بصيغة المفرد .

وسنصلى لك ونذبح باسمك خَيرَ بقرة ، لاذلول تثير الأرض ولاتسق الحرث ؛ مُسَلَّمَة لاشية فيها ؛ منضورة بالورد ، محلاة القرنين بالذهب » .

وقبلت مينرڤا صلاته ، ولبت دعاءه . ونهض وفى إثره أبناوءه وأحفاده ففتحت أبواب القصر وتقدمت ندمانة الشراب فقدمت إليه كأساً من خمرلها نسب من عهد أولمب ، فأفرغها فى الأرض تحية لمينرڤا ، واقتدى به قومه فأفرغوا كؤوسهم ، ثم مضوا إلى غرفاتهم ، ومضى الملك مع تلماك إلى مخدع وثير ، وفراش من حرير ، وأمر ابنه بزستراتوس فقام معه ، ثم ذهب حيث وجد الملكة فى انتظاره .

ونشرت أورورا (١) غلالتها الذهبية فى مشرق الأفق ، فاستوى نسطور على عرشه المرمر المتألق عند بوابة القصر ، حيث كان أبوه نليوس يجلس كإله للنظر فى صوالح العباد ، وأقبل بنوه الستة ومعهم تلماك الذى جلس جنب أبيهم ، وتحدث إليهم نسطور فقال :

« هلموا ياَبنيّ ، لنذبح القربان المقدس باسم مينرڤا الكريمة التى باركت حفلنا أمس ، لينطلق أحدكم إلى الحقل فليحضر ثوراً (٢) سميناً ، وليذهب آخر فليدْعُ رجال تلماخوس – إلا اثنين – من السفينة ؛ وليمض ثالث فليأت بالصنَّاع الفنان (ليرسيوس) ليجلل قرنى القربان بالذهب ، وليبق الآخرون هنا ، ثم لنحضر كل حاشيتنا من النساء ليكسبن الوليمة بهجة ورواء »

وأطاع أبناؤه الأوفياء ، وأحضر القربان ، وأقبل الملاحون الأمناء ، ثم قدم الفنان ليغطى قرنى البهيمة بالذهب ... ثم ... وافت مينرڤا ... مينرڤا نفسها لتشهد الطقوس التى تقام باسمها .. ، وبدأ الفنان عمله ، فأخذ يرقق صفائح الذهب ويثبتها بمهارة فى القرنين الصغيرين . وتقدم أريتوس

---

(١) ربة الفجر وحادية عربة أبوللوحين يركب الشمس عند الشروق

(٢) كان على نسطور أن يذبح بقرة مسلمة .

بن نسطور وفى إحدى يديه باقة كبيرة من الزهور وفى الأخرى سلة من أفخر أنواع الكعك ، وتقدم ابنه الثانى تراسيميد وفى يده شاطور كبير ليذبح الثور ؛ ووقف قبالته ليرسيوس يتلقى الدم فى وعاء كبير.

ونهض نسطور الأب فسبح وصلى أمام نار كبيرة مضرمة ، وتمتم باسم مينرفا ، وقذف فى اللظى بكعكتين كبيرتين ، وبناصية القربان ، وبقدر قليل من الماء المقدس . وإذا انتهى الجميع من صلاتهم شمر تراسيميد عن ساعده وجزر القربان ، وانكب الجميع يجهزونه ، وكانت يوريديس الجميلة المفتان تُعنى أشد عناية بالفخذين ، فسترتهما بثوب غال من الديباج ، وكان نسطور نفسه ينثر الخمر المقدسة والعطور والأرواح .. ، وهكذا أخذ الجميع فى شغلهم ، وشرعوا يلقون فى الجمر بالحوايا ، وشرعت پوليكاست تنثر البهار والتوابل .. وتهادى تليماخوس بعد هذا فاستوى إلى جنب الملك ، وانتصب الولدان والندامى يصبون الخمر ، وبدأ الكل يأكلون هنيئاً ويشربون مريئاً .

وما كادوا يفرغون حتى أمر نسطور فهيئت الصافنات الجياد لرحيل تليماخوس ، وأحضر القواص عربة كبيرة مثقلة بكل ما تحتاج الرحلة من زاد وعتاد .

وأخد تلياك مكانه من العربة الأولى ، واستوى إلى جانبه بيرستراتوس أشجع أبناء نسطور ، ثم سلم تلياك وودع ، وشكر وأثنى ، وجذب أعنَّةَ الخيل فانطلقت تنهب الرحب ، وتبتعد عن بيلوس .. وتطوى الزمان .

وبلغوا . مع مغرب الشمس ، فيريه ، حيث تلقاهم رب البيت بالبشر والترحاب ، وباتوا عنده ، حتى أيقظتهم أورورا المشرقة . فواصلوا رحلتهم إلى أسبرطة .

الخطاب يتآمرون

وصل الركب إلى أسبرطة بعد أن غوَّر فى وهادها وأنجد ، وانطلق تليماك وصاحبه من فورهما إلى باب منلوس الملك حيث وجدا ، لحسن الطالع ، وجوها مسفرة ، وجماهير مستبشرة ، وموسيقى تصدح ، ومنشدين يرددون أناشيدهم ويرسلون أغنياتهم ، ووليمة ملكية حافلة اجتمع لها الملك وأبناؤه وخلصاؤه ونداماه ، يأكلون ويشربون ويسمرون ويطربون . . . ماذا ؟ لقد اجتمع القوم من كل حدب ، وأقبلوا من كل صوب ، يحتفلون بابنى الملك : بابنه الذى زوجه أبوه من أجمل غادات أسبرطة وأكثرهن وسامة وقسامة وفتنة ، ابنه ألكتور العظيم ، ثم بابنته المفتان اللعوب الطروب التى رُزِقها على كبر من هيلين ، والتى نافست بجمالها ودلها هرميون ابنة فينوس .

وما كادا يجاوزان الوصيد حتى لمحهما إتيون . كبير أمناء الملك ، فانطلق إلى مولاه وحدثه عنهما . . « إن لهما لمهابة وإن عليهما لرواء ، فهل يأذن لهما مولاى ، أم يأمر فنردهما من حيث أقبلا ؟ »

وأومأ الملك برأسه الكبير الذى يزيد فى وقاره وحسن سمته شعره الذهبى ، وأمر إتيون أن يذهب إليهما ، فيسير بين أيديهما إليه . . . « . . . إذ كيف يُرد عن طعامى الغرباء ، وقد طعمنا طويلاً زاد الغرباء ؟ » .

ودعا إليه إتيون طائفة من الخدم وذهب إلى الوافدين الكريمين فحيَّا وسلم ، وحل اللجم وأناخ البُهم ، ومضى بهما إلى داخل القصر من طريق يشرف على مكان الحفل وترى منه الجدران التى ازدانت بأحسن زينة ، وقبة العرش التى تلألأت فى الأنوار الوضاءة والسُرج الوهاجة . . . ثم لقيتهما فتيات من عذارى القصر فقدنهما إلى الحمامات المرمرية الباذخة فاغتسلا وتضمخا ولبسا ثياباً ملكية ثم ، ذهبا للقاء رب هذه الدار .

وهش الملك لهما وبش ، وأجلسهما إلى جانبه على مقعدين وثيرين ، وهما فى دهش من ذاك المنظر العجب فأقبلت فتاة فصبت على أيديهما الماء ، وذهبت فأحضرت مائدة رائعة منسقة ، عليها قدر غير قليل من افخر الأشربات وأشهى الآكال ، ووقف خادم آخر يقدم طبقاً بعد طبق ، وكأساً من ذهب بعد كأس من ذهب ، والملك فيما بين ذلك يبالغ فى إيناسه لهما والحفاوة بهما ، ويُنظرهما حتى يفرغا من طعامهما فيخبراه عن أمرهما ، وكان يتلطف فيقدم لهما قطعاً من شوائه بيده .

وسارّ تليماك صاحبه فقال .

بيزستراتوس يا صديقى ! ما أجمل وما أفخم وما أروع ؟ ! هذا الحفل الباهر يتألق فى الذهب والفضة والعاج والكهرمان ودروع النحاس ! أبداً ما ترى العين مثل ذلك ، ولا تسمع الأذن إلا عن قصر سيد الأولمب فى شعاف جبل إيدا ! أية ثروة وأية كنز ؟ !

وسمعه منلوس الملك فقال :

« بنى ! لا تقرن قصر أحد منا – نحن بنى الموتى ؟ إلى قصر سيد الأولمب ! وأنت على حق حين ترى أن لا أحد يملك ما أملك أنا من أذخار وكنوز ، فقد سحت فى أقصى الأرض سنين عدداً ، وجمعت الدرر الغوالى من كل فج . . . من كريت وقبرس وفينيقية ومصر ، ومن أثيوبيا وإيرمبى . . . ومن صيدا ولوبيه . . . ورؤوس الشاه والوعل هذه . . . الوعل الوحش السائم . . . والشاه التى تمدنا بخيرها بغير حساب . . . لقد طوفت فى الآفاق وتركت فى كل منها ذكرى ، ولا غرو ، فقد نبأكم آباؤكم أنباء منلوس الملك الذى دك المعاقل وهدم القصور . . . ما أنس لا أنس هذا القصر العتيد الذى جعلت عاليه سافله بما فيه من أذخار وقُنى ، وددت لو كان فى قصرى شئ منها ، وود الإغريق لو حصلوا فى بلادهم جميعاً على بعضها ! هناك ! هناك تحت أسوار طروادة ياصاح ! ياويح نفسى ! يارحمتا للأصدقاء الأحباء الأعزاء الذين ناموا

ثمة ! لشد ما أسلى النفس عنهم بالتأسى ؟ لشدّ ما يندلع الأسى فى قلبى عليهم جميعاً ، ولاسيما صنى وخليلى وأعز أودائى علىّ . . . أوديسيوس ! أوديسيوس الكريم ! ليت شعرى يا صديقى فيم شطت بك النوى وطال عليك الأمد ؟ أحى ترزق ؟ أم ثوبت فى بطحاء بلقع ؟ ياويح لك ، ولأبيك الشيخ ، وزوجتك الملتاعة ، وابنك المحزون اليتيم تليماخوس ، الذى غادرته فى المهد ما بلغ الفطام ، إلى حومة الوغى وحَلبْة الحمام . . . » .

ولم يملك الفتى دموعه حين سمع هذا الهتاف باسم والده فنشج نشيجاً مؤلماً ، ثم استخرط فى البكاء ، وطفق يُذرى شئونه[1] فى طرف ثوبه . . . بين دهشة منلوس وحيرته ، وذهول الحاضرين . وانعقد لسان الملك فلم يسأل الشاب عن حاله ، حتى أقبلت هيلين فجأة ، فتلفت القوم ينظرون إلى هذا الرشا[2] الذى يتثنى مياساً فى ظلال من الفتنة ، كأنه ديانا ربة القوس الذهبية . . .

واستوت على عرشها المنضد ، الذى أصلحته يد أدرستا[3] وعناية أكليب[4] ، ثم أحضرت الطُّرَف والهدايا واللهُّى . . . فهذه سلة من الفضة المزخرفة بالتصاوير هدية من ألكندرا زوج پوليب أميرة طيبة ، عروس المدائن المصرية ؛ وتلك عشر بِدر[5] من النضار الخالص ، وطستان من الذهب ، ودنان من الإبريز . . . يقدمها كلها ملك أسيرطة إلى زوجه البارعة الرائعة الهيفاء . . . ونظرت هيلين إلى الضيفين الغريبين ، وسألت زوجها :

« ملكى ! نشدتك الآلهة أن تخبرنى من هذان ؟ إن أحدهما شديد الشبه بطفل أوديسيوس . . . الصغير تليماخوس . . . الذى تركه أبوه صبياً فى المهد من جراء حرب إليوم المشئومة . »

---

(١) دموعه (٢) الغزال (٣ ، ٤) من ربات الفنون

(٥) جمع بدرة الصرة من المال النضار الذهب

وقال الملك : « وأنا مثلك يا هيلين ، لقد دار بخلدى ما دار بخلدك من أمر هذا الفتى ! ألا ما أشبه الساقين والساعدين وتفتير العينين واسترسال اللّمتين[1] بما كان لأوديسيوس ؟ ! لقد ذكرت ما قاسى صاحبى من أجلى وفى سبيلى تحت أسوار إليوم ، فسرعان ما رأيت الشاب يبكى ويبكى ويبالغ فى البكاء ، ثم يغلبه حزنه فيخفى وجهه ، وفيه روحه ، فى ثيابه من الهم » .

وانتهز ابن نسطور الفرصة فقال :

« حقاً أيها الملك إنه هو ، ولكنه خجول حييّ ، ولقد أوشك حياؤه أن يمنعه من لقائك ، وقد هاج تباريحه ما ذكرت عن أبيه . أما أنا ، فإنى ابن نسطور صديقك الآخر ، وقد أمرنى أبى أن أصحب تلماخوس إلى هنا عسى أن يسمع خبراً عن أبيه الذى ذهب يذرع الأرض ، ولا يعلم أحد أيان قد ذهب . . . وهاك ابنه المكلوم يجتر أشجانه ، وتطحن فؤاده أحزانه » .

وشُده البطل – ذو الشعر الكهرمانى – فقال :

« ياللآلهة ! أهكذا أفاجأ بلقاء ولدى ! أنت ؟ ابن أوديسيوس الذى شقى طويلا بسببى ، وبذل نفسه من أجلى ، ولا يزال يناضل الويلات من جرائى ؟ كرامة وحباً يا ابن خير الأصدقاء ! لو عرفت أنك تسعى للقائى لَشيِدْتُ لك مدينة فى آرجوس ، تتيه على المدائن وتُزهَى على القرى ! ورفعت لك عماد قصر مُنِيف طالما كنت إخاله يؤوينا جميعاً فنسعد سعادة لم يحلم بها قوم من قبل ولا من بعد . . . ونلتذ ، أنا وأبوك وأنت ، وجميع أهلى وأهله ، ذكريات الماضى المترع . . . آه يا أوديسيوس ! لقد طاشت الأحلام وذابت الأمانى ، وقست عليك السماء . . . فحرمتك كل شيء ، حتى الأوبة إلى أرض الوطن ! » .

---

(١) اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .

وأثارت كلمات الملك شجون القوم ، فبكى تليماخوس ، وأذرفت الملكة ، وانبجس الدمع من عيني بيزستراتوس حين ذكرت طروادة فأذكرته قتل أخيه تحت أسوارها : ثم قال : : « حسبك أيها الملك ! لقد تذاكرنا . أنا وصاحبي ، جلائل أعمالك فعرفنا فيك المليك الأجل ، والمقدام البطل ، ولكن ماذا تجدى دموعنا ؟ لقد غالت يد الردى أخي وإبن أمي وأبي في سبيلك كذلك ! ألا تذكر؟ أنتيلوخوس ! البطل المغوار والفارس الكرار الذى لم تكتحل عيناى برؤيته ! أوه يا ابن أورورا الغادر ، شلت يداك بما فتكت بأخي ! . . . » .

وتعطف الملك فطيب ابن نسطور بكلمات غاليات ، وأمر النُّدمان فصب الماء على أيديهم جميعاً ثم أخذوا يتناولون طعامهم ، وصبت هيلين قطرات من طِيب مُذْهِب للأحزان فى كأس تليماك ، وكأس صاحبه ، لا يعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل ، وهى قطرات عجيبة أهدتها إلى الملكة ، زوجة (ذون) الأميرة المصرية پوليدامنا ، وكم فى مصر من سحر مبين ! .

وتكلمت هيلين . فذكرت ما كان من أوديسيوس يوم التقى الجمعان عند إليوم ، وكيف استطاع أن يتسلل مستخفياً فى ثياب شحاذ إلى داخل المدينة العتيدة ، وكيف قابلها فى حجرة پاريس ليطلعها على خطة اليونانيين ، وما كان من رجائه إياها ألا تفضحه عند أعدائه حتى يعود سالماً إلى معسكره ومخيمه ، وأنها برَّت فلم تنبئ أحداً بوجوده . . . ثم رأت أن تتنصل من فضيحة فرارها مع پاريس فادعت أنها كانت مسوقة إلى ذلك برغمها لأن ڤينوس كانت قد سحرتها عن نفسها (لما وعدت به پاريس من أنها ستهبه أجمل غادات هيلاس إذا هو قضى لها بالتفاحة[1] . »

---

(١) قضى پاريس بالتفاحة لفينوس وحرم منها منيرفا وحيرا وذلك هو سبب عدائهما للطرواديين (كتابنا قصة الإلياذة)

واخجلتاه ! لقد أزرى بى أن أفر راغمة فأهجر فراشى الطهور وطفلتى اليافعة إلى بلاد قاصية لا ناقة لى فيها ولا جمل . . . » .

وأعْذَرَها الملك ثم ذكر أوديسيوس فقال :

« أبداً ما رأيت أثبت جاشاً ولا أربط قلباً من أوديسيوس ؛ وإن أنس لا أنس يوم الروع الأكبر ، يوم فكر أوديسيوس وفكر ، ثم دبر هذه الحيلة العجيبة ، حيلة الحصان الهُولة الذى قهر لنا طروادة فى يوم أو بعض يوم ، وقد عيينا بها السنين الطوال . لقد اختبأ داخله فرسان هيلاس[1] الصناديد ، وكنت أنا – سقى الله الشباب – واحدًا منهم ، فما أنسى قط حين أقبلتِ فى عصبة ذوى أَيْد من مذاويد الطرواديين (إذ هتف بهم هاتف إن الحصان يحمل لهم شراً ويطوى لقريتهم ثبوراً) فجعلتِ أنت تنادين بأسماء الفرسان اليونانيين واحداً بعد واحد لِترى هل اختبأ منا بداخله أحد كما تنبأ بذلك المتنبئون . تالله لقد كدت ارد عليك نداءك حينما هتفت باسمى ، وتالله لقد أوشك زميلى ديوميد أن يرد عليك هو الآخر ، لولا أن فطن أوديسيوس فحذرنا وحبس ألسنتنا الشقشاقة التى كادت توردنا موارد الهلاك ، لو أن أحدا منا خُدع فنبس – ببنت شفة – واحربا ! لقد صمتنا جميعا ولكنك عاوذْت ، فما كدت تهتفين باسم أنتيكلوس ، حتى أوشك المجنون أن يلبى ، لولا أن كتم أوديسيوس أنفاسه بكلتا يديه ، حتى لكاد يزهق روحه ! ولم يعفُه حتى أيقنا أنك عدت أدراجك ، وعاد معك القوم المنكَرون » .

ثم كان الهزيع الأخير من الليل ، فتلطف تلما خوس واستادن الملك فى الانصراف ليأخذ كلٌّ نصيبه من النوم ، فتأذَّن ، وأشارت هيلين إلى وصيفاتها فأهرعن إلى مخادع الأضياف ، فأصلحن فرشها ، وأعددن الملاحف والوسائد والحشايا . ثم نهض أمين الملك ، ونهض فى إثره بين استراتوس وتلما خوس ، حتى كان كل فى مخدعه ، وحتى اطمأن كل فى سريره ، وناما فى حرير وسمور[2] .

---

(١) اسم يونان القديمة وتنطق إيلاس . (٢) نوع من فاخر القماش

وتهاويل غير ذاك من الرقم ومن سندس ومن زرياب[1]

ونهض الملك والملكة كذلك فدخلا القصر، واستسلما لأطيب الرقاد.

* * *

وذرَّ قرْن أورورا، ربة الفجر، فى المشرق الوردى، فهب الملك وأصلح شأنه، ورف بازيه الأشهب فوقف على غاربه، ثم مضى إلى مجلسه حيث لقى تلماك فى انتظاره، فحيّا وجلس وبدأ حديثه فقال:

«أى بنى! تلماخوس؟ أيها البطل وسليل البطل! فيم شددت رحلك إلى هنا؟ إلى رحاب ليسديمون[2] فى فلوات البر وسروات البحر؟ ألأمر عام، أم لشأن يخصك ويتعلق بشخصك؟».

وأجاب تلماك: «مولاى الملك! منلوس العظيم! لقد جئت أتحسس خبراً عن أبى، وأقبلت أحَدِّثُ عن أعدائه الذين آوَوْا إلى بيته فما يريمون، يستنزفون غلته، ويهلكون حرثه، ثم هم مع ذاك ينافس بعضهم بعضاً فى كبر وزهو وخيلاء.. من أجل زوجه! يا للعار! إنهم استباحوا كل شىء.. كل نعَمه وكل شائه، ولم يعَفُّوا آخر الأمر عن عرضه. إنى استجير بك يا مولاى وأضرع إليك أن تخبرنى عما تعلم من أمر أبى؟ هل قضى تحت أسوار إليوم أم غالته يد المنون فى ركن آخر من أركان الأرض؟ لقد كان خليلك وصفيك وآثر أصدقائك وأعز أودائك عليك، فبكل آلاء ذلك عندك استحلفك أن تصدقنى..

ماذا تعرف من أخباره، وماذا عساك سمعت من أنبائه؟»

وتنفس الملك ثم قال:

«يا أرباب الأولمب! أبلغت حقارة نفوسهم أن يفضحوا أوديسيوس فى عرضه؟! ألا باءوا بما صنعوا! ألاما أشبههم بهذه الوعلة

---

(١) الشعر لابن الرومى ولم نجد أحسن منه فى ترجمة أبيات هومر. والرقم الثوب والرياب الحرير.

(٢) من أسماء أسبرطه.

التى أجاءها المخاض فولدت فى عرين الأسد ، فلما عاد الأسد إلى عرينه لم يبق عليها ولا على أغفارها (١) حنانيك يا آلهة ! زيوس ! مينرفا ! أبوللو (٢) ! أين هو فيبطش بالجبارين كما بطش بغيلو ميليد العتىّ من قبل ؟ تالله لقد اقتربت ساعتهم وأزفت آزفتهم . . . فطب نفساً يا بنى : إنى منبيك بما علمته عن أبيك من (پروتيوس) راعى الأعماق ، وكاهن الأغوار .

ضلت بنا الفُلك بما نسينا من التضحية باسم الآلهة ، فبلغنا شطئان مصر ، ورسونا عند جزيرة فاروس ، بحيث كان فى مقدورنا أن نروى من كوثر هذه البلاد التى تجرى من تحتها الأنهار ، ثم لبثنا ثمة عشرين يوماً لا تجرى بنا ريح ، ولا يرفه عنا نسيم ، حتى نفذ الصبر ، وفرغ الزاد ، وظننا أنه المعاد ، لولا أن رثت لنا إحدى عرائس البحر فبرزت إلينا ، وكانت لنا غوثاً أى غوث . كنت أجلس وحدى فى منعرج بأحد أطراف الجزيرة ، وكان بقية صحبى وأكثر الملاحين يرتادون الماء بشصوصهم (٣) عسى أن يحصلوا على سمك طرى يكون غذاء لنا ، إذ برزت عروس الماء (إيدوتيا) الجميلة ، ابنة كاهن الأعماق پروتيوس ، وتهادت حتى كانت تلقائى ، ثم جلست بجانبى ، وحدثتنى فقالت : « أيها النازح الغريب ! أكبر الظن أنك مذهوب بك ، أو أن بك مساً ، أو أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، أو أنك قد آثرت الشقاء السرمدى حيث لصقت بأرض هذه الجزيرة فما تنوى مضياً ، ولا تلتمس مخرجاً ولو هلك كل أصحابك ! » .

ولم أبال أنى شُدِهت ، فسألتها قائلاً : حسبك يا ربة ! إنى ما لصقت بأرض هذه الجزيرة بأمرى ، ولا أقمت فيها بمرضاتى ، بل كان ذلك قدراً علىَّ مقدوراً ؛ ولكن خبّرى بحقك ، إذ الآلهة تعلم كل شىء . . . مَن مِنْ

(١) جمع غفر ولد الوعل .

(٢) كان أبوللو من خصوم اليونانيين فى حرب طروادة ولذا يدهشنا هذا الدعاء

(٣) الشص حديد عقفاء يصاد بها السمك (السنارة) .

أرباب السماء يحبسنى هنا ؟ . . . وهل مقدور لى أن أرتد إلى وطنى فوق غوارب هذا اليم المضطرب ؟ . . » .

وقالت عروس الماء : « أيها النازح الغريب ! سأنبئك فأصدقك ! إنك الآن مقيم بشطئان مصر التى تقع تحت إشراف أبى ، پروتيوس ، سيد الأعماق ، ورب المياه المصرية ، والمتصل برعايا نبتيون فى أغوار هذا البحر ، فإذا استطعت أن تتغفله فتقبض عليه وتشد وثاقه ، فإنه يقفك على أبعاد هذا اليم ، والطريق السوى الذى ينتهى بك سالماً غانماً إلى بلادك ، بل ربما – إذا طلبت إليه ذلك – وقفك على كل ما حصل فى بيتك من خير أو شر خلال سَفرتك الطويلة ، لأنى أعرف أنك صفى السماء وحبيب الآلهة » .

غير أنى لم أدر كيف تستطيع أيدى بنى الموتى أن تقبض على هذا الإله البحرى الكريم ؛ ولم أخف عليها ذلك ، بل حدثتها به ، وذكرت أنه ربما ولى دُبُرَه إذا شعر منى بهذه المحاولة فلا أستطيع لقاءه بعدها أبداً . بيد أنها طمأنتنى ، وذكرت أن أباها يخرج من الأعماق فى الظهيرة إلى جَوْنٍ قريب حيث يستلقى برهة وسط قطعان كثيفة من عجول البحر ، من ذرارى هاليسودنا الجميلة ، تأتى هى الأخرى فى أثره لتنام ثمة . . « فإذا كانت هذه الساعة فإنى سأقودك بنفسى إلى هناك ، وليكن معك من رجالك ثلاثة هم أشجعهم وأكثرهم قوة ، وسأدلكم على منعرج آمن تنتظرون به حتى يكون قد غلبه الكرى ، ثم تنقضون عليه فتكبلونه وتشدون وثاقه ، وإياكم أن يرهبكم بشىء أبدا ؛ إنه سيكون تارة سيلاً رابياً ، وتارة سيكون ناراً ترمى بشرركالقصر ، كأنه جمالات صُفر ، وأخرى يكون أفعواناً هائلاً ينفث السم . . ولكن خذوه أخذاً شديداً ولا تقتلوه فتهلكوا . . فإنه إن آنس فيكم قوة عاد فانتفض إلى صورته الأولى التى رأيتموه عليها ، ثم ترونه بعد ذلك وقد أسلس قياده ، وهدأ وتطامن . . . فإذا فعل ذلك

سألكم عن حاجتكم . ففكوا وثاقه وأطلقوا سراحه وسلوه ما شئتم ، فإنه مجيبكم عما تسألون » .

* * *

ثم غابت عروس البحر فى طيات الموج ، وتركتنى فى حيرة مما ذكرت . ثم إنى عدت إلى قمرتى فى السفينة ، وعاد كل إلى قمرته ، وبعد أن تعشينا ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، نمنا نوماً لا آمناً ولا قريراً . . . وبزغت أورورا تُمَوِّه المشرق بأصباغ الورد ، فنهضت أصلى للآلهة فوق السِّيف الممتد ، وأبتهل إلى السماء أن توفقنا لما فيه خيرنا ، ثم انثنيت فتخيرت من رجالى ثلاثة هم أصلحهم لهذا الأمر ، وهم موضع ثقتى ومعقد رجائى ، وبرزت من الماء عروس الماء ، وأحضرت لنا أربعة من جلود عجول البحر لنلبسها ، ونستخفى بها ، ولتتم الخدعة على أبيها ، وأعدت لنا مهاداً فى رمل الشاطئ ، ثم دلفنا نحوها ، ونام كل فى مهده ، وألقت فوقنا ما معها من الجلود المنتنة التى أرْوَحَتْ حتى كدنا نختنق برائحتها ، لولا أن نثرت العروس فوقنا طيباً عَبِقاً ملأ خياشيمنا وأنقذنا من صُلول[1] تلك الجلود .

وتلبثنا نرقب اليمَّ حتى برزت عجول البحر فنامت فى الجون ، ثم كانت الظهيرة فبرز پروتيوس وطفق يعد قطعانه ، مبتدئاً ، لغفلته ، بنا ، وكأن أثارةَ من الشك لم تخامره فى حالنا ، فانطرح ونام . وانتهزنا الفرصة ، فانطلقنا نعدو إليه وقبضنا عليه ، وشددنا وثاقه بحيث لا يستطيع إفلاتاً . . . يا عجباً ! لقد انتفض انتفاضة هائلة ، فإذا هو أسد غضنفر ذو لبدة ، ثم انتفض فإذا هو أفعوان أرقم يتحوى ويتحوى ، ثم انتفض فصار نمراً رائعاً ذا أنياب ، ثم صار خنزيراً برياً ، فسيلا رابياً ذا عباب ، فأيكة باسقة ذات غصون وأفنان ! ولما لم يجد بداً من أن يبدو لنا على حقيقته ، انتفض فكان على صورته الأولى ، ثم قال : عَمْرَكَ الله يا ابن أتريوس أى إله جبار حبسك فى مياهنا وسلطك علىّ ، تمسك بى وتشد وثاقى ؟ ماذا

---

(١) أروح اللحم صار نتناً وصلوله رائحته المنتنة .

تريد ؟ » فقلت له : « حسبك يارب هذا البحر ، إنك كنت بى عليما ! لقد طال مقامنا بهذه الجزيرة ، ولست أدرى أى إله عادل حبسنا فيها ، ولأى شيء ؟ ! » . قال پروتيوس : « ويك يا منلوس ! لم لم تُصَلِّ لسيد الأولمب ثم تُضحِّ للآلهة يوم غادرت طروادة ؟ لقد غضب الجميع فكتبوا أن تضل فى تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر ، فتقيم ثمة حتى يثوب إليك رشدك وتصلى للآلهة خاشعاً خابتاً متصدعاً ، ثم تذبح القرابين وتجزر الأضحيات لتعود إلى أوطانك ! وعرانى مما ذكر ما عرانى ، فقلت له : « الحمد لك أيها الإله القُدُّوس . . . سأفعل كل ما تأمرنى به ، ولكن قل لى بحق ربوبيتك ، هل وصل كل رجالنا إلى أوطانهم سالمين كما تركتهم أنا وصاحبى نسطور عند طروادة ، أم أن منهم من غرق أو قتل أو مات حتف أنفه ؟ » .

وكأنما ضاق بى ، ولكنه قال : « ويك يابن أتريوس ما هذه الأسئلة ! أتبتغى أن تقف على كل أسرارى ؟ إذن فاعلم أن أكثر رجالك قد عادوا سالمين إلى أوطانهم ، وأن قليلا منهم من مات ، ومن هؤلاء قائدان فقط قد قضيا ، ولا يزال واحد يذرع رُحب هذا البحر ، ضالا على غير هدى ! . . . لقد هلك أجاكس بما تحدى الآلهة ، وربما ادعى أنه ناج برغم السماء من البحر اللجى الذى كان يناوح سفينته ، فبرز نبتيون غاضباً وشطر السفينة نصفين بضربة قاضية ، من رمحه السمهرى ذى الشُعَب الثلاث ، ثم رطم حطامها بعد ذلك فوق صخرة موحِشة . . . مسكين أجاكس ، لقد غص بالأجاج ، وشَرِق بقطرات فمات ! . . . أما أخوك [1] فقد نجا ! لقد دفعته موجة هائلة فوق شاطئ (ماليا) . . . أرض ذيستيس وإيجستوس . . ومن ثمة ركب البحر إلى وطنه آمناً ، ألا كم كان أخوك رائعاً حين وطيء أرض الوطن فراح يقبل رمالها ويناجى كثبانها ! ألا ليته ما نجا ! لقد لمحه أحد الأوغاد من جواسيس إيجستوس

(١) أجاممنون .

فانطلق يخبر سيده الذى أعد كميناً من عشرين رجلا من أفسق رجاله فاغتالوه كما يذبح العجل؟ الأوشاب الفجرة! لقد باءوا بما صنعوا، وأبيدوا على بكرة أبيهم [١] . . » .

ولم يكد يصعقنى هذا الخبر حتى خذلتنى رجلاى . وانطرحت أنقلب فى الرمال من الغم ، وذَرَفْتُ الدمع من الحرفة على أخى ، ولكنه خاطبنى قائلا : « انهض يا ابن أتريوس ، إنك تبكى ولات حين بكاء . . . هلم فعد إلى وطنك لترى بعينيك قبره ولتشهد ابنه العظيم أورست ينتقم له ، ويستأصل شأفة قاتليه » .

وكأنما سُرِّىَ عنى بما قال بعد . فنهضت وساءلته بعد أن شكرته على ما أنبأنى : « . . . إذن من هذا البطل الثالث الذى ما يفتأ يذرع البحر ضالا فى رحابه ؟ » .

فقال : « ذاك ابن ليرتيس ، وسيد إيثاكا (أوديسيوس) ! لقد شهدته بعينى حبيساً فى جزيرة عروس الماء كاليبسو . . . لقد حل عليها ضيفاً برغمه ، بعد أن تحطمت سفائنه ، وَهوِيَتْه عروس الماء ، وهو لا يزال عندها لا يجد مركباً يحمله إلى وطنه . . . أما أنت أيها الملك منلوس ، فطوبى لك ! إنك ستحيا سعيداً ، ثم تنتقل إلى دار الخلد ونعيم لا يفنى . . . جنات الإليزيوم [٢] . . . لا برد ولا زمهرير ، ولا يوم عبوس قمطرير ، بل تسقى ، ومن معك من الأناسىِّ من ماء معين ، لا لغو فيه ولا تأثيم . . . مقام كريم وجنة نعيم ، أنت وغادتك الحُسَّان هيلين ، يا ذرية زيوس العظيم ! » .

ثم غاص فى اليمِّ . وعدت ورجالى إلى الفلك ، وفى القلب لوعة ؟

---

(١) أى جميعاً

(٢) هى جنة الفردوس فى الميثولوجيا اليونانية .

وبالنفس أسى . وتبَّلغ كلٌّ بلقمات ثم أسلمنا عيوننا للكرى ، وكأنما نام أسطو لنا فى ظلام الشاطىء .

* * *

وانبلجت أورورا فَنَضَّرت بالورد جبين المشرق ، وهبت أنفاس الصباح المنداة فأهرعنا جميعاً ، وجزرنا الأضاحى باسم الآلهة ، وصلينا لها خابتين ، وأقمت لأخى رمساً فوق ثرى مصر الخالدة ، ثم هبت الريح رخاء فنشرنا الشراع وأصلحنا القلوع ، وأقلعنا من فورنا إلى أرض الوطن ، فبلغنا هيلاس سالمين .

وبعد ! فلتقم معنا ههنا أياماً تمرح وتفرح ، ونسعد نحن بك يا ابن أعز الأصدقاء ، ثم لِنُعِدَّ لك الهدايا واللهُّى التى تليق بك ، ولتعد إلى وطنك على عربة فاخرة تجرها ثلاثة من الصافنات الجياد ؛ ولنزودك بكأس ذهبية تصب منها قرابين الخمر للآلهة فتذكرنا أبداً » .

وشكر تلماك واعتذر ، وأبدى من الحنين إلى وطنه ، وما عليه من واجبات ، وما ينبغى من عودة ابن مالك بيلوس ، ما برر له أنه يستأذن فى الأوبة . . . فأعذره ملك أسبرطة ، وأهدى إليه كأس فيديموس الفضية ، ذات الشفة الذهبية ، الكأس الخالدة التى صنعها الإله فلكان بيديه لينفح بها ملك سيدونيا .

وهيأ السُّندل [1] مقصفاً فاخراً به جَزُور وخمر ، وأقبلت أزواجهن يحملن الخبز ، فأكل الملك ومن معه وروَوْا .

* * *

هذا ما كان من أمر تلماك ومنلوس .

أما ما كان من أمر الخطاب آنئذ ، فقد كانوا يلعبون و يمرحون فى بيت

---

(١) جمع نادل أى خادم الطعام .

ملك إيثاكا ، يلاعبو الأسنة ، ويقذفون القرص ، ويتصارعون ويمزحون . كانوا جميعاً يأخذون فى هذا اللهو لتزجية الوقت . إلا أنتينوس ويوريماك ، فقد جلسا بمعزل يتحادثان ، إذ أقبل الفتى نومون ابن فرنيوس وقد تغضن جبينه ، وانتشرت على أساريره سحابة كئيبة فقال :

« أرأيت إذ أعطيت سفينتى للفتى تلماك فإنى أريد أن أبحر إلى إيليس لأرعى أفراسا لى اثنتى عشرة لا تزال ترضع أفلاءها (١) . متى يرجع من بليوس يا أنتينوس ؟ »

وروّع الرجلان لهذا الخبر ، فلم يكن أحد يعلم أن تلماك قد غادر إيثاكا ، بل كانوا يظنونه يجتر آلامه وأحزانه فى أحد الأدغال النامية فى مزارعه . قال أنتينوس :

« أحقاً أنه أبحر يانومون ؟ وهل صحبه أحد من ذويه ؟ وعلى سفينتك ؟ سفينتك أنت ؟ وهل أبحر عليها بدون إذن منك ، أم أنت الذى أذنت له أول ما طلبها منك ؟ » .

وأجابه نومون : « بل أبحر عليها بإذنى . وماذا عساك كنت صانعاً لو سألك أمير فى مثل بأسائه أن يبحر على سفينتك ؟ أكنت ترفض وتتأبى ؟ لقد أبحرت معه ثلة من أشجع البحارين ، كلهم فينان العود ، غريض الشباب ، وقد رأيت معه أمير البحر منطور . ألا كم كان يبدو منطور بهيا وقوراً رائعا ! تالله لقد خلته – بل أكبر ظنى أنه – أحد الآلهة ! وكيف لا يكون إلٰها وقد رأيته بعينى هاتين صباح أمس وهو قد أبحر إلى بيلوس قبيل ذلك ، فأنّى عاد ؟ »

وفرغ نومون ، وعاد أدراجه إلى دار أبيه ، واستولى الذهول على الرجلين ، وكان الخطّاب قد فرغوا مما أخذوا فيه من لهو ولعب ، وجلسوا

(١) العلو ولد الفرس لم يبلغ عاما .

يستريحون من التعب ، فيمم شطرهم أنتينوس ، وهو يتميز من الغيظ ، وينقدح الشرر من مقلتيه : فقال :

« يا أرباب السماء ! أفيقوا أيها الرفاق ! عمل باهر جداً ! لقد أبحر الفتى تلياك فى عصبة من شباب الملاحين ليؤلب عليكم العالمين ، ويرسل علينا حُسبانا ! الويل له ! أعدوا لى مركباً وعشرين فارساً من أبسل صناديدكم لأفجأ بين أواذىّ ساموس ونُتوء إيتاكا التعس الذى ذهب يستروح أخبار أبيه ليسعى إلى حتفه بظلفه » .

وتحمس الملأ وعلا هتافهم ، وهرولوا إلى الرحبة الداخلية فى بيت أوديسيوس يتآمرون ، وكان على مقربة منهم الأمين ميدون ، الذى انطلق بدوره ينقل ما عقدوا خناصرهم عليه من إفك إلى الملكة الباكية المفئودة . . . بنلوب – وما كاد يقص عليها ما اعتزموه من قتل تلياك حتى تضعضعت وتخاذلت ومادت من تحتها الأرض ، وتحبّست أنفاسها هنيهة ، ثم سألت ميدون فيم أبحر ولدها . « ألكى ينقرض اسمه من صفحة الوجود ؟ » وأجابها الرجل : « إنه ذهب يتسمّع الأنباء عن أبيه » . ثم ذهب لِطيّته وجلسَت الملكة المَرْزّأة لدى الوصيد تبكى وتنتحب ، ومن حولها الغيد الرعابيب والعجوز الشمطاء من خادمات القصر ، يعْوِلن ويكَفكِفنْ . . .

قالت الملكة : « ويح لى أيها العذراى ! أبداً ما أحسب واحدة من النساء قد لقيت بعض الذى لقيت مما كتبته علىّ السماء ! لقد فقدت زوجى ، أسد هيلاس ، الكريم أوديسيوس ، الأمير الخُلاحل ، رجل المروءات والفضائل ؛ ثم لم يبق إلا أن يرحل عنى ولدى . . . دون أن أعلم أمر رحيله من إحداكن ، فكنت أحول بينه وبين ما اعتزم ولو أدّيت ثمناً لذلك روحى ! ولكن . . هيا . . لتمض دليون – خادمتى الوفية ذات التجاريب – إلى ليرتيس – فلتحدثه عما تآمر الذئاب . وَىْ ! لم يبق إلا أن يقتلوا ولدى وسليل أوديسيوس ! » .

ونهضت يوريكليا مرضع تلياك ، تنثر دموعها وتقول :

« وا أسفاه عليّ أيتها الملكة ! سأعترف بما كان ، ولك أن تقتْليني . . . أو تبقى عليّ ! لقد زودت الأمير بكل ما أمر من زاد وخمر ، وأخذ على موثقاً ألا أبوح بسره حتى تمضي إثنا عشر يوماً بتمامها . . . حتى أنت يامولاتى ! لقد أمرنى ألا أعلمك بشئ ، فاهدئى يامولاتى ولا تضاعفى أحزان القصر بحزن جديد ، وامضى إلى مخدعك فاستريحى ثمة ، ولنصلّ جميعاً لربة العدالة مينرڤا - پاللاس الطيبة - أن تصون مولاى الأمير وترعاه ، وتكلأه من كل خطر ، وليعد إلى عرش آبائه ليحكم ويعدل ويدبّر شؤون البلاد .

ورقأ الدمع فى عيون الحاشية ، ونهضت بنلوب فصعدت إلى الطابق العلوى ، وأمرت بسلة من الكعك فنفحت بها العذارى قرباناً لمينرڤا وتقدمه ، ثم أرسلت هذه الصلاة .

« إسمعى ياابنة سيد الأولمب ! يامينرڤا العادلة ! باسم ما ذبح لك أوديسيوس فى هذا القصر وما ضحى نضرع إليك ونتوسل بك ونصلى لك ، أن تصونى ابنه الأمير ، وأن ترسلى عبوسة من شُواظ غضبك على أعدائه . . . أولئك الأضياف الظالمين . . . آمين » .

وانهمرت الدموع من عينى الملكة فاستجابت مينرڤا لصلاتها . ثم علا ضجيج القوم وارتفع صخبهم ، وكان فيهم شاب نزق التاثت فى أذنيه صلاة بنلوب فحسبها أشرفت تناغى وتغازل ، فراح يعرض بها فى كلمات قوارص ، قطعها عليه أنتينوس بتحذيره القوم ، ونصيحته لهم أن يستعينوا على حزم أمرهم بالكتمان .

وتخير أنتينوس عشرين من خيرة رجاله ، ويمم بهم شطر البحر ، ثم ركبوا فى سفينة أعدت لما اعتزموه من تلصص وقرْصنةٍ وفتكٍ إعداداً كافياً ، فنقلت إليها الأسلحة ، وحُملت إليها أحمال الزاد والذخيرة . . . وأقلعت ، لا باسم الآلهة مجراها . . ولا سلكت سبيل الرشاد .

* * *

واضطجعت بنلوب فى فراش حَشْوه فكرٌوهم ، وجاشت فى قلبها الوساوس ، وطفقت الأوهام تفتك برأسها القلق الحيران بسبب ولدها ، وما دبر له الكلاب وما كادوا . مسكين أيها الأسد ! لولا قوتك وجبروتك ما أكثر صائدوك حولك الأحابيل .

وأخذتها سِنة من النوم ، فأقبلت مينرڤا الكريمة فى رؤيا عجيبة تواسيها وتُذهب عنها طائف الحَزَن ، فتزيت بزى الأميرة المفتان ، إفتيما ، ابنة البطل الكبير إيكاريوس ، ثم وقفت عند رأسها وشرعت ترسل هذه الأحلام .

أهكذا تنامين ملء عينيك الجميلتين يابنلوب العزيزة ؟ ليفْرخ روعك ، وليْصْفُ بالك ، فالسماء ترعى ولدك ، وهو عائد إليك عما قريب ! إنه لم يقترف شيئاً مما يغضب الآلهة ، ولذا فهى تكلؤه وترعاه وتحفظه ، فقَرِّى عيناً واسلمى وانعمى ! » .

وتقول بنلوب إذ هى تحلم .

« من ؟ إفتيما ؟ عجباً ! فيم قدمت ياأختاه وقد ندر ما كنت تُلِمين بهذا القصر ، ألتواسينى وتسلينى ؟ لقد تكاثرت الأحزان على قلبى ، وتكسرت النصال على النصال . . لقد فقدت زوجى . . . أسد هيلاس وفخر آرجوس ، وعزى الأبدى ! ثم ها أناذى أنتفض فَرَقاً على ولدى . . . ولدى الطرى الفينان ، الذى لا قدرة له ولا احتمال . . فى هذا البحر اللجى . . . لقد أقلعت به سفينة كأنها تسبح فى بحر من دمى وأحزانى ! وها قد تعقبه الأشرار فى سفينة أخرى يريدون غَيْلتَه قبل أن يرتد إلى وطنه ! » .

وتجيبها مينرڤا : « لا عليك ياملكة ، ولا عليه هو الآخر ! إن معه راعياً يحفظه ويقيه . . . راعياً يتمنى الجميع أن يكونوا فى رعايته أبداً . . . مينرڤا ! إنها أيضاً تبشرك وترفه عنك ، وأنا هنا رسولها إليك ، أقبلت بأمرها أواسيك ! »

وهلعت بنلوب ثم قالت : « وَىْ ! أما إنك إذن لَرَبة ، وقد كلمتك الأرباب . . . ألا قُصِّى على إذن ما كان من أمر رجُلى ، ألا يزال حياً يرزق ؟ أم تخطفته يد المنون ؟ »

وتضاحك الشيخ العابس فقال : « لا ! ليس الآن ؟ لن أذكر لك إذا كان رجلك لا يزال حياً أو أنه قد قضى . مالنا ولذلك ؟ »

ثم رقت فى ظلام الغرفة ، وصعدت فى سماء الأحلام .

ونهضت الأم وقد سُرِّىَ عنها بهذا الحلم ، وانجاب كابوس الهم الذى كان يجثم على قلبها .

* * *

وأقلع الخطاب بفُلكهم فى اليم المضطرب ، كل تحدثه نفسه بمقتل تلماخوس ، حتى كانوا عند برزخ أستريس ، بين ساموس وإيثاكا . . . فارسوا ثمة يتربصون .

أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليبسو

هبت أورورا من فراش زوجها الدافئ الحبيب (تيتون) فنشرت فى المشرفين غُلالة سنيةً من فيض ضوئها، بينما كان مجلس الآلهة منعقداً فى ذروة أولمب ، وقد استوى زيوس على عرشه ، ومنيرڤا . . . ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، قائمة بين يديه ، تحصى آلام أوديسيوس ، وتبث أشجانه ، وتصور للآلهة صنوف العذاب التى يتجرع غصصها وحده فى هذه الجزيرة النائية السحقية ، فتقول :

« أبتاه ! ياسيد أرباب أولمب ! جوف ! إصغ إلى ! وأنتم ياآلهة الخلود ! أعيرونى انتباهة واحدة منكم ، فإنها حسبى ! إلى أين تصير الأمور إذن ؟ هاكم قد أصبح أمر الناس فوضى . . . والطغاة يعيشون فى الأرض مفسدين ، وكأنكم أغمضتم أعينكم عن خيارهم ، ولم يضركم ألا تكفُّوا أشرارهم ، فنسيتم الرجل الصالح أوديسيوس الذى طالما منحكم محبته ، والذى بذل لشعبه مهجته . . . يثوى اليوم فى تلك الجزيرة الموحشة يجتر همومه ، ويبعثر فى صفحة السراب آماله . . . كلاًّ على كِاليبسو عروس الماء . . . لا يملك سفينة فيقلع إلى الوطن ، ولا يجد قلباً إلى جانبه فيبثه حزنه ويشتكى إليه لأواءه ، وكأنما لم يكن بحسبه بعض ذلك ، بل تسلط عليه الأقدار القاسية عصبة من الأعداء الألداء يتربصون بابنه الشر ، وينتوون غَيْلته ، إذ هو عائد من أقصى الأرض . من أسبرطة وبيلوس بعد رحلة منهكة باكية ، قام بها يتنسم خبراً عن أبيه ، يشنى فى قلبه غُلة ، ويبرئ فى نفسه كلوماً ، ويجيبها رب السحاب الثقال .

« أية كلمة هائلة انفرجت عنها شفتاك ياابنتى ؟ ألست تتشوقين إلى عودة أوديسيوس سالماً آمناً فيبطش بكل أعدائه ؟ إطمئنى إذن ، ولتحرسى

ولده تليماخوس حتى يصل سالماً آمنا هو الآخر إلى أرض الوطن ، وليَبُوء أعداؤه بالفشل » .

ثم توجه بالخطاب إلى ولده هرمز ، رسول الآلهة ، فقال :

« هرمز ! هلم يابنى إلى عروس الماء الشقراء كاليبسو برسالاتى . مرها أن ترسل أوديسيوس على رمث[1] وحده ، لا أنيس له من إنس ولا آلهة ، فليلق الأهوال الطوال حتى يصل إلى شيريه أرض الفيشيين ، ملوك البحار وأصهار الآلهة ، فليزودوه بسفينة وزاد وذخيرة من أحمال من ذهب وديباج ، وبكل ما تشتهى نفسه مما يفوق نصيبه الذى حصل عليه من أسلاب إليوم ، لو عاد به غير منقوص إلى أرض الوطن ، ثم ليبحر سالماً إلى إيثاكا . . بذا قضت المقادير أن يؤوب . . . وأن يستعيد سلطانه وصولجانه ، وملكه وإيوانه ؛ ويلقى بعد طول النأى خلاّنه » .

وأصلح رسول الآلهة الأمين ، هرمز ، نعليه الذهبيتين ، فخفـّتا به كالريح فوق السحاب ، وفى يمناه عصاه السحرية العجيبة التى إن شاء داعب بها الجفون فأغفت ، وإن شاء ردها إلى الصحو واليقظة . وما فتئ يرفّ بين السماء والماء ، ويدوِّم فى ذاك الفضاء كالغُرنوق[2] الذى يتواثب على أعراف الموج يصيد ما يقتات به ، حتى كان فوق تلك الجزيرة المنعزلة عن جميع العالم . ثم ما برح يُرَنِّق هنا ويرنق هناك حتى اهتدى إلى ذلك الكهف السحيق الذى تأوى إليه عروس الماء الشقراء ذات الشعر الكهرمانى ، وقد جلست ثمة تغرد وتغنى وتعمل دائبة فى منسج أمامها ، ويداها تتلقفان الوشيعة[3] الذهبية كما يخطف البرق ، والنار تتأجج فى الموقد بقربها وتتوهج ، وجمر الأرز والصندل يعبق ويتأرج ، ويملأ نشره أركان الجزيرة وفجاجها . . . وقد بسقت أشجار الحور والسنديان عند

---

(١) خشب يضم الى بعضه ويركب فى البحر Raft

(٢) بوزن طنبور وبوزن فردوس طائر مائى (الغطاس)

(٣) المكوك .

مدخل الكهف فغشته بظلال رائعة ، وظلمة رهيبة ، وقد صنعت جوارح الطير أوكاراً لها فى الدوح الذاهب فى السماء ، ووَكَنَت[1] الحدأة بيضها ، وقر الغداف[2] جنب صغاره ، وطفقت البومة ترسل فى الآفاق صفيرها ، وتناثرت فوق الشاطئ أفاحيص[3] الطير من كل نوع ؛ وامتدت الكروم عن يمين الكهف وعن شماله مثقلة بالعناقيد ذوات السُّكَّر ؛ وتدفقت جداول أربعة عن عيون كوثرية تسقى السندس الجميل المنضَّر بأفواف الورد والبنفسج . . . منظر عجب ، وأى منظر عجب يبعث البهجة والانشراح حتى فى قلوب سكان السماء !

ووقف هرمز يمتع ناظريه بسحر هذه الجنة ، ثم دلف إلى الكهف ، ولم يكن يسيراً على عروس الماء أن تعرف من هو ، وأى إله خالد طرق بابها ، ولو أنها هى أيضاً فرد من أسرة الخالدين . . . ذلك لأن سكان السماء يكونون مثلنا أحياناً ، لا يعرف أحدهم جميع الآخرين ، لبعد الشقة ، ونأى الدار . وانقطاع المزار . . . . وأرسل عينيه فى كل شق من شقوق الكهف ، بيد أنه لم يقف لأوديسيوس على أثر . . . فانثنى ، ويمم نحو الشاطئ ، واستوى على صخر عظيم ناتئ ، وشرع ينثر من عينيه الدموع الغوالى ، يطفئ بها فى القلب سعيراً سرمدياً يلازمه أبد الدهر . . . وكأنما عرفت كالبسو من هذه الآية أنه هرمز ، فراحت تسائله ، إذ هى مستوية على عرشها الممرد العظيم :

« هرمز ! ياصاحب العصا السحرية ، يامن طالما أحببته وبجلته ، حدثنى فيم أقبلت ، وقد ندر ما قدمت إلى هنا . هلم فقل ، سل حاجتك فسأقضيها إن تكن فى وسعى . . . ولكن هلم أولا لنؤدّىَ لك مراسم القِرى وواجبات الضيافة . . . هلم ! »

---

(١) رقدت عليه .

(٢) الغداف بضم الغين غراب القيظ الأسود

(٣) جحور

ومدت عروس الماء سماطاً حافلا بأشهى ألوان الطعام وصنوف الشراب ، وأقبل هرمز فاغتذى وروى من هذه المائدة القدسية ، ثم توجه بالكلام فقال : « تسألين أيتها الربة فيم أقدمت ! ألا فاعلمى أننى ما أقدمت عن أمرى ، لكنه أبى ، سيد الأولمب وكبير الآلهة ، هو الذى أرسلنى . إذ أية حاجة لإله فى هذه القطعة المنعزلة من الأرض يحيط بها الملح من كل مكان ، حيث لا عباد ولا خلق يؤتون الزكاة ، ويقيمون الصلاة ، ولا أثر لعبادة زيوس العظيم ! إنه جل جلاله ، يقول إنك تحتجزين هنا أتعس مخلوقاته ، البطل الكبير الذى نزح عن بلاده إلى إليوم فقضى ثمة تسع سنين ثم أبحر عنها بعد سقوطها فى العاشرة مع محاربى هيلاس الذين تفرقوا فى البحر شَذَرَ مَذَرَ ، فمنهم من غرق ومنهم من قتل ، ومنهم من وصل إلى بلاده . . . إلا إياه . . . فقد هلك كل رجاله ، وقذفه البحر فوق جزيرتك النائية . . . إن جوف يأمرك أن ترديه ، ففى كتاب المقادير أنه لا يهلك هنا . . . بل يعود إلى بلاده ويلقى بها آله »

وزلزلت كالبسو زلزالا وقامت تجيبه : « ها . . . الظلم والحسد . . دائماً . . . هذا دأبكم ياآلهة . . . كم تأكل قلوبَكم الغيرة كلما ضمت ربة إلى ذراعيها أحد بنى الموتى ! وهل نسيتم يوم ثرتم عندما عَلقت ديانا ذات الأصابع الوردية هذا الفتى الجميل أوريون ، وكيف دبت الغيرة فى قلب أبوللو فكر هذا المكر السئ ، ودبر قتل الفتى بيدى حبيبته ديانا ! ؟ هل نسيتم أيضاً كيف أرسل أبوكم جوف إجدى صواعقه على أياسيون المسكين لأن سيرس ربة الربيع قد هويته فأوته إليها حين شغفها حبا ؟ كذلك أنتم معى اليوم ، وكذلك أنتم غيورون دائماً ، فما أقساكم إذ تَنِفسون عَلَّى رَجُلى وحبيبى ؟ ! لقد أنقذته بنفسى من هذا اليم الذى التقم سفينته بمن فيها حين شطرها أبوكم بسهمه فى عبثة من عبثاته ! حبيبى الذى أهواه من أعماق وأفتديه بروحى ، والذى أمهد له حياة الخلود . . . ولكن . . . واأسفاه ! كيف أطرده من عندى ؟ ويحى ! إن تكن هذه مشيئة زيوس فلأحدثنّ

أوديسيوس ليرى بنفسه ، إذ ليس عندى مركب يأمن فيه غائلة هذا البحر المضطرب ، وإنى لناصحة له ، . . »

وكلمها هرمز فأنذرها غضبة سيد الاولمب وحضها أن تعمل على إبحار البطل .

ورفّ هرمز الرسول فى لازورد السماء ، وانطلقت عروس الماء تبحث فى الجزيرة عن أوديسيوس ، حتى لقيته فوق صخرة ساهماً واجماً ، تَفْرى قَلْبَه الهواجس ، ويعبث به محال الأمانى ، وقد انهمرت فوق خديه عَبرات حِرار ، واللحظات تذبل فتسقط من حياته فى ظلام اليأس كأوراق الخريف ، وقد ملّ هذا المقام الطويل البائس فى جوار عروس الماء التى كانت تخلع عليه حبها البارد ، وتقسره على أن يقضى لياليه عندها فى ذلك الكهف السحيق . . . وكلما فكر فى وطنه ونظر إلى الموج المتواثب فى أفق اليم وعرف أن لاقدرة له عليه بكى وأنّ . وتوجّع وتصدّع ، وأرسل فى لا نهاية الماء والسماء آهات وآهات . . . » .

واقتربت منه عروس الماء فى رفق وَحَدَب ، وقالت له .

« أيها التعس لا تنتحب هكذا ، ولا تصهر حياتك الغالية فى تنور من الآلام ، هلم . . . هيا إلى عمل مجيد . . . أمامك الدوح العظيم والأيك الذاهب فاقطع منه ما شئت واصنع لنفسك رَمَثاً يحملك فوق هذا العباب المتلاطم . وسأزَوّدك بكل ما يكفيك من طعام وشراب ؛ وسأمدك بأثواب جديدة تقيك الحر والبرد ، وسأسخر لك الريح تُهَدْهِدُك إلى بلدك البعيد . . . هذا قضاء من آلهة السماء التى تُقَدِّر فتعدل ، وتقضى فلا يرد لها قضاء . . . » .

وتفزّع أوديسيوس لهذه المفاجأة ثم قال : « أوهِ ياعروس . بل فى الأمر سر تحاولين إخفاءه عنى . . . أى رَمَث يحملنى فى ذلك البحر اللجى ، وأى ريح تُسَخِّرين من أجلى ، وإن السفينة العظيمة لتمخر عبابه وهى لا تدرى

أتسلم أم يكون أهلها من المغرقين ؟ لا . . . لن أفعل حتى تعطيني موثقك ، وحتى تقسمى القسم العظيم ، أنك لا تبطنين لى شراً ولا أذى ! » .

وتبسمت الربة الهيفاء ، وراحت تربت على خديه وهى تقول .

« ويحك ! كيف تسئ بى الظن ياأوديسيوس ؟ أية حجة تملأ بها يديك على ما قلت ؟ ولكن أصغ إلى . . . أقسم لك بقسم الآلهة فى الأرض والسماء والدار الآخرة . . . بالقسم العظيم الذى يقشعر لذكره كل شئ . . . إنى لم أضمر لك فيما عرضت عليك شراً ولا أذى . . . إن الذى تبكى من أجله ، أبكى أنا أضعاف ما تبكى من مثله ، فلقد كنت ضرورة من ضرورات حياتى هنا ، ولقد عَلقَ بك قلبى ، وهامت بحبك نفسى ، وليس قلبى من صخر فيحتمل البعد عنك ، بَلهْ الإضرار بك » .

وانطلقا سويا إلى الكهف ، وجلس أوديسيوس فوق المتكأ الذى كان يجلس عليه هرمز منذ هنيهة ، ثم أقبل جوارى الماء يحملن شيئاً كثيراً من اللحم والشراب فأكلا ورَويا ؛ ثم شرعت كاليبسو تحدثه وتقول :

أهكذا ياابن ليرتيس العليم ، أيها الحكيم الصناع ، لا تفتأ تحن إلى وطنك ، وتعتزم الرحيل إليه ؟ ولكن . . . لا بأس ياأوديسيوس . . فوداعاً ! ولكن هل فكرت أيها الرجل فى الأهوال الجسام التى لابد أن تَصْلى بها قبل أن تصل إلى بلادك ؟ أليس خيراً لك أن تظل إلى جانبى ، وتقاسمنى كهفى ، فتصبح من الخالدين . . وتنسى هذا الجمال الفانى الذى لا ينفك يُصبْيك ويَسبيك ، والذى أحسب جمالى وفتنتى لايقلان عنه سحراً إن لم يزيدا عليه فتوناً ؟ ! »

فيجيبها أوديسيوس الحكيم . أيتها الربة المخوفة ! هوِّنى من حفيظتك ! فأنا أعلم أن بنلوبى العزيزة لا تزن من جمالك وفتونك مثقالا لأنها هالكة ، ولأنك من الخالدين . بيدأن الذى يُصببنى ويَشُوقنى هو وطنى . . وطنى الحبيب الذى أحن إليه وأهيم به ، وفى سبيل العودة إليه لن يخيفنى هذا اللُّج

المتلاطم . فلقد بلوت الأعاصير فى البر والبحر فى خَبَّار المعمعة ؛ وفى الفلك تحت كلكل الزوبعة . . . إلىّ ، إلىّ ياخطوب ، وأقْدِمى بكل حولك يارزايا . . . »

* * *

وتوارت الشمس بالحجاب ، وأرخى الليل سدوله فوق الجزيرة . ونامت الربة فى سريرها الوثير ، وهى تفكر طول الليل فى هذا الفراق المفاجئ . . حتى إذا نضَّرت أورورا بالورد جبين المشرق ، هب الإلفان وتدثرا ؛ هذا بثوبه الخشن ، وتلك بشفوفها الرقيقة الثلجية الناصعة ، التى كأنما نسجت من نسمات الصباح العطرى . وراحت تخطر فينانة ريانة ، وقد اتشحت حول وسطها النحيلُ بقُرْطَق[1] جميل ، وألقت على رأسها بخمِارٍ صفيق رقيق ؛ وقدمت إليه فأساً ذات حدين أحدهما كالساطور ، ركبتْ فيها يد من خشب الزيتون المتين ، ثم إزميلا حاداً مرهفاً . . وسارت بين يديه حتى كانا عند غابة عظيمة مُخْرِف[2] لا حبة شاحبة ، بسقت فيها أشجار الحور والسنديان والشربين[3] ، وتركته ثمة ، وعادت أدراجها إلى كهفها .

ولم يهدأ للبطل المسكين بال ، بل شرع من فوره يقطع كل أيكة عظيمة حتى اجتث عشرين من أكبر دوح الغابة . . ثم أقبلت كاليبسو وقد حملت إليه آلات ساعدته على تشذيب الشجر ، واستطاع بعد لأى أن يضم بعض الجذوع إلى بعض ثم كلبها بكلابات كبار ، وأفرغ فى وسط الرمث له ولما يحمل مكاناً أميناً ، كأحسن ما يصنع السفانون . . ودعم ذلك جميعاً بألواح ودُسر ، وصنع قِلْعاً وجعل فى القلع شراعاً ثم سوى السُّكان مكانه ، وجعل فى الباطن صباره[4] كبيرة تقى الرمث الانقلاب ، ولم

(١) القرطق بضم القاف وفتح الطاء ثوب يشمتل به .

(٢) مخرف أى أدركها الخريف ولا حبة لاورق فيها .

(٣) ١١٣ (٤) أو صبرة بفتح الصاد قطعة حجر كبيرة يتزن بها المركب فى البحر وتسمى فى مصر (صابورة) .

ينس أن يجدل جوانبه بفروع وأغصان تزيد فى قوته وتضاعف من مُنَّتِه [1]. وأتم صنع مركبه فى أربعة أيام. وأنزله إلى البحر فى الخامس؛ ثم أدخلته عروس الماء حمامها فغسلته وضمخته بالطيوب والعطور، وخلعت عليه من ديباج ثمين، وزودته بزقين من خمر وماء، وأمدته بشيء كثير من طعام وأثواب.

وودَّع عروس الماء المحزونة، وجلس عند السكان، ثم دفع الرمث فى البحر، وابتعد رويداً رويداً.

وكان قلبه يفيض بالبشر، وصدره يمتلئ بالانشراح... وظل الفلك الصغير يجرى به سبعة عشر يوما، وعيناه فى كل ليل ما تريمان عن الثريا فى علياء السماء، وما تفتران تنظران إلى نجوم الدب الأكبر التى تقف للجبار [2] بالمرصاد، كما علمته عروس الماء قبل أن يبرح، أن يجعل هذا النجم إلى شماله أبداً.

ثم بدت جبال فِيَشْيا الشُّم كأنها دروع مسرودة فوق صدر الأرض الشاحبة... ولكن! واأسفا!.. لقد كان الجبار نبتيون ثانيا عنانه من سوليما [3] فلمح أوديسيوس فوق رمثه يتواثب على هام الموج، ويقترب من الشاطئ، فينجو إلى الأبد من بطشه... وثارت فى نفس نبتيون – إله البحار، وأعدى أعداء أوديسيوس – ثورة من الغضب، وظل يعلك هذه الكلمات فى نفسه من فوق بطاح إثيوبيا:

« وى! أو قد تبدلت مقادير الآلهة إذن، وتحركت فيهم عواطف الحنان من أجل هذا الرجل أوديسيوس، فقضوا فيه ما قضوا لأنهم يسكنون السماء. ولم يبالوا بى لأنى أسكن الأرض فى إثيوبيا؟ إنه يرى شاطئ فيشيا قِيدَ وثبات منه، وهو إذا قفز إليه أصبح بنجوة من هموم

(١) قوته

(٢) الجوزاء Orion

(٣) احدى مقاطعات آسيا الصغرى وكانت تدعى بيسيديا.

تترصده فى كل موجة من موجات هذا اليم . . .ولكن . . .لا . . .لأُلهبَنّه بألف سوط عذاب قبل أن يصل إلى البر . . .»

ثم إنه لاعب السحاب بصولجانه ذى الشعب الثلاث.فانعقدت منه ظلمات فى أرجاء السماء ، وطفق يهز أعماق البحر فهاج وماج ، وتلاطم بالأمواج ، وصاح صيحة برياح المشرقين ورياح المغربين فاجتمعت إليه من كل مكان سحيق . . .ثم هبت ريح الشمال الثلجية اللافحة فانطفأ لألاء النهار ، وأظلم الليل فجأة ، وطغى العباب وشابت نواصيه بالزبد ، وتناوح الموج الغضوب حول الرمث ، وهلع فؤاد أوديسيوس وأصبح قلبه فارغاً ، وطاشت أحلامه وذابت أمانيه العِذاب ، وراح يحدث نفسه هكذا .« يالتعاستى ! أى قدر قاسٍ يترصدنى ؟ لقد أنذرتنى ربة الماء مغبة هذه الرحلة الهوجاء فى البحر فما صدقتها ، وتنبأت عن الشدائد التى تعتور طريقى إلى الوطن ، فها هى ذى تتحقق ! أية أعاصير هُوج وأى موج ينتفض من الأعماق قد سلطه جوف على هذا البحر ! بعد لحظة أغوص فى ظلمة هذه القبور التى ينشق عنها الموج ! ألا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً تحت أسوار إليوم ، يوم أوشكت أن أقضى ثلاثاً فى سبيل إنقاذ الأتريدس(١) أو يوم أوشكت أن أصرع برماح الطرواديين إذ أدفع جموعهم عن جثة أخيل ! !أجل ! لو أننى مت ثمة لأقيمت من أجلى الطقوس الجنائزية ، وأدِّيتْ لى الشعائر الدينية ، وذرف فوق قبرى كل يونانى أغلى دموعه وأعز عبراته . وتفاديت هذه الموتة المجهولة التى تكاد تلتقمنى ! » .

ثم كانت الطامة . . .فإن موجة كالطود فجأته . . .فبعثرت الرمث . . . وأفلت مقبض السكان من يدى أوديسيوس ، فانتثر فى اللجة ، ثم غاص فى أعماقها ، وعبثا حاول أن يطفوَ . . .لأن الرياح تكالبت عليه من كل مكان ، وكلما نجا من موجة فغرت له فاها موجة أخرى . . .ثم حدثت المعجزة . .فقد وسعه بعد لأى وعناء شديد أن يدفع

---

(١) هو بيت أجاممنون .

بنفسه دفعة اليأس إلى السطح ، وأن يملأ رئتيه المنهوكتين بتنفسة من الهواء كانت تمتزج بالماء الأجاج المتصبب من جبينه ، حتى لأوشك أن يغصّ بها . . لولا أن لطفت به الصدفة ، فرأى الرمث قريبا منه ، وقد انتزعت العاصفة قِلْعَه وشراعه ، فسبح إليه وأمسك به ، ثم استوى عليه ، وتركه للموج ، تلعب به واحدة ، وتعبث به أخرى ، وتجتمع عليه الرياح عن شماله ويمينه ، ومن خلفه وقدامه ، حتى قيَّضَ له القدر عروس الماء(إينو) ابنة قدموس ، التى كانت تعيش فى البر ، وتُعرف فيه بهذا الاسم ، والتى اتخذت اسم(ليوكوتيا) بعد أن نزلت إلى البحر وأحبها أحد الآلهة فوهبها الخلود . .لقد تفجرت فى قلبها شآبيب الرحمة من أجل أوديسيوس لما رأته فى هذا الروع الذى ليس كمثله روع ، فسحرت نفسها ، ووثبت على الرمث فى صورة غطاس الماء ، ثم قالت له : « ويحك أيها البائس ! فيم أثرت غضبة نبتيون عليك حتى ليتبعك سَرَباً فى شعاب البحر » ويصب عليك كل تلك الرزايا . . . ؟ على أننى أنصح لك أن تدفع هذا الرمث ، تتدافعه الرياح حيث تشاء ، ثم تخلع ملابسك ، وتقفز فى الماء ، وتسبح بقوة وجلد حتى تصل إلى شطئان فِيَشْيا ، حيث تسلم بنفسك ، وتكون بمأمن من بطش هذا الجبار . خذ ، هاك زناراً [1] من حرير من حياكة السماء ، لُفَّه تحت صدرك ، فإنه يجعلك بمأمن حتى من مجرد التفكير فى الموت ، فإذا وصلت سالما إلى الشاطئ فارمه بكل ما أوتيت من قوة بعيداً فى البحر ، وأدر وجهك بمجرد أن تفعل ، بشرط ألا تنظر إليه وهو يسقط فى الماء » .

وسلمت إليه الزّنار الموعود . ثم غاصت فى الماء . وبقى أوديسيوس مكانه فى حيرة شديدة وحزن عميق ، ثم أفاق من غشيته وجعل يهرف هكذا : « أوه ! ترى ؟ أذاك شرك آخر تدبره الآلهة لى ! ولكن لا . . .لن أبرح مقيما فوق الرمث ، فالبر بعيد ، ولأظل مكانى مادامت الجذوع مُكلَّبة

(١) الزنار مايلبسه القسس حول أوساطهم .

هكذا ، فإذا حطمتها يدا الحِدثان فلاذ فعلن كما أشار الإله الذى كان يكلمنى منذ لحظة . . .» وما كاد يفرغ حتى أرسل عليه نبتيون موجة جارفة حطمت رمثه ، وتركته عالقاً بأحد الألواح . . .وأسرع أوديسيوس فخلع الرداء الجميل الديباجى الذى خلعته عليه كاليبسو ، ولف الزنار الموعود حول صدره ، وقذف بنفسه فى الماء . . .وراح يسبح !

وكان نبتيون الجبار يرى بعينيه ، ويشفى حَرَده [1] ، ويقول فى نفسه : « ذُقْ يا أوديسيوس وبال أمرك فى هذا الطوفان ، قبل أن تصل حبالك بحبال الشعب الذى هو حبيب الآلهة ، وسترى ثمة هل تنتهى آلامك ! »

وحثّ مُطيه حتى وصل (إيجه) حيث يشرف قصره المنيف

* * *

وكانت مينرڤا تشهد الكفاح الهائل بين أوديسيوس وبين اليم فأطلعت من عليائها ، وداعبت الرياح حتى استنامت وونت ، ثم أطلقت بوريس ، ريح الصبا الشمالى الكريم فجرى [2] رخاء ، يدفع أمامه البطل العظيم الذى ظل يناضل الموت ويصرعه يومين أطول من دهر ، وليلتين أحلك من غيابة جب ، حتى إذا غابت أورورا فى اليوم الثالث ، استطاع أن يرى الشاطئ على مرمى البصر ، وهو فوق موجة عالية .

ما أحلى الأمل الذى يحيا بعد يأس ! لقد كان أوديسيوس ينظر إلى التلال والجبال القريبة ، والغابة النائمة فى أجيادها [3] ، كما ينظر الأطفال الأبرار إلى أب لهم أنهكته العلة . . . ثم تماثل للشفاء بعد تسليم وقنوط !

وتحسس الأرض بقدميه . . .ولكن . . .واأسفا ! الأعماق الهائلة ! والصخور والأواذى ! والموج الذى يرتطم بأقدام الجبال فيُرغى ويزُبد . . .

---

(١) غصبة وغيظه . (٢) الضمير عائد على بوريس وهو مذكر

(٣) جمع جيد وهو جانب الجبل .

لم يكن بهذه الجهة مرفأ ، ولم تكن تجوس خلالها سفن . . . ولقد ظل أوديسيوس يكافح ويكافح . . . حتى غُمّ على قلبه ، وكاد يتغشاه طائف من الخور ، بعد أمل وطيد !

وجاشت الوساوس فى قلبه ، وطفق يحدث نفسه حديث الهُلك فى هذه اللجة الرجراج . . .

وكان أخوف ما يخشاه أن يدفع الموج على نتوء الصخر فيحطمه ، أو أن تلمحه أمفتريت ، زوج نبتيون ، عدوه اللدود ، إله البحر ، فتسلط عليه من وحش الماء ما يلقفه ، أو يقذف به إلى أعمق الأعماق . . . كرة أخرى .

وبينا هو فى بحرين من ماء ومن هواجس ، إذا موجة هائلة يضطرب بها اليم فتدفعه فى قوة وعنف إلى الشاطئ ذى النتوء والنؤى فتكاد تدق عنقه ، وتذرو عظامه ، لولا أن قبض بذراعيه الجبارتين على حافة صخرة بارزة . . . فظل معلقاً ثمة حتى أقبل جبل آخر من موج البحر فاحتمله إلى الأعماق كأنه أحد سراطين الماء . . . وجاهد المسكين ثانية وثالثة حتى تدافع الموج من خلفه فقذفه فى مسيل من مسايل الماء المنتشرة على الشاطئ ، وعندها ظن أوديسيوس أنه بنجوة لولا تيار النهر الذى كاد يسلمه بدوره للمحيط ، مما جعله يضرع لرب النهر ويبتهل . . .ويدعو من أعماق قلبه ويصلى ، حتى استجاب الرب الرحيم لصلاته ، فكسر حدة التيار ، وفَلّ من غرب الماء ، واستطاع البائس المنهوك أن يصل إحدى العدُوتين (١) واهياً متهالكا محطما . . . فانطرح على الثرى يقبله . . . ويلهث ويقول :

« ويح نفسى ماذا تبتغين يا آلام ! لقد أقبل الليل وأنا عيىٌّ مصدع ، ولا قِبَلَ لهذه البقية من حشاشتى بطلّ العشاة وصقيع الفجر . . . فلو أننى استطعت أن أتسلق هذا الحدور فألوذ بأجمة من هذه الغابة ! ولكن ! وى ! أىّ وحش ضار يغتذى بلحمى ثمة ؟ »

---

(١) الشاطئين

بَيدَ أنه توقل[١] فى الجبل حتى أوشك أن يضرب فى الغابة ؛ ثم كان بين زيتونتين إحداهما مثمرة ، والأخرى عقيم ، كل منهما لفّاء شجراء حتى لا تنفذ الريح بينهما ، ولا تنسرق أشعة الشمس خلالها ، ولا الماء بواصل إلى من استذرى بهما .

هنا . . . وجد أوديسيوس مأمنه . . . فراح يمهد الأرض ، ويلملم ما استطاع من قش ويحتطب ، حتى صنع لنفسه منامة تكفى اثنين غيره ، من الضاربين المشردين فى الأرض ، ودعم حفافيها بفروع الشجر . . . ثم أسلم عينيه لنوم هادئ عميق ، سكبته مينرڤا فى كلتا مقلتيه .

فلله ما كان أروعه غارًّا فى هذا السفط من القش ، كشعلة من زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يعتز بها ريفى شاب فى قرار مكين[٢]

* * *

نام أديسيوس منهوك القوى .

وذهبت مينرڤا تدبر له أمراً فى شيريا ، بلد السلالة ذوى المجد من أبناء فياشيا — ملوك البحر الذين فروا من وجه جيرانهم الجبابرة السيكلوبس — فى العصر الخالى ، ونزلوا بهذا البلد ، فشادوا حصونه ، وأقاموا أسواره ، وتوزعوا أرضه المخصبة ، وأسكنوا الدور والقصور ، وأنشأوا المعابد للآلهة عرفانا وشكراناً .

وقضى ملكهم وزعيمهم نوزيتوس ... ثم استوى على العرش من بعده ألكينوس ، حبيب الآلهة ، وصفى السماء .

* * *

كانت الأميرة الحسناء ، نوزيكا ، ابنة ألكينوس الملك ، تَغطُّ كالملاك فى نوم عميق بين وصيفتين رائعتين من وصيفاتها ، فوق سرير وثير فى مخدعها الملكى الفاخر .

---

(١) صعد .

(٢) كانت النار فى الزمن القديم أغلى مايعتز به الناس .

وكان رِتاج الباب محكما كأنه رتاج باب الجنة ، ولكن ذلك لم يقف بسبيل ربة الحكمة مينرڤا ، التى خطرت إلى الداخل كنسمة نادية من نسمات الصباح ، ووقفت لدى رأس ابنة الملك تزخرف لها هذا الحلم الفضى الجميل ، وإنما تبدو لها فى المنام فى صورة صديقتها وأعز أترابها ابنة ديماس الكريم :

« نوزيكا ! ياويح لك أيتها النؤوم المكسال ! أهكذا تهملين ملابسك وأنت موشكة أن تُزفى إلى عروسك ، وعليها بتوقف مظهرك ومنظرك وَرُوَاؤكِ » ورواء حاشيتك ووصيفاتك ؛ كما يتوقف عليها زهو أبويك بين الناس . مع الفَلَقَ.[1] فاذهبى بمطارفك [2] إلى المغتسل عند ضفة النهر فاغسليها وأعديها ليوم زفافك ، يوم تودعين مرَح هذا الشباب الخالى ... هلمى ! إنى سأعاونك ، أنت ياساحرة ألباب شباب الفِياشيّين ! سلى أباك أن يرسل لك عربة وبغالاً تحمل ثيابك ومطارفك إلى عُدوة النهر حيث لا شاهد ولا رقيب » .

وانفتلت مينرڤا ذات العينين الزبرجديتين ، ورَقتْ أسباب السماء حتى كانت فوق ذروة أولمب ... حيث السكون والهدوء والصمت ، وحيث مستقر الآلهة ، وحيث لا تعصف ريح ولا يتلبد سحاب ولا تدمع عين مطر ... وحيث السماء لا زوردية صافية إلى الأبد .

* * *

وخطرت أورورا فوق عرش المشرق ، وأرسلت من لدنها أميناً من رسل النور يداعب جَفْنى نوزيكا ، فهبت وحلمها الجميل لمّا يفتأ يساور رأسها الصغير ، وهرعت من فورها تبحث عن أبوايها تقص عليهما أنباء مارأت ، وقد ألْفَت أمها لدى المدفأة مكبة على غزل من صوف أرجوانى مُوَشّى

---

(١) الفلق أول ضياء الصبح .

(٢) جمع مطرف بضم الميم وفتح الراء الرداه .

بصبغ بحرى ، ومن حولها وصيفات يساعدنها ... ثم لقيت أباها يكاد يذهب ليترأس مجلس شيوخ المملكة ، فاستوقفته وكلمته فى العربة ، واحتجت بملابس إخوتها الخمسة الذين يستحيون أن يراقصوا العذارى فى الحفلات بملابس لا تليق بأبناء الملوك ... وعقد الخجل لسانها فلم تذكر مطارف زواجها وشفوف[1] زفافها ... ولم يبخل أبوها بما طلبت ، بل أمر لها بعربة كبيرة عتيدة ودواب ، وزودتها أمها بأشربات وآكال وطيوب ومرُوخ[2] .

واستوت مع وصيفتها فى العربة وساطت البغال فانطلقت تطوى الرحب إلى النهر حيث وقفت عند منعرج يترقرق فيه بلور الماء ، متدفقاً من نبع قريب ، وسرحت الدواب لترعى العشب الحلو النامى على جفافى الماء ثم أخذن فى غسل المطارف ونشرها فوق حصباء الشاطئ الذى طمَّهَ المد ونضحه الجزر ، واغتسلن بعد ذلك وتضمخن ، وجلسن على شفا النهر يتبلَّغْن بلقيمات ، ثم نهضن فتلاعبن بالأكر ، وتغنَّت ابنة الملك أعذب الأغانى ، وتثنت كما تتثنى ديانا فى شعاف الجبال وفى يدها القوس والترس ، تصيد الخنازير فى أريمانت – ومن حولها ربرب من عذارى الآلهة ، وابنة لا تونا[3] تتيه عليهن وتدل .. ، كذا كانت تميس ابنة الملك فيكسف لألاؤها جمال الأخريات .

وهنا ... شاءت مينرڤا أن يهب أوديسيوس من نومه ، ليشهد الغادة الهيفاء التى كتب فى الأزل أن تقوده إلى المدينة ، ففيما كانت نوزيكا تضرب الكرة لتلقفها إحدى وصيفاتها ، إذا هى تعلو وتعلو ، ثم تدوّم كما يدوّم الطائر فى العباب المصطخب ...

وصرخ العذارى صرخة مدوية ، فانتفض أوديسيوس وهب مذعوراً مشدوهاً ليرى هذا المنظر العجب !

---

(١) جمع شف بفتح الشين الثوب الرقيق حدا .
(٢) مايسمح به الجسم من ذهن أو طيب أو غيرهما .
(٣) هى ديانا .

ويحى ! أىّ بنى الموتى قطّان هنا ؟ ليت شعرى أشوُس عرابيد أم كرام أجاويد ! أوه ! إنهن عرائس ماء تفزّعن فرجّعت الغيران أصداء صراخهن ، وتراقص الحبَاب فوق العبُاب من جَرْسهن ، وتثنى الكلأ نشوة فى الوادى ! لأدلِفَ نحوهن فأرى إليهن ... » .

وخطر من دَغِيلته [1] خَطّرانَ الأسد هاجته العاصفة ، فاتقدت فى عينيه جمرتان من غضب ، أو ظمىء فاشتدت غُلّتُهُ إلى الدماء ... ونشط نحو العذارى ، فما إن رأينه حتى تفزعن وَوَلّين مذعورات فى الشاطئ ذى النؤى .. إلا نوزيكا ! فقد نفخت فيها مينرفا من روحها ، ونزعت من فرائصها رجفة الخوف ، فوقفت شماءَ الأنف تنتظر القادم ...

وارتبك أوديسيوس ولم يدر ماذا يصنع ؟ أيجثو تحت قدميها يتوسل ويتفرع ، أم يقف عن كثب يستعطف ويسأل الفتاة دثاراً ، ويرجوها أن تهديه إلى المدينة ! وآثر الثانية فتلطف ، ثم قال :

« عَمْرَكِ الله أيتها الملكة ! أربّة من الخالدات ، أم حسناء من بنى البشر؟ أضرع إليك أن تجيبى ! فإنك إن كنت ربة ، فما إخالك إلا ديانا ، ابنة سيد الأولمب ! ولم لا ؟ ولك قسامتها ووسامتها [2] وقدها الممشوق ، وحسنها السوِىّ وجمالها الروىّ ! أما إن كنت إنسيةً فما أسعد آلك بك ، ولشد مايزهون بجمالك ! كلما خطرت فى ملعب ، أو بَدَحْت [3] فى مرتع ... ثم ما أسعد الزوج الذى سيحظى بكل ذلك الجمال ، لايضارعه فى العالم جمال ! ! ألاما أروع ما تَبدين كالنخلة اليانعة فى ديلوس عند مذبح أبوللو ، أيتها الأميرة ! ألا كم أتمنى أن ألثم قدميك ، لولا ما ينتابنى من روع ، ويؤودنى من فزع – أنا – ذلك المُعنَّى المحزون المشجون – أنا – ذلك العَيِىّ الموهون الذى أفلت من يد المنون أمس ، بعد إذ كشر له عن

(١) الدغيلة والدغل الشجر الملتف .

(٢) القسامة والوسامة الحسن

(٣) مشية الحسناء

نابه فى ذلك البحر اللجى ، بعد سفرة عشرين يوماً من أوجيجيا ، وسط أنواء وأهوال ، وموج كالجبال ، حتى شاءت العناية أن تطرحنى بشُطئانكم الحبيبة ! ولست أدرى ما خبأت إلى المقادير بعد ! ولكن ، هل ترى مليكتى من أجلى ، وهى أول من لقيت فى هذه الأرض بعد طول عنائى ، فترشدنى إلى مدينتها ، وتسبغ على – أسبغت عليها الآلهة كل ما تتمنى من هناء وبلُهنة(١) وقران قوى العرى لا تتطاول إليه أعين الأعداء – دثاراً يستر سوءتى ؟ » .

وأجابته نوزيكا : « حباً أيها الغريب النازح وكرامة ! إن سيماك تدل على نبل ، وسَمْتَك ينبئ عن رفعة ! اصطبر على ما ابتلاك به كبير الآلهة الذى بيده العزة ، يشقى من يشاء ، ويهب لمن يشاء ، وإنى سأدلك إلى المدينة ، مدينة الفياشيين ملوك البحر ، التى أنا ابنة ملكها العظيم ألكينوس ، رب نعمائها ومصدر رخائها » وأومأت إلى وصيفاتها تقول : « مكانكن ياعذارى ! فيم فراركن هكذا من إنْسىٍّ كريم ؟ لقد أبت الآلهة أن تطأ قدم عدو أرض أحبائها ، بلادنا المقدسة ، التى انعزلت فى لجج هذا الخضم عن كل العالم ، إنه غريب ياعذارى ، جوّاب آفاق . قذفه البحر إلى شاطئنا ، فمرحباً به ضيفاً من لدن زيوس . وأهلا بوفادته وسهلاً ... هلم إذن ياصُوَيحبات فقدمن له طعاماً وشراباً ، ثم هيئن له حماماً فى منعرج ظليل عند حفافى النهر » .

وأهرع البنات فقُدن أوديسيوس إلى منعرج ذى ظلالٍ وأفياء ، وأعددن له ثوباً وكساء ، وهيأن طيوباً يتضمخ بها إذا فرغ من حَمَّامه ، وسألهن أن يذهبن بعيداً حتى لا يتعرى أمامهن ، إذ « ... لشد ما يخجلنى أن أبدو عارياً أمام الخُرُدّ (٢) الخفرات ! » ... وتهادين إلى مولاتهن يحدثنها بما قال : بينا هو قد انقذف فى الماء يغسل كاهله وحِقْوَيْه مما جمد

---

(١) سعة العيش .

(٢) جمع خريدة . الحسناء

عليها من ملح اللجة ، وصعد فتضَمَّخ بالطيب الثمين ثم أسبغ على بدنه العتيد ذلك الكساء التى منحته إياه نوزيكا،ومن أعجب العجب أن منيرفا نفسها كانت تعاونه فى تجميل خلقه ، وتزيل من شعره الكث الأشعث تلبداته التى كانت تبدو كأنها أزهار الخزامى .. ثم هى بعد كل ذلك تضفى عليه أمواها من البهاء تظلل بها صِداره ، كأنما هى ڤلكان الصناع يعمل حلية من فضة وذهب ، وجلس على الشاطئ فى رونق وروعة ، حتى إذا لمحته الأميرة العذراء أذهلها جماله ، وقالت لوصيفاتها . « تالله ياصُوَيحِبات لقد شككت فى حال هذا الرجل أول الأمر ، ولقد حسبته آفاقيًّا من رعاع الناس ، ولولا أننى أثق أن الآلهة لا تسوق إلى بلادها الحبيبة هذا الصنف من البشر... أما هو الآن ، فلشد مايشبه أرباب السماء ! أواه ! لوددت أن يكون لى زوج فى بهائه وحسن سَمْته ، على أن تبقى آخر الدهر هنا .. هلم ياوصيفات ... قدمن له طعاماً وخمراً ».

ومددن أمامه سماطاً كبيراً ، وزودنه بأحسن الأشربات والآكال ؛ وأخذ أوديسيوس فى إكلته حَيِياً متأدباً ، يرد عنه تلك المسبغة الطويلة التى أنهكت قوته .

ووُضعت أحمال المطارف والثياب فوق العربة ، وشدت البغال ، واستوت الأميرة فى مكانها ، ثم هتفت بأوديسيوس فقالت له«هلم أيها النازح الغريب !إلى المدينة إذن!إنى سأرشدك إلى قصر أبى،حيث تلقاه فى جمع من أشراف الفياشيين وسنطلق وسط هذه الحقول،وإن لى معك من أجل هذا لكلمة .. لقد بنيت مدينتنا فوق صخرة راسية ، وأحاط بها سور عظيم ، ثم وصل بينها وبين فُرضتها جسر ضيق تقر على جانبه سفائننا ، رابضة متراصة ، ثم ينهض عندها معبد نبتيون العظيم ، وبجواره سوق المدينة المبنى من الحجر الصلد ، حيث تباع حبال السفن وشراعها ، وحيث تصنع مجاذيفها أو أكثر عتادها – لأن الفياشيين لا يعنون بشئ عنايتهم بهذه المنشئات فى البحر كالأعلام – والذى أخشاه أن يرانا الناس ثمة فيستهزئوا

بنا ، وقد يسلقونني بألسنة حداد ، قائلين فى سفاهة وتندر : ترى ؟ من يكون هذا الغريب النجيب الهرقلى الذى يقص أثر الأميرة ابنة الملك ؟ أى صدفة جمعت شملها ياترى؟ سرعان ما نراها تزف إليه عروساً كاعباً ... قد يكون ضيفاً غير محمود من أرض نائية ؛ أو ربما صادت بصلاتها وتسبيحها واحداً من الآلهة أبق من السماء ليقر معها إلى الأبد ... الحمد لله الذى من عليها بزوج سعيد من بلاد غريبة يشبع أمانيها الجامحة بعد أن رفضت الأيدى الكثيرة التى تقدمت إليها من أبناء الفياشيين » ... هكذا سيقول الناس إن رأونا أيها الرجل ، ولهم الحق ، فأنا نفسى لا اعفى من اللائمة فتاة عذراء تستبيح أن تمشى مكشوفة مع رجل غريب قبيل عرسها ... ولكن أصغ إلى : إنك واصل حتما إلى أبى إذا اتبعت نصيحتى ... بعد قليل سيصل ركبنا إلى حرج أشجار الحور المقدس النامى فى تخوم الطريق باسم ربة العدالة والحكمة مينرفا .. وإن عنده لنبعاً يترقرق وسط كلأ وأعشاب ... وإن عنده لحديقة أبى ، الجنة الضحوك الغنَّاء ! قف ثمة حتى إذا دخلنا نحن المدينة وحصلنا فى بيت أبى ، فتقدم أنت وادخل المدينة وأسأل أيّاً من الناس ، ولو طفلاً يافعاً ، عن قصر ألكينوس الملك ، أبى الحبيب ، فإنه معروف مشهور لا يضارعه منزل آخر فى سعته وأبهّته . فإذا دخلته فلا تتوان لحظة ، بل سر قدُماً حتى تلقى أمى جالسة لدى الموقد المتأجج بجانب عمود مرمرى ، مكبة على غزلها الصوفى الموشى بأصباغ البحر ، ومن حولها وصيفاتها يعاونّها فى إنجازه — وقريباً منها ترى أبى مستوياً على عرشه يطعم ويشرب كأحد آلهة الأولمب ... لاتكلمه ... بل جاوزه إلى أمى الرؤوم ، ثم سل حاجتك تقضيها لك ، وتُعِدْك إلى وطنك مهما كان سحيقاً نائياً ... أثِرْ فى صميمها عامل الخير والمحبة ، تردك إلى آلك وذويك وبلادك ... وسلام عليك »

ثم إنها ألهبت ظهور البغال فانطلقت تعدو مولية عن النهر الذى صار يبتعد قليلا قليلا ... وكانت نوزيكا آخذة بزمامها لتكبح من جماحها ، حتى لاتفوت أوديسيوس من ورائها .

وكانت الشمس تصبغ بالوَرْس [1] جبين المغرب حينما وصل الركب إلى حرج مينرڤا المقدس ، الذى نهض حوره الباسق فى السماء نضراً ملتفاً كأنما يناجى ابنة جوف ، المدّرعة بإيجيس [2] .

وهنا ... وقف أديسيوس يصلى لمينرڤا :

« يا ابنة جوف القوى المتعال اسمعى لى ! أصيخى الآن ياربة ! لقد تصاممت عنى إذ كانت اللجج تلقفنى فراعينى الآن ! اجعلى لى مِرفقاً من أمرى ، وهبى لى محبة ورحمة فى قلوب أبناء الفياشيين أنسى بها آلامى ... آمين آمين !

ولبت ربة الحكمة واستجابت لدعائه ، بيد أنها ، احتراماً لعمها (نبتيون) الذى لايفتأ يقتفى أثر أوديسيوس عدوه الأكبر ، لم تشأ أن تبدو له .

وفرغ أوديسيوس من صلاته ، ووصلت عربة الأميرة إلى القصر فلقيها إخوتها الأمراء الخمسة النُّجبُ ، فحلوا الدواب وحملوا المطارف والثياب ، وصعدت هى إلى مخدعها حيث كانت خادمتها العجوز الشمطاء (يوريمديوسا) تُعنَى بنار المدفأة .

ولم تكد يور ترى سيدتها حتى حيَّت وبيَّتْ ، وانطلقت تُعِدّ لها وجبة المساء .

أما أوديسيوس فقد هب من مجلسه ، ويمم شطر المدينة ، وقد نشرت حوله مينرڤا — صفيته الوفية — ظلالا وغماماً يحجبه عن أعين الناس حتى لا يضايقه أحدهم بسؤاله من هو وفيم أقبل ومن أى الأقطار جاء ... بيد أنها لاحت له قبل أن يلج باب المدينة فى هيئة فتاة قروية كاعب تحمل فوق رأسها جرتها ... وتعمدت أن تعترض طريقه فانتهزها فرصة وراح يسائلها

---

(١) الورس صبغ بين الأحمر والأصفر .

(٢) كانت ميترفا تلبس درعا تسمى إيجيس .

هكذا : « يابنية ! أتسمحين فتدليني على بيت رب هذه البلدة ، ألكينوس الكريم ؟ لقد نال مني الوَنى [1] وطول السفر ، وحللت عليكم ياأهل فيشيا الأجاويدِ ضيفاً غير معروف ، من بلد سحيق ، فهل تفعلين ؟ »

وقالت مينرڤا – ذات العينين الزبرجديتين – وهي تجيبه :

« حباً أيها الغريب الوقور وكرامة ! سأدلك على بيت ألكينوس بنفسي ، فهو غير بعيد من بيت أبي ... ولكن لى إليك وصية ... أصمت ما دمت سائراً ، ولاتحدج أحداً بنظرة ، ولا تكلم من أهل هذه البلدة إنسياً ، فقد جبلوا على ازدراء الغرباء وقلة إيلافهم ، وتلقيهم فى فتور وبرود طبع ، وقد أحبهم نبتيون رب البحار فأذل لهم أعناق الموج وأسلس لسفنهم أعراف الماء ، فهى تخطر فيه كالطير حين تزِف أو كالفكرة حين تخطر فى الخَلدَ » .

وتهادت ربة الحكمة بين يديه ، ودلف هو وراءها ، ولم تره جموع البحارة الحاشدة التى كان يسير بينها ، لأن مينرڤا ضربت على أعينهم غشاوة عجيبة حجبته عنهم ؛ وكان ينظر بعين الدَّهَشِ إلى مينائهم وسفائنهم ورحبة السوق التى يأوى إليها أبطالهم ، وإلى تلك القلاع المحدقة بالمدينة فى أبهة وجلال ، ثم بلغا بيت الملك ، فقالت مينرڤا .

« هاك ياأبتاه القصر الذى سألت أن أدلك عليه . وستلقى فيه رؤساءنا وأمراءنا أصحاب السمو يولمون ويقصفون ، فهلم فالقهم بقلب رابط وجأش ثابت ، فهم أشد الناس إعجاباً بشجاع جرئ ، وأكرمهم للاجئ غريب . وستكون الملكة أريتا – سليلة الشرفاء الأمجاد آباء ألكينوس الكبير ، وحفيدة المردة الجبابرة من ذرارى نبتيون [2] – أول من تلقى ، إنها سيدة قومها ، وهى محبوبة مبجلة إلى درجة التقديس من زوجها وأبنائها ومن جميع الفياشيين ملوك البحار ، الذين طالما تكبكبوا حول موكبها فى

(١) الضعف .

(٢) آثرنا ألا نثبت هنا ماذكر هومر من انسباب مخافة الإملال .

شوارع المدينة هاتفين داعين . . . إنها تجلس وَقوراً كإحدى ربات الأولمب فتغمر بالمحبة أبناءها ، وتقضى فيما يشجر بينهم . . . لك الله ياسيدى إن قدر لك فاستطعت لقاءها . . . إنها إذن تمنحك بِرَّهاً وتُسبغ عليك من بركاتها فتعود إلى بلادك راضياً ، وتلقى آلك وخلانك عزيزاً مكرماً »

ثم غابت مينرڤا عن الأنظار ، وغادرت أرض شيريا الحبيبة إلى مرَثُون — ومن ثمة رفَّت رفةً فكانت فى أثينا حيث أوت إلى قدسها الكريم إركتيوس .

ودخل أوديسيوس قصر الملك هياباً متخاذلا ، غارقاً فى بحر لجى من الوهم والفكر ، لأنه ماكاد يطأ بقدمه وصيد الباب الكبير حتى بهره لألاء شديد خاطف ينبعث من الداخل ، يزيد فى شدته ولمعانه تلك الجدران المصفحة بالنحاس ، يزينها إطار من اللازورد الأزرق ، وتلك الأبواب الهائلة من الذهب الخالص ، والعماد السامقة من الفضة المجلوَّة ، تكللها تيجان من النُّضار الثمين ، وعلى اليمين وعلى الشمال ربضت كلاب من ذهب ، صَنْعَةَ ڤَلكان ، صَنَاعِ السماء الخالد ، وخالد أبد الدهر كل ما صنعت يدا فلكان . ثم تَلى بعد ذلك ردهة فسيحة مترامية صَفَّت إلى جدرانها كراسى كأنها عروش ، وبثت فوقها نمارق ذوات أفواف وشفوف ، صنعة وصيفات القصر ، وهنا . . . يولم الملك لأمراء شيريا . . . فيقف الوِلدان فى جلاليب من ذهب ، وفى يد كل شعلة تسكب الأضواء من فوق المذبح على جموع الطاعمين فى كل ليلة . . . ياللقصر كأنه جنة الخلد ؟ . . . إن خمسين من غيد شيريا الرعابيب يخدمون الملك ثمة ، يطحنّ القمح وينخلن الدقيق ، ويندفن الصوف ويعملن على النَّوْل . . . مائسات كأفنان الدوح يداعبهن النسيم الحلو . . . حاذقات فى الغزل والنسيج كأحذق ما يكون بحارة شيريا فى عنفوان العاصفة . . قد ثقفن صناعتهن عن مينرڤا فافتنَنَّ وأبدعن إبداعا . ثم تكون البوابة الكبرى ، حيث فردوس القصر اليانع ، وجنته دانية القطوف ، ذات الأسوار المنيعة

المحيطة بهذه الأربعة الأفدنة . . . للآلهة هذا الدوح قد بسق فى جنباتها ، وللآلهة أشجار الرمان المثقلة بأثمارها مفترة عن شفاه الأقاح [1] ، وحمرة الخجل قد خضبت خدود التفاح والكمثرى ، وسالت قطرات من الشهد فى ثمرات التين ، وتأججت أنواراً زاهية فى أفنان الزيتون . . . فاكهة شهية جنية لا مقطوعة ولا ممنوعة شتاء وصيفاً ، يانعة أبدا ، تداعبها أنفاس زفير رب الصبًا فتشيع فيها النضج والنماء ، كلما قطفت يد من جناها ثمرة نمت مكانها فى الحال ثمرات ، فما تقل آخر الدهر قطوفها وما تنقص .

وخلال هذه الجنة المثمرة تمتد الكروم ذَوَات الأعناب والرُّطَبِ والعناقيد من نور ، بعضها يعصر فتقطر الخمر منه ، وبعضها يجف على سوقه فيكون زبيباً جنياً . . . ثم توشِّى أطرافَ الحديقة أحواضٌ من الزهر المشذّب المنسّق ، وتنفجر فى وسطها عينان نضاختان ، يترقرق الماء من إحداهما كاللجين فى مسايل هذا الروض ، وتتدفق مياه الأخرى فى نهر صغير ينساب إلى المدينة من تحت عتبة القصر ، فيرتوى الأهلون منه .

مُلك كبير وآلاء وافرة أسبغتها الآلهة على ألكينوس الملك !

* * *

وقف أوديسيوس مسبوه اللب ، مشدوه الفكر ، يردد طرفه فى هذا المنظر العَجَب ، ثم أفاق فخطر إلى الداخل ، حيث اجتمع زعماء المدينة وشيوخها يصبون الخمر باسم هرمز رسول السماء تقدمةً وقربانا وصلاة لخاتم أرباب الأولمب قبل أن يأووا إلى مضاجعهم ، ولم يتلبث عندهم ، بل تقدم فى خطى حثيثة برغم إعيائه ، وكانت مينرفا تحجبه فى ظلال كثيفة من أعين الملأ ، حتى وصل إلى حيث الملك والملكة ، فكُشِف عنه غطاؤه ، وجثا عند قدمى الملكة يبث شكاته بين دهش الملكين الكريمين وشدة تحيرهما :

(١) زهر الرمان الأحمر.

« أريتا ياابنة ركنور صفى الآلهة ! أتوسل إليك وإلى المليك العظيم ، وأضيافكم النبلاء ، من الله عليهم ، وضاعف لهم آلاءه ، وأنعم على ذراريهم وألف بين قلوبهم وقلوب رعاياهم ، أتوسل إليك ياسليلة المجد ضارعاً أن تعطّفى علىّ ، وأن تُكرْمى مثواى ، وأن تعينينى على الرحلة من فورى إلى بلادى التى أتحرق إليها شوقاً ، والتى فصلتنى عنها أهوال وأهوال ! » .

وساد سكون عميق وصمت ، وظل البطل المسكين جاثياً عند حافة الموقد المتأجج ، حتى تفجرت شآبيب الرحمة والحنان فى قلب إخنيوس ابن الملك البكر ، فراحت الكلمة الطيبة تتدفق من فمه الجميل العذب فى فصاحة وتبيان . وحكمة تقليدية ، وخير ، حيث قال :

« حاشا لمجدك أيها الملك أن تدع هذا الغريب جاثياً هكذا فى غبار الموقد وفى وهج النار ، وأن تترك أضيافك يتنظّرون أمرك . . . وما تُكلم منهم أحداً ! ألا فخذ بيد الغريب وأقعِده مقعد الندى ، ومُرِ النَّدمان يسقه من كأس جوف كبير الآلهة ، وحبيبْ الغرباء وذوى الحاجات ، والنادل يهيئ له عشاء مما تبقى من وليمة الليلة » .

وما كاد الأمير يفرغ من قوله ، حتى أنهض الملك أوديسيوس وأجلسه على كرسى فخم جانب ولده الحبيب الحكيم لأوداماس . . . ثم أقبلت إحدى وصيفات القصر فصبت الماء على يديه من إبريق فضى ، ثم أحضرت مائدة حافلة بأشهى الأُكل وأطيب اللذائذ والأشربات ، فأكل أوديسيوس وارتوى ؛ وأمر الملك كبير السقاة پونتونوس ، فمزج الراح وقدمها إلى الجميع حيث صبوها تقدمة لجوف رب الصواعق وكبير الآلهة ، وحبيب الغرباء ، وحامى ذوى الحاجات ، ثم شربوا بعد ذلك حتى روَوْا .

وقال الملك : « أيها الرؤساء والشيوخ الفياشيون كلمةً عفوَ الخاطر ، فاسمعوا وعوا . . . لقد طعمتم جميعاً وستتفرقون إلى مضاجعكم ، ثم نجتمع

عند مطلع الفجر ، نحن ومن لم يحضر من نواب الأمة الأجلاء ، فننظر فى شأن هذا اللاجئ الغريب ، بعد أن نضحى للآلهة . . . إنه يطلب أن يعود فى حمايتنا إلى وطنه كيما يصل سالماً غانماً من غير أن يمسه أذى ، إلا أن تكون ربات الأقدار قد قضت عليه أمراً ، وإلا أن يكون من أرباب السماء الخالدين . . . لقد وصلت بيننا وبين الآلهة وشائج القربى ، وطالما غشيت مجالسنا وشاركت فى ولائمنا وهى تبقى على محبتنا ، فلا تمس بأذى رجلا منا يضرب فى الأرض ، وليس ما بيننا وبينها أقل مما بينها وبين السيكلوبس[1] ، أو المَـرَدة الجبابرة ، وفى ذلك فخارنا وهو آية مجدنا » .

ونهض أوديسيوس الحكيم فقال : « غَفْراً غفراً أيها الملك ! ما أنا فى الآلهة ؟ ! أين لى خَلقها السَوِىّ ، وكيانها السماوى ؟ بل أنا شقى من أبناء هذه الغبراء ، أثقلت كاهله أحمال هائلة من الكوارث والآلام ، حتى لا يعرف الناس من شَقِىَ شقاءه ، ولا من تحمل مصائبه وأرزاءه . . بلايا صبتها على رأسه الآلهة فصبر وأناب . . أوه ! أبداً لا أنتهى إذا سردت عليكم طرفاً يسيراً منها ! ولكن لا داعى الآن . . . أرجوكم . . . أتوسل إليكم . . . دعونى أتبلغ بهذه اللقيمات فى هذه اللمحة الحالمة من الراحة التى لم أنعم بمثلها منذ بعيد . لشد ما يصرخ الجوع فى أذُن الجوعان ، ولشد ما يعذبه الطّوى ! إنه يلح عليه بكل صنوف الألم حتى ينسيه آلامه وأشجانه . إن له لشهية عالية الصخب تطلب العون فى جُؤَار وجنون ، حتى ليضيع فى ضجيجها هتاف جميع الآلام ، إلى أن تكتفى . عفواً أيها السادة ! إنى أفتأ أضرع إليكم أن تيسروا لى عوداً أحمد ، وأوبة سالمة ، بعد طول العناء ، والشقاء الذى ليس بعده شقاء ؛ إنه لا أحب إلىَّ من أن أودع الحياة بعد نظرة واحدة أتزودها من أهلى ووطنى » .

---

(١) الكلوبس أو الكيكلوبس كنطقها اليونانى مارد بعين واحدة .

وتأثر القوم من أجله فأثنوا عليه . واتفقت آراؤهم على معاونته حتى يعود إلى بلاده ويلقى ذويه ، ثم نهضوا فصبوا خمر الصلاة باسم الآلهة ، وشربوا نخب رب الدار ، ثم تفرقوا إلى منازلهم ؛ إلا أوديسيوس ، فقد ظل جالساً ساهماً واجماً ، كما ظل الملكان إلى جانبه ساهمَيْن واجمَيْن ؛ والنُّدل فيما بين ذلك يحملون أطباق المائدة وأكوابها . حتى إذا فرغوا أخذت الملكة تتحدث إلى أوديسيوس ، وقد لفت نظرها هذا الثوب الفضفاض الذى كان يلتفع به :

« والآن جاءت نوبتى فى التحدث إليك أيهذا الغريب الكريم ، فمن أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأنىّ لك هذا الصدار وذلك الدثار ؟ ألست قد قلت إنك غريب نازح أفلتتك المنايا فى لجج البحار ؟ » .

وقال أوديسيوس يجيب أريتا :

« أيتها الملكة ! قد لا افرغ من الحديث إذا حاولت أن أسرد قصتى بحذافيرها ! بل ليس أشَقَّ على من ذلك ، فقد كرثتنى الآلهة بكل أنواع الهموم وصنوف الآلام ، بيد أننى أُلِمّ بمآساتى المحزنة فى كلمات فأقول : « فى أوجيجيا – إحدى الجزائر القاصية التى لم تطأها قبلى قدم بشر ولم يخطر بها إله – تقيم عروس الماء المفتان – كليبسو – البارعة الرائعة الصناع ، ابنة أطلس الجبار التى قدِّر على أن أكون أول لاجئ إلى جزيرتها بعد أن سلط جوف صواعقه على سفينتى فشطرها وأغرق كل رجالى ، وظللت أنا متشبثاً بالسارية ليالى وأياما ، حتى دفعتنى المقادير فى الليلة العاشرة إلى ساحل الجزيرة حيث آوتنى كليبسو الجميلة الريَّانة ، وأنقذتنى من موتة أكيدة ، وأطعمتنى وأكرمت مثواى – ثم عرضت أن تهبنى الحياة الخالدة والشباب الأبدى ، لولا أننى تأبيت ... ثم أقمت عندها سبع سنوات لم يرقأ طوالها دمعى الذى نَضحْت به أثوابى وما خَلَعت علىّ من دثار ... وفى الثامنة أرسل إليها جوف كبير الآلهة من يأمرها بإطلاق سراحى ، فأبحرت على رمث زودته بالأطايب والأذخار ، والأشربات والآكال ، ثم أرسلت بين

يدىَّ ريحاً رُخاء ما انفكت تجرى بى فى عباب من بعده عباب ، طيلة سبعة عشر يوما ... وفى الثامن عشر لاحت قمم جبالكم الشُّم فخفق قلبى فرحاً ... بيد أنه كان أملاً خُلّباً لم يطل أمده ... فقد أبى نبتيون الجبار إلا أن يقف بسبيلى ، وإلا أن يرسل ريحاً معاكسة تثير الموج وتهيج اللج ، وتمزق ما التأم منى ومن فلكى الصغير – الذى كان أملى ... ولم يعد بد من أن أكافح الماء . وأذرع اليم بالسباحة ، حتى تضافرت الريح والموج ، فقذفانى إلى ساحلكم ذى النؤى ... ولم احتمل صدمة الصخور ، فنضحنى السيل الرابى إلى الأعماق كرة ثانية ... وشرعت أكافح مرة أخرى ، حتى نثرتنى موجة مُزبدة فى نهر وَديع متطامن ... فسبحت إلى إحدى عُدوتيه ، واستلقيت على الشاطئ ، خَفِقَ الأحشاء موهون القوى ... وأقبل الليل فتهالكت على نفسى إلى دَغيلة[1] مهدتها بعساليج وشئ من القش وفروع الشجر ، ونمت ليلاً طويلاً وضَحْوة متعبة وظهيرة كلها نصب وإعياء ... ثم أيقظتنى صيحات قريبةُ مرِنَّة ، فإذا ابنتكم الأميرة الحبيبة الحُسان فى ربرب من أترابها يتلاعبن كربات الأولمب على رمال الشاطئ ... وجثوت تحت قدميها ، ومازلت بها أتملق شبابها الغض بدعوات معسولات ، وأثير نخوة صباها الفينان حتى أمرت لى بطعام شهى وخمر معتقة ، وأشارت إلى منعطف فتوجهت إليه فغسلت ما على جسمى من خَبَث ، ثم منحتنى هذا الصدار وذاك الدثار ...

تلك قصتى أسردها عن قلب محزون .. ما فيها أثارة من مَيْن[2] قال الملك : « لشد ما أخطأت بنيتى إذ لم تصحبك إلى هنا فى جملة حشمها مادمت قد رجوتها فى ذلك أول الأمر » .

وقال أوديسيوس يجيبه : « إنها لم تخطئ أيها الملك الكريم وما عليها من ملام . لقد كلمتنى فى مثل ذلك فأبيت لأنى خفت أن يسوءك ذلك منها ومنى ، ولأنى أعلم أن الناس فى كل مكان ظننانون قوالون » .

---

(١) أشجار ملتفة . (٢) كذب

فقال الملك : «كلا أيها السيد ، إن صدرى لايحمل مثل ذلك القلب النزق ... إن الرصانة والأناة أفضل ميزات الخلق الكريم ... تالله يابنى إنى لأوثرك كولدى ، وبودى لوقبلت فصهرت إلى وتزوجت ابنتى ، وعشت معنا كواحد منا ... وإنى – إن رضيت – لمقطعك الأقطاع الشاسعة ومانحك المنزل الرحب . هذا وليس فى فياشيا كلها من يجسر أن يقسرك على شئ تأباه نفسك . معاذ الله يابنى ... إن هذا إلا عرْض مجرد عرض منى لما أنسته فيك من سمو ورجاحة ونبل ... فإنْ لم يَرُقك أن تفعل ، فإنى مُعِدٌّ لك أسباب عودتك غداً ، وستنام ملئ عينيك بينما يكون الفلك ينهب اليم ويطوى العباب ، متسرباً فوق الموج بقوة الأذرع الفتية التى تعمل فى المجاديف حتى تصل إلى وطنك سالماً غانماً . بل حتى تصل إلى أبعد منه . ولو إلى ماوراء أيوبيا أبعد الجزائر منا ، حيث يحمل بحارتنا ردمنتوس [1] ذا الشعر الذهبى لزيارة تتيوس [2] جبار الأرض ... إنهم يبحرون به إلى هذه الجزيرة ويعودون فى يوم فى غير عناء أو إعياء ، وستعرف سبب فخارى بسفائنى وبحارتى الذين يذرعون البحار ويضربون أكبادها حين يبحرون بك » .

وشاع البشر فى أسارير أوديسيوس ذى التجاريب فقال : « أيها الأب الخالد ! لله محامدك الغرّ ! أنجز يامولاى يَسِرْ ذكرك فى البلاد ، وألقَ أهلى وأنشقْ نسمة من وطنى » .

* * *

هكذا تشقق الحديث بينهما ..

ثم أمرت الملكة بعض وصيفات القصر فأعددن فراشاً وثيراً فى الرواق

---

(١) ابن زيوس من زوجته أوربا وقاضى العدالة فى الدار الآخرة «هيدز»

(٢) أحد مردة طار طاروس ويغطى جسمه مساحة تسعة أفدنة .

ذى الأعمدة ، وهيأنه بوسائد من دِمَقس [1] ، وبثثن فوقه الأرائك والحشايا ، وعلقن الستائر والأسجاف ، ووضعن البرانس [2] واللحف ... وكانت كل منهن تحمل شعلة كبيرة تتوهج فى جوانب القصر ... حتى إذا فرغن من كل شئ ، دعون أوديسيوس فى أدب وظَرف أن ينهض لينام ... وغفا بطل هيلاس ... وأسلم عينيه لأحلام سعيدة .

ونهض الملك والملكة لينعما بطيب المنام .

---

(١) حرير .

(٢) البرانس بمعناه المعروف عربى فصيح .

حفل أولمبى

وصبغت أورورا بمثل حمرة الخجل وجنات المشرقين ، فاستيقظ الملك ، وهب أوديسيوس من نومه ؛ وذهبا إلى الشاطئ حيث تُلقى السفن مراسيها ... وهناك ... فوق مقعد حجرى أملس ، جلسا يتحدثان ، بينما كانت مينرڤا تدق البشائر فى شوارع المدينة ، وقد بدت فى صورة منادى الملك وطيلسانه ، تدعو سادات الفياشيين وشيوخهم إلى مجلس الملك للنظر فى أمر هذا الغريب الكريم اللاجئ الذى حل عليه ضيفاً ... «كأحد آلهة الأولمب ، برغم ضربه الطويل فى عرض البحار» .

وازدحم سادات المدينة وأشياخها فى قاعة المجلس ، وكانو يَقلّبون فى أوديسيوس نظرات الإعجاب والدهش ، وكيف لا ؟ وهذى مينرڤا قد أضفت على صدره الرحب وكتفيه العظيمتين ، وجسمه السامق ، رُوَاءً علوياً من الأبهة والجلال ، كان ينعكس وقاراً ورهبة فى قلوب الفياشيين .

ولما انتظم عقد القوم نهض ألكينوس الملك ، فقال : ياسادة الفياشيين وشيوخ الأمة ، كلمة مرتجلة ، فاسمعوا وعوا : لقد حل هذا الضيف الكريم الذى لا أذكر اسمه فى بيتى بعد أن شرَّق فى آفاق العالم وغرَّب ؛ وإنه ليرجو أن تمدوا له يد المعونة فيعود أدراجه إلى بلاده فى كنَفكم سالماً ، إذ طالما كان هذا دأبَكم ، إكرام الضيف ، والإحسانُ إلى الغرباء اللاجئين ، وردُّهم إلى ديارهم مهما كانت سحيقة آمنين .. فالبدارَ إذن .. هلموا إلى سفائنكم فتخيروا أحسنها حالا ، وأصلحها لمجالدة هذا البحر ، ولتُعِدّوا لها نخبة ذوى بأس من أصلب فتيانكم عوداً وأشدهم مِراساً . إثنين وخمسين عدداً من أينع زهرات شباب هذه الأمة ، ثم تعالوا إلىّ فإنى مولم لكم تحية لهذا الضيف ، فلا يتأخر منكم أحد أبداً ... وليحضر معكم أحب

المنشدين دمودوكوس الإلهى ، صاحب الألحان الخالدة ، والصوت السماوى الساحر ، فليشنف آذاننا بحلو أنغامه التى لا يقدر عليها إلا هو .. »

وانصرف الملك وفى إثره شيوخ الفياشيين ، وانطلق رسول إلى منزل المنشد دمودوكوس الإلهى .. واختيرت النخبة ذات البأس من شباب الملاحين وأُعِدت السفينةِ فى مكانها الأمين من اليم ، فنُصبت القلوع ونُشر الشراع وصُفَّت المجاديف .. ثم مضى الجميع إلى بيت الملك ، حيث كانت الجماهير الحاشدة تَكَظ الأبهاء ، وتزدحم فى الدهاليز ، وتملأ الصالة الكبرى ... وجئ بالذبائح ... فهذان ثوران كبيران ذوا خُوار ... وهذى اثنتا عشرة شاة سمينة ، وتلك أربعة خنازير كناز [1] ماكادت تذبح وتنتزع أنيابها حتى أخذ الجميع فيما أقبلوا له من طعام وشراب ... ثم أقبل منادى الملك يقود المنشدُ الإلهى الأعمى ، رخيم الصوت ، صفىّ رباب الفنون ، اللائى عدلن له بقسطين من خير ومن شر سواء ، فوهبته التطريب المعجز ، وسلبته النور من عينيه العزيزتين ... وأُقيم له عرش مُمّرد فى وسط الصالة الكبرى ، عند عمود مرمرى عظيم ، فاستوى عليه ، وأعلمه يونتونوس بمكان قيثارته المعلقة فوق رأسه ، ووضع بين يديه سلة من طعام ومزة [2] .

وما كادوا يفرغون من آكالهم حتى رقصت عرائس الفنون فى فم المنشد المطرب . فأرسل غناء سحر ألباب الناس ، ورقى بها إلى أثير الآلهة فى قبة السماء ... لقد تغنى هذه الأغنية التى تروى النزاع الذى شجر بين أخيل بن بليوس ، وبين أوديسيوس بن ليرتيس فى أثناء الوليمة الإلهية ، والذى جاءت به نبوءة أبوللو (فى دلفوس) حينما استوحاه أجاممنون عن يوم سقوط طروادة فى أيدى اليونانيين .

وسكت المغنى ، ودفن أوديسيوس وجهه الساهم فى ذيل ثوبه الأرجوانى الفضفاض خشية أن يلحظه أحد ... وطفق يبكى ...

---

(١) كناز جمع مفرده مثله كثيرة الشحم واللحم .

(٢) خمر .

ويستخرط فى البكاء ثم كشف عن جبينه ، وسقى الثرى كأساً من خمرٍ صلاةً للآلهة ... ثم عاد إلى بكائه حينما واصل المطرب غناءه ، وكان يرسل عبراته فى كسائه غير ملحوظ من أحد إلا من ألكينوس ، الذى عز عليه ما رأى وما سمع من عبرات ضيفه ، ومن تنهداته فقال : « حسبنا ياسادة ما طعمنا وما سمعنا ... هلموا جميعاً نشهد الضيف الكريم بعض ألعابنا ـ ليذكر فى العالمين أن الفياشيين خير من يجرى ومن يثب ، وأمهر الناس فى الملاكمة والمصارعة ! » .

ونهض الملك ، ونهض فى إثره كل أضيافه ، وتقدم المنادى فقاد دمودوكوس ، وقصد الجميع إلى ساحة السوق الكبرى ، حيث احتشدت كواكب الشجعان والشباب اليانع من ذوى القوى والفتوة والبأس الشديد ، أتوا من كل حَدَب لهذا الحفل المشهود ... وفى وسط الحلبة وقف الأبطال آكرون وأوكيالٌ وإلاتريوس ونوت وپرمنيوس ؛ ثم وقف خلفهم الأبطال أنخيال وأنابيسين وإرتميوس وپونت وپرور وأمفيال وتون ... ثم نهض حليف مارس المهوب يوريالوس ، ثم فخر شباب الفياشيين نوبوليد ... وقف كل هولاء ... ثم هب أبناء الملك الثلاثة ... لوداماس ولده البكر ، ثم هاليوس ، ثم كليتون الأصغر ، وشارك نفر من أولاء فى سباق الجرى ، فأخذوا أهبتهم ، ثم انطلقوا يثيرون التراب فى إثركليتون – ابن الملك – الذى شآهم [١] جميعاً ، وتركهم يتعثرون وراءه كما تتعثر الثيران فى إثر البغال ... وتلقاهم النظارة بالهتاف العالى والتصفيق الشديد ، ثم كانت المصارعة التى برز فيها يوريالوس على كل أقرانه ، كما برّز أمفيال فى الوثب الطويل ، وألاتريوس فى قذف القرص ... أما فى الملاكمة فقد تفوق لوداما النبيل ابن ملك شيريا ، وكان فوزه مسك ختام المباريات ، ثم نهض لوداماس فقال :

---

(١) سبقهم .

والآن أيها الأصدقاء نسأل ضيفنا الكريم عما إذا كان يحذق شيئاً يفخر به من هذه الألعاب ؟ ! إنه لا يزال غريض الشباب ، بادى الفتوة ، مكتنز العضلات ، عظيم مُنَّةِ الساقين والفخذين ، مفتول الساعدين وإن له لعنقاً أى عنق . . . كل ذلك بالرغم من بدوات الضنى وأمارات العناء ، وما حطم البحر من جسمه الخصب ، وهل أهلك لجسوم الرجال من جبال العباب ! ! » .

وكأنما راقت هذه الكلمات البطل يويالوس فطلب إلى لوداماس أن يدعو الضيف إلى النزال ، فنهض لوداماس ثانية وقال : « هلم أيها الضيف فأرنا هل تجيد من هذه الألعاب شيئاً ؟ ما استحق أن يعيش من لم يعمل بيديه ويسع بساقيه . . . هلم ؟ حاول إذن ! فيم احترازك هكذا ؟ إنا لن نؤخرك قط ، فالسفينة معدة والملاحون على أهبة » .

وقال أوديسيوس يجيبه : « أتتخذنى هُزُواً حين تدعونى للعب يالوداماس ؟ ! أى لهو وأى لعب وأنا نِضوُ أسقام وطريح آلام ، لا أمل له إلا أن يعود إلى بلاده ، وفى ذلك ما يضرع للملك وللناس ! » .

وهب يويالوس يصِدُّ[1] ويقول . « كلا أيها الصديق . . . إنى عذيرك ، فسيماك لا تنبئ عن رجل رياضى ، بل أكبر الظن أنك من رجال الأعمال أو حَفَظَةِ المخازن . . . أو . . . إن لم يخب حدسى . . . من أدلاء السفن فى الثغور ؛ ومن يدرى ؟ فقد تكون عيَّاراً أو قرصاناً ! ! » .

وعبس أوديسيوس وبَسرَ ، وانتشرت فوق جبينه ظلمات من الهم ، وتهدج صوته فقال : إنك لم تحسن كيف تتكلم أيها السيد ، وإنك لم تبال أن تُطلِقَ فى لسانك بُهجْرِ القول كأننى رجل لا اعتبار لى . . . على أن الآلهة – جلت وعلت – لم يتفق أن منحت أحدًا من العالمين كل آلائها فى وقت معاً . . . بساطة الجسم ورجاحة العقل وقوة البيان . . . فقد يلوح لك هذا الرجل مُهـدّماً محطما فى حين قد وهبه جوف بياناً متيناً مبيناً حتى

---

(١) يجهر بالقول .

ليخلب ألباب سامعيه ، وحتى ليرتفع فى نفوسهم إلى مَصافِّ الآلهة . . . وقد تنظر إلى ذاك الرجل كأنما تتدفق فى عضلاته قوى السماء وهو لا يحسن أن يقول كلمة . . . مثلك . . . مثلك تماماً . . . فلقد أوتيت بسطة فى الجسم ، حتى لتوشك فى ذلك أن تكون مثالا تقيس عليه الآلهة ، إذا أرادت أن تخلق مارداً جباراً . ولكنك – واأسفاه ! – لم تؤت بياناً ولا حكمة ! فلقد أثرت ثائرى بكلماتك الغلاظ ... العِجاف ! إنى – أيها السيد – كما ذكرت – لا أحسن من هذه الألعاب قليلا ولا كثيراً . . . ولكنى كنت فتاها وفارس حلبتها أيام كنت شاباً يافعاً غضَّ الإهاب ريّان الشباب . . . أما أنا الآن ! فوا أسفاه ! ! إن حدْثان الزمان لم يُبق منى . . . ولا علىَّ ! لقد ذبل شبابى فىّ نقع الحروب وسُوح الوغى . . . وفى هذا البحر اللجى يغشاه موج من خلفه موج . . . كالجبال . . . بيد أننى . . . على الرغم مما ينقض ظهرى من ويلات ، سأثبت فى سجل شجاعتكم قوتى ! فإن لما هَرَفْتَ به من قول السوء لأنياباً تعضنى وتنهشنى . . أو أدُلَّ على قوتى وجبروتى . . .» .

وكان إلى جانبه قرص القذف الذى يستعمله أبطال الفياشيين فى مبارياتهم فانقض عليه واحتمله بيده القوية المفتولة ثم دفعه دفعة هائلة كان لها هزيم وقصف . واستهولها بحارة الفياشيين الشجعان فخفضوا رؤوسهم حتى استقرت بعيداً خلفهم . . . وهنا بدت مينرفا بين الملأ فى صورة أحدهم ، وهبت عجلانة تقيس مدى القَذْفة ، ثم قالت : « ألا أيهذا الغريب ! الأعمى نفسه لا ينكر برهانك الدامغ القوى ! إنه مدى لايستطيعه أحد غيرك ، فتِهْ على هؤلاء الفياشيين ! إن منهم من لا يستطيع أن يباريك فى أى من هذه الألعاب فادعهم إليك وما عليك من بأس » . وشاعت الكبرياء فى نفس أوديسيوس حين سمع هذا الهاتف من صميم الفياشيين يطريه ويثنى عليه ، وينصب من نفسه قاضياً له ، فقال ، وقد انكسرت حدة غضبه .

« هلموا أيها الشباب فاقذفوا هذه القذفة ، أقذف أبعد منها وبقرص

أكبر وزنا ! ! هلموا ! ! ليأتِ أقوى ملاكميكم فإنى له ! وليقف أضْرى مصارعيكم فأنا أخوه ! وليجر معى أسرع عدّائيكم فلن يلحق بغبارى ! لقد هجتم ثائرى فهلموا ! إنى أتحداكم جميعاً إلا لوداماس فإنه مضيفى وصاحبُ قِراى ، وليس بى أن أنازل من أكرم مثواى فى دار غربتى وليس بى من النزق ما يحملنى على شئ من ذلك . . . أما غيره فأنا له ، وسيعلم مُنازلى مهما يكن مبلغ قواى . . . إنه ليس من ألعاب الناس ما يعجزنى . . . فأنا رب القوس ، وطالما صرعت الألوف من الأعداء تحت أسوار طروادة ، وأبداً ما رمى أحد سهماً كما رميت إلا فيلكتيتس يوم حاز قصب سَبْقها دونى . . . على أنه من ؟ ؟ إننى لم أبلغ من الحول ما بلغ هرقل أو يوريتوس الذى نفس عليه أبوللو مهارته فى الرماية فقتله . . . هذا . . . وإلى الرمح السمهرى ، فإنى أبلغ به المدى الذى لا تبلغه سهامكم ! ! على أننى لا أطمع أن أبلغ خفتكم ورشاقة حركاتكم – فلقد قاسيت من الأرزاء ما قصم ظهرى ، وصارعت موج هذا الخضم حتى حطمنى وأوهانى ، ولقيت من الطوى ما برانى ! ! »

وصمت الفياشيون ولم ينبسوا . ثم تكلم الملك فقال : « عَمْرَكَ الآلهة أيهذا النازح الكريم لقد جلجلت فى آذاننا كلماتك فدلت على شجاعة وعنفوان ، وأفحمت هذا الشاب الذى جرح عزتك وأهان كبرياءك أمام الجميع ، ثم سكت عن تحديك . . . ولكن تعال فانظر إلى مانريك من ضروب الخفة وفنون الرقص وفنون الغناء والسبق فى العدو ، ومهارتنا حين نسوس الفلك فوق أعراف الموج ورُغَاء الزَبد ، كما تتحدث بهذا كله إلى أقرانك وبين ظهرانى قومك ، وتحكيه لأطفالك . عَمْرَكَ الله أيها الغريب المكرم إنه لا فخر لنا فى ميدان الملاكمة والمصارعة ، بل غاية المتاع عندنا ثوبٌ مُوشّىٍ وطعام ملوّن وقيثار مُرنة ، ورقصة خاطفة ، وحمام دافئ وفراش وثير . . . . . . والآن . . . هلموا أيها الفياشيون فالهْوا أمام ضيفكم والعبوا ، وأروه من رقصكم وشنفوا أذنيه من غنائكم ، فلسوف يتحدث بكل ذلك فى الآفاق ، وحسبكم أن يذكر عنكم أنكم أمهر من

ركب البحار ! هلموا . . لِيُحضِرْ أحدُكم دمودوكوسَ الإلهي . . . يعزف قيثاره ويلاعب قلوبنا بغنائه . . . ابحثوا عنه فى بعض ردهات القصر . . .»

وانطلق منادى الملك يبحث عن المطرب الإلهي ، وانطلق آخر يعد قيثاره ، ثم نهض تسعة فياصل [1] يمهدون أرض الملعب ويهيئون الحلقة ويزحزحون الجماهير . . . . وأقبل المنادى والمطرب يسعى بين يديه ، وجلس فى وسط الحلقة حيث أحدق به الولدان اليوافع اليوانع يميسون ويرقصون بسيقان تخطف كمثل خطيف البرق ، بين دهش أوديسيوس وشدة تعجبه ، والمطرب فيما بين ذلك يوقع لهم النغم الحلو ، والموسيقى العالية . . . وفرغوا من رقصهم ، فشرع المنشد يتغنى أسطورة مارس ومعشوقته الآثمة سيتريا [2] إذ أغواها رب الحروب المستهتر بمعسول الكلام ومطلول الغرام فلانت له . . . وكان أپوللو – إله الشمس – يرقبهما من مركبته الذهبية فى علياء السماء ، فطار بالفضيحة المشئومة إلى الزوج التعس . . . ڤلكان . . . الذى استُطير وثار ثائره ، فراح يصنع أنشوطة كبيرة كالشرك من حلق الحديد المفرغ الذى لا يقوى عليه أحد ، حتى إذا فرغ منها حملها إلى داره ودسها حول سريره ثم ألم بالمنعرج النجس حيث أوى مارس إلى ڤينوس – الزوجة الآثمة – وكان مارس يغالب فى عينيه أخريات غفوة الضحى ، فلمح ڤلكان يطوى الرحب إلى أرض لمنوس – أحب المدائن إلى قلب الإله الحداد . . . وطرب مارس أيما طرب . . . وأيقظ معشوقته قائلا : « هلمى ڤينوس . . . انهضى أيتها الحبيبة : لقد ذهب زوجك إلى لمنوس أرض البرابرة . . . هلمى إلى البيت . . . » وهبت ڤينوس . . . وانطلق الأثيمان إلى دار ڤلكان ، ولكن . . . واأسفاه ! إنهما ما كادا ينطرحان حتى انطرحت فوقهما الأنشوطة الهائلة . . . وأمسكت بهما إمساكا شديدا . . . لم يجدا منه مفرا ، ولم يجدا منه مخلَصاً . . . وكان

---

(١) الفيصل الحكم

(٢) ڤينوس (الأسطورة فى كتابنا أساطير الحب)

أپوللو يرقبهما كذلك ، وقد حدث ڤلكان بما رأى . . . فعاد الإله الحداد على عجل ، ولم يكن قد بلغ شطئان لمنوس بعد . . . وكان قلبه يدق . . . لا . . بل كان قلبه يكاد ينخلع ، فوقف فى البهو الكبير ثم أرسل صيحة مدّوية يستصرخ بها الآلهة : ياجوف العظيم ! يا آلهة الخلود جميعاً ! انظروا ! إشهدوا كيف تخون ڤينوس زوجها ! ولمِهْ ؟ لأنه محطم موهون ! ذنب من ؟ إنها جريرة من أنسلونى وجاؤوا بى إلى الحياة » .

ولم يكد يفرغ من صرخته حتى اجتمع فى بيت جوف ذى الأرض النحاسية جميع الآلهة . . . وكان أول من أقبل نبتيون رب البحار ، ثم تلاه هرمز رسول الآلهة وصاحب القوس ، ثم أپوللو . . . ثم غيرهم وغيرهم . . . ولم يحضر من ربات الأولمب واحدة ! فقد احتجزهن الخجل عن شهود هذه الجريمة ! ثم هاهم الآلهة يقهقهون ويضحكون . . . ويَتلهَون بهذا المنظر العجيب ، ويقول بعضهم لبعض : « يا للإثم ساق إلى أوخم العواقب ! ويالالأعرج الأكسح ، يشائى[1] السبَّاقَ المُجلّىِّ ! ! لقد استطاع ڤلكان أنْ يمسك بتلابيب مارس ، الذى هو من هو . . . ! مارس ! أسرع العَدَّائين ! إن عليه أن يؤدى الغرامة الفادحة للإله الأعرج . . . » . . . ، وتضاحك سكان السماء . ولكن نبتيون الذى ساءته هذه الحال خاطب ڤلكان فقال « هلم ڤلكان ففك هذه السلاسل والأغلال ، وإنى زعيم لك ، كفيل بأنه مؤد إليك كل ما تفرض عليه من غرم ! » . . . ورفض ڤلكان أن يطلق فريسته . . . « من يضمن ألا ينطلق مارس وهو لا يلوى على شئْ ، غير عابئ بكل ما عساه أن يَعِد ؟ » . وقال رب البحار : « ليطمئن قلبك ياڤلكان فوعزتى وجلالى لئن لم يف مارس لأجزن أنا ، ولأؤدين عنه غرامته ! ! » . فأجاب رب الحديد الصَّناع : « إذن ؛ فلن يخيب رجاؤك ، ولن يُرَدّ طلبك ! » وتقدم ففك الأغلال عن المجرمين الأثيمين ، وانطلق مارس إلى مأواه بأرض تراقية ، وانطلقت ڤينوس إلى

---

(١) يسابقه فيسبقه .

مرتعها الجميل بأرض بافيا – حيث تلقاها ربرب من أترابها بالبشر والترحاب ، فغسلنها ، وضمخنها بالطيوب القدسية ، وأسبلن عليها شفوف الصبا وأردية الشباب .

وفرغ دومودوكوس من إنشاده بين تأثر أوديسيوس وتلهف البحارة الفياشيين ، ثم أومأ الملك إلى أبنائه فوثبوا وسط الساحة ، وأخذوا يرقصون فى خفة ، ويتقاذفون كرة غالية من صنع پوليب ، فكان أحدهم يرسلها عالية حتى تدنو من السحب ، فيثب الآخر فيلتقطها وهو معلق فى الهواء ، ثم يتقاذفها أحدهم بعد الآخر ، بين تهليل الفتيان وتصفيقهم الشديد وسر أوديسيوس مما أبداه أبناء الملك فى الرقص ، وأثنى عليهم لأبيهم ، ورجاه فى الذى رجاه فيه من تهيئة عودته ، فتوجه الملك إلى زعماء شعبه وقال : « يازعماء الفياشيين وأشياخ الأمة ! جدير بنا أن نكرم مثوى هذا الضيف الذى بدا لكم من وقاره وحكمته وأثير أرومته الشئ الكثير ؛ هلموا إذن ... إنكم اثنا عشر زعيما ، وأنا الثالث عشر ... فليحضر كل منكم بِدرة من الذهب وصداراً مُفَوَّفا فتكون من الجميع هدية سنية له ... أما يوريالوس فعليه هدية كذلك ، وعليه أن يعتذر مما فاه به » ، ووافق الكل على ما اقترح الملك ، وأرسلوا رسلهم يحضرون البدَر والصُّدُر ؛ ثم نهض يوريالوس يعتذر ويقدم لأوديسيوس سيفاً جُرازاً [1] له مقبض من فضة ، وقِراب مطعم بالعاج ؛ ودعا له أن تكلأه الآلهة بعين الرعاية حتى يرى زوجه وولده وبلاده ، بعد كل الذى احتمل من عناء ونصب . وتقبل أوديسيوس الهدية ، ودعا لصاحبه بحياة الأمن والسلم والرفاهية . ثم علق الجراز فوق كاهله الضخم .

ووصلت الهدايا الأخرى مع غروب الشمس ، فنهض أبناء الملك يتسلمونها ، ويحملونها إلى داخل القصر ، حيث أمهم أريتا الملكة ... ونهض الملك فتوجه إلى الداخل كذلك ، وسأل الملكة أن تحضر ثوباً

---

(١) سيفاً قصيرا والقراب بكسر الكاف الغمد .

وأكسية ، وأن تعد صندوقا يتسع لهدايا الزعماء ، وملوك البحر ، التى خلعوها على الضيف ؛ وقدم هو هديته ... كأسه الخاصة من الذهب الخاص ، المحلاة بأبهج الطُّرَفِ وأبهى التصاوير ... « ليذكرنى بها ، كلما أفرغ منها الخمر تقدمة للآلهة » . وسألها أن تعِد للرجل حماماً ينعشه ، وأن تعطيه الأثواب والأكسية كيما يتدثر بها .

وأمرت الملكة خدمها فأعددن الحمام ، وأحضرت هى ثوباً فضفاضاً فوضعت فيه بِدَرَ الذهب وكأس الملك وسائر الهدايا ؛ ثم تلفتت إلى أوديسيوس فقالت له : « والآن أيها السيد هلم فغَلِّق هذا الصندوق فهو لك ، لتكون آمناً عليه إذا غفوت فى السفينة » . ولبى أوديسيوس وأغلق الصندوق ثم ربطه بحبل طويل عقّده تعقيداً . ثم دعته ربة البيت إلى حمامة ؛ ولله كم أَلِقَتْ عيناه حين رأى الثوب الديباجىّ العظيم ، الذى لم يلبس مثله منذ فارق كليبسو ... ثم اغتسل وتدثر ، وتضمخ بأحسن الطيوب ، وبرز كأحد آلهة الأولمب ... وبينما هو يطوى الأبهاء إذا صوت جميل ذُوغُنَّة يهتف به ... وإذا هى الأميرة الفينانة — نوزيكا — واقفة خلف عمود وهى تقول : « س . س ... أيها الغريب النازح اذكرنى دائما ، أنا ، أول من لقيك هنا ! ! » وتبسم أوديسيوس وقال : « نوزيكا !! أنت ؟ ابنة أكرم الملوك ألكينوس ؟ ؟ لك الله ! ألا وحق جوف رب الصواعق لو صحت الأحلام ووصلت سالما إلى بلادى لظللت آخر الدهر أعبدك عبادة أيتها الجميلة العذراء كما أعبد الآلهة أربابى ! » . وبلغ مجلس الملك فاستوى إلى كرسى بجواره ، واجتمع الفياشيون مرة أخرى ، ودارت الأقداح ، وأجلس المطرب الأعمى الالهى ، فخر شيرا ، قريباً من العرش . وقدم إليه أوديسيوس جزءاً من شواء حمله أحد الندُل ، فأقبل عليه المطرب حتى اغتذى . ثم توجه إليه أوديسيوس بالحديث فقال : « كم أنت جدير بالثناء يادومودوكوس . بل أنت أولى به من أكثر الناس ! ليت شعرى هل ثقفت موسيقاك عن عرائس الفنون ، أم أنت قد حذقتها على أبوللو نفسه ؟ لقد أنشدت ما كان من جيش الآخيين كأنك كنت شاهد

عِيَان ، أو كأن شاهد عيان قد قصه عليك ! أنشد لَعَمْرُك ! تحدث عن الحصان الهولة الذى صنعه إبيوس بإرشاد مينرڤا ، والذى حمله أوديسيوس الجبار هو وصحبه إلى قلاع طروادة ، ثم اختبأ هو وهم فيه ، فكانوا أول خراب إليوم ! ! تَغَنَّ ! إنى سوف احمل اسمك فأنشره فى الآفاق أيها المطرب المعجز الذى لايباريه إلا عازف موسيقى السماء ، أبوللو ! تقدس اسمه » .

وتنزل أبوللو على لسان المنشد فراح يقص الوقائع الطروادية منذ حرق اليونانيون معسكرهم ، وبعد إقلاعهم من شُطئان إليوم ، وذاك الانقسام فى الرأى بين الطرواديين بسبب الحصان الهولة أيقصمون ظهره أم يدقون عنقه أم يحفظونه تذكاراً لهذا الحرب ونُصباً للآلهة ... على كل حال لقد نقلوا الحصان داخل أسوارهم ليكون القاضى عليهم بمن فيه من هذه النخبة أولى القوة من ابطال الإغريق ... وهكذا قدر عليهم فى الأزل أن يهدموا قريتهم بأيديهم ... تغنى الشاعر المُفْتَنُّ بكل هذا ، وأثنى أيما ثناء على أوديسيوس الذى كان يكر كأنه مارس ، ومنلوس الذى كان يفر كالصاعقة ، وعلى بقية الأبطال الصناديد الذين فازوا بالنصر فى ظل مِيْنرڤا ربة الحكمة وكان أوديسيوس ينصت إلى غناء المطرب وإنشاده ، ودموعه تنحدر غزيرة على خديه ، والآهات العميقة تشق صدره شقاً . . . كأنها آهات تلك الأم الرؤوم التى وقعت فوق جثمان زوجها الباسل تبكيه وتنعيه ، وقد سقط فى الحومة يدفع عن مدينته أعداءها ، وقد وقف من خلفها أبناؤها خُضراً يتامى كأفراخ القطا . . ثم يقْبل الأعداء فيخمدون أنفاس هذه الأم بضربة لازبة ، فتنظر مرة إلى زوجها القتيل ، ومرتين إلى أبنائها التعساء ! كذلك كان أوديسيوس ، وكذلك كان يخفى دموعه فى طرف ردائه فلا يراها أحد إلا ألكينوس الملك الجالس قريباً منه . وقال الملك متحدثا إلى رعاياه : « أيها الزعماء والأشياخ الفياشيون ، أولى للمنشد ثم أولى أن يفرغ من إنشاده ، فلقد تصدع قلب ضيفكم ووهنت روحه مما يسمع من القصص الحزين ! لقد أحببنا فيه أخا ، ووهبنا له محبتنا وودنا وصافى أخوتنا لا ليحزن أو يأسى . .والآن !

هل يسمح ضيفنا فيذكر لنا اسمه الذى يعرفه به آله ويدعونه به ؟ لقد كتّم هذا عنا ، فهل ولد أحد ولم يحمل اسماً ؟ من أنت أيها العزيز ، ومابلادك ؟ وإلى أين تحملك سفينتى ويبحر بك رجالى ؟ لقد منحنا نبتيون – رب البحار – الأمن فى ذلك اليم وذلل لنا غواشيه ، ولكنه ليس أشق عليه من أن تحمل سفننا أغراباً مثلك لا نعرفهم ، فنبحر بهم إلى بلادهم ! ! إنه يغضب علينا ، وقد يغرق سفننا تشفيا وانتقاما حينما تعود أدراجها إلى بلادنا ، فتهوى إلى الأعماق ثم يسحرها إلى جبل ناتىء فوق العباب ، قِبَلَ شيريا ! تكلم أيها السيد ! أصدقنا ! من أنت ؟ ومن أى البلاد قدمت ؟ وأين ضربت بطون الركائب ؟ وأى الأمصار شاهدت ؟ وماذا يفجر هذا الأسى فى أعماقك كلما سمعت عن جنود الآخيين ، وكلما ترددت فى أذنيك أغنيات طرواده ؟ إن الآلهة تحيك من حاضر المرء طيلسان الهموم لغده ؟ أقُتِل أبوك ثمة ؟ أم صُرِع أخوك تحت أسوارها ؟ أم قَضَى حموك فى ساحتها ؟ أم أوْدَى أصدقاء لك أحباء فى حلبتها ، كنت تعدهم كبعض أهلك أو أعز أهلك ؟ تكلم ! »

فى أرض المردة (السيكلوبس)

وشرع أوديسيوس يجيب عما تساءل عنه الملك فقال : « أيها الملك تعالى جدك ، لَشَدَّ ما يطرب ما تغنى هذا المنشد غناء الآلهة ! ولَقَلَّ ما تعدل الدنيا بأسرها هذا المجلس الشادى ذا الأضياف والآكال والأشربات ! على أننى مجيبك على ما بَدَهك من دموعى وهمومى ، وما لقيت وما سوف ألقى مما قسم لى من أشجان وأحزان ! إذن فاعرف اسم ضيفك الشريد الذى لا يجهل اسمه أحد... ضيفك اللائذ بكرمك ، المستذرى بحماك ، المتشبث بك ليصل فى ظلك إلى بلاده مهما تقاصت ومهما نأت ... أنا أيها الملك ... أوديسيوس ... أجل هو أنا أوديسيوس ذو الذكر ، المعروف فى السموات بالدهاء والمكر ، ... ابن ليرتيس رب إيثاكا ، وملك نريوس ذى الشعاف السامقة ، والجزائر الآهلة حول ساموس ودلخيوم وزاسنتوس ، أم الجزائر التى تصافح تباشير الصباح بكل روضة فيحاء خميلة لَفَّاء ، وجنات ذوات شجر وثمر . صِبْغاً لأبنائها الأوفياء ... هناك ... حيث احتجزتنى عروس الماء كليبسو فى كهفها ، وراودتنى لأكون بعلها ... وهناك ... حيث أغرتنى سيرس هى الأخرى ، سيرس صاحبة جزيرة إيايا ... التى حاولت أن تتخذ منى خليلا فأبيت ، ولم أقبل أن أضحى بأهلى ووطنى ، ولو أصبحت زوجا لإحدى الربات الخالدات ... ولكن لا ، هلم قبل كل شئ أقص عليك من أنباء رحلتى منذ بارحت إليوم ، ولأَدَعْ ما قبل ذلك فهو معلوم مشهور :

« أقلعت بنا الفلك إلى بلد السيكون (إزماروس[1]) ، فبدا لى أن أزيد فى ثروة رجالى ومافازوا به من أسلاب طروادة ، فأشرت عليهم بفتح المدينة واغتنام ما فيها من كنوز وأذخار ، وسرعان ما تم لنا ذلك ، فقتلنا

(١) على الشاطئ الشمالى لبحر إيجه .

العسكر وملكنا القرية ، ووزعت السَّبْي والأسلاب على جنودى ، ثم أشرت عليهم بالرحيل فَعَصَوْا أمرى ، وعَثَوْا فى المدينة مفسدين ، وعاقروا من الخمر ، وعقروا من الشاء ما أذهلهم عن أنفسهم ، وأتاح لأعدائهم لم الشعث ، ففجأونا بجيش عرمرم منهم من جيرانهم ، وناضلونا عن مدينتهم فأوقعوا بنا ، ولم يغننا أنا قاتلناهم حتى مطلع فجر اليوم التالى ، بل ظل فرسانهم الصناديد يكرون ويفرون ، حتى قذفوا بنا فى البحر ، فوقفنا فى سفائننا نناوشهم برماحنا ... وصمدنا لهم حتى توارت الشمس بالحجاب فانسحبنا نجر أذيال الهزيمة والخزى ، بعد إذ انتزع السيكون فخار النصر. وعدت إلى الجند .. فوا أسفاه ! ... لقد افتقدت ستة من رجال كل سفينة .. سقطوا فى المعركة الخاسرة !

وأجننا الليل ، فجلسنا نتذاكر أسماء القتلى ؛ وما كدنا نفعل حتى سخر علينا جوف رب السحاب الثقال – ريحاً صرصراً عاتية أثارت البر والبحر ، وعصفت بمراكبنا فأطاحت بقلاعها ومزقت شراعها ، ففزعنا إلى المجاذيف وأعملنا السواعد ، مستقتلين مستميتين . حتى نجونا بعد لأى إلى البر ، حيث تلبثنا ليلتين طويلتين فى أيْن [(١)] ، وشكاة وشقاء ، نصلح القلوع ونرتق الشراع . . . وفى صباح اليومُ الثالث تطامن البحر ونام هائجه ، فبادرنا إلى الفلك وأقلعنا باسم الآلهة مجراها ومرساها . وما كدنا نلمح شطئان ماليا ، حتى هبت زوبعة عنيفة تلاعبت بنا ، وحملتنا إلى جزيرة سيتيرا . . . وطفقنا بعدها نذرع العُباب تسعة أيام أخرى . حتى بلغنا بلاد (لوتوفاجى) ، هذا الشعب الغريب الذى يقتات بالفاكهة فحسب ، من دون ما تنبت الأرض وما يدب عليها . . . ورسونا ثمة ، وأهرِع الملاحون إلى البر فاستراحوا وسَمَروا ؛ ثم تخيرت اثنين من أوثق رجالى ، وجعلت عليهما ثالثاً رئيساً ووجهتهم إلى سكان هذه الأرض ليتعرفوا أحوالهم ، فاختلطوا بهم ، وقابلهم اللوتوفاجى بالبشر والترحاب ؛ ثم عرضوا عليهم من

(١) الأين الإعياء والتعب .

ثمر اللوتس العجيب ، الذى ينسى آكله ما سلف من حياته ، ويَنْبَتُّ ما بينه وبين وطنه من وشيجة فما يفكر فيه ، وإذا فكر فيه فما يؤثر أن يرتد إليه ، بل يصبح كل معناه أن يأكل ويأكل ويأكل من هذا اللوتس العجيب ، وأن يعيش أبد الدهر بين أولئك اللوتوفاجى السحراء !... وتنظرت عودة رجالى ، بيد أنهم لم يرجعوا ، فاضطررت أن أذهب بنفسى إلى حيث سحِروا ، فحملتهم قسراً إلى الشاطىء بين العويل والضجيج ، وقذفت كلا منهم فى قمرة مغلولا مكبلا مشدود الوثاق ، ثم أمرت الملاحين فأبحروا على عجل قبل أن يأكل بعضهم من اللوتس الملعون فيضلوا ضلالهم وينسوا أوطانهم ، ويظلوا فى هذه الأرض جاثمين .

« وما عتَمنا أن وصلنا إلى أرض المردة الجبابرة — السيكلوبس — الطغاة العتاة ، الذين لا يخضعون لشريعة ، ولا يأتمرون بقانون ، الذين تؤتِي أرضهُم أُكلهَا رغداً من غير كد ولا عناء . . . حبّاً وأبّاً [1] ، وحدائق غُلْباً وقضباً وعنبا ، تُسقى مما يفيض عليها جوف من مائه المعين . . . يعيشون فوضى ، لا تربطهم رابطة ، ولا يقوم بينهم نظام ، يأوون إلى كهوف موحشة ، وغيرانٍ سحيقة ، فى قُلل الجبال وأحيادها . . . يُعنى كل منهم بنفسه وزوجه وأولاده وقطعانه ، ولا يأبه للباقين ، وتلقاء أرضهم توجد جزيرة معشبة أريضة [2] شجراء فيها من الماعز السائم قطعان لا حصر لها ، ولكنها مع ذلك يهماء [3] مُضلة ، لم تطأها فيما غبر قدم إنسان ، ولم يُرَشْ إلى حيوانها سهم صائد ، لأن السيكلوبس لم يحاولوا أن يركبوا البحر مطلقاً ، ولم يعرفوا طوال حياتهم هذه الجوارى المنشئات فيه كالأعلام . لذلك سلمت الجزيرة بما فيها من خير ، وتكاثرت قطعانها حتى امتلأت بها مروجها الخضر السندسية . . . وثمة ، فى جوْن هادئ جميل ، ألقينا مراسينا ، ونزلنا من سفائننا ، فى ظلام الليل الدامس ، و فى حراسة

---

(١) الأب الكلأ والمرعى . وغلبا جمع غلباء أى متكاثفة وقضبا حدائق أشجارها طويلة مبسوطة .

(٢) أريضة أى زكية خصبة .

(٣) مضلة لايهتدى فيها .

الآلهة ، بعد إذ ارتطمنا بسيف البحر . . . ثم نمنا على الشاطئ حتى مطلع الفجر ؛ وأشرقت أورورا تنضر بالورد مشرق الأفق ، فنهضنا نجوب الجزيرة ، ونتفيأ ظلال الحور ، ونرى عرائس الماء ترعى الماعز ، فبادرنا إلى سفننا ، وأحضرنا الحراب والأقواس ، ثم تفرقنا ثلاث فرق ، وشرعنا نصيد من هذا الحيوان ، فاجتمع لنا منه الشئ الكثير ، ونال كل من رجال سفائننا الإثنتى عشرة تسع أعنز ، بعد أن تخيرت عشراً لنفسى ؛ ولبثنا يومنا هذا نغتذى بكل شواء حنيذ [١] ، ونكرع كل كأس روية ، فى غير تخمة ولا شجى [٢] . . . وللآلهة تلك الخمر السلاف السيكونية التى افترعناها من زِقاق أزماروس ! ثم نظرنا ناحية الغرب ، فما راعنا إلا دخان كثيف يَصَّاعد فى الأرض القريبة ، ورُغاء وضوضاء كالرعد تنتشر فى جنباتها ، و إذا هؤلاء السيكلوبس المَرَدة ينتشرون فى الأرجاء ، وأمامهم قطعانهم من الشاء والأنعام . . . أعداد لا حصر لها . . . عليها إذا عُدَّ الحصى يتخلف !

ونمنا ليلتنا مُرَوَّعِين ، حتى إذا بزعت أورورا نهضنا واحتشدنا فى صعيد واحد ، ثم قمت فى رجالى خطيباً فقلت : « أيها الإخوان ! لتبق غالبيتكم فى هذه الجزيرة ، فإنى ذاهب فى نفر منكم نرود هذه الأرض ، ونعرف من أنباء أهلها ، ونعلم من أحوالهم ، ونرى هل هم ، قوم ظلم وضيم ونضال أم هم ربِّيُّون [٣] يهشون للمكرمات ، ويخبتون للآلهة ؟ »

« وأقلعت فى نخبة من رجالى فوصلنا طرفاً من الجزيرة ناتئاً فى البحر ، فوقه قلاع مشرفة عليه ، فهبطنا فيه ، وذهبنا نروده ، حتى انتهينا إلى كهف عظيم ضارب فى الصخر ، وقد نما الغار الجميل عاليَ بابه الضخم . . ودخلنا . . . وأثار دهشنا هذه الحظيرة الكبيرة فى وسط الكهف ، تتسع لقطعان لا عدد لها من الأنعام والأغنام والماعز ، ثم هذا الفناء العظيم المحدق

---

(١) حنيذ أى يقطر دهنه من حسن نضجه .

(٢) الشجى هو الغصص بالشراب .   (٣) أناس .

بها يفصله عنها سور عتيد من الحجر الصلد ، مُتَرَّسٌ بجذوع الحور والسنديان ؛ ولقد عرفنا فيما بعد أن صاحب هذه المغارة مارد جبار من أراذل السيكلوبس ، لصق بهذا الطرف من الجزيرة يعسف ويظلم ويملؤه بغيا وعدواناً . . ثم هو إلى الجانّ والشياطين أقرب منه إلى أى خلق آخر ، فوجهه مربد عبوس أبداً ، وهو إلى ذلك هولة تحسبه إذ تراه قطعة من الصخر نحت منها ناطور [1] فوق ناصية الجبل . . . . وتوقلنا [2] وكان معى زق من خمر معتقة مما أعطانيه مارون بن إيفانت ، قَسٌّ فوبوس ، رب إزماروس ، لقاءما أبقينا عليه وعلى زوجه وأولاده يوم غزوتنا لقريته . . ياله من كاهن سمح طيب القلب ؟ ! لقد نفحنى بأكرم اللُّهى [3] وأجزل الهبات ، وهل أنسى ما حييت تلك البدَر السبع من الذهب الخالص ، وذلك الدّن من الفضة الغالية ، وتلك الجرار الإثنتى عشرة من الخندريس الصرف التى تُشرب باسم الآلهة ؟ لقد كان يفديها بنفسه وماله ، فلم يكن يعرف مخبأها أحد غيره وزوجه وأمينه . لقد كانت كأس روية واحدة من هذه المدامة تمزج بعشرين ضعف من الماء القراح ، وهى مع ذلك سَكر ولذة وروح علوى للشاربين ؛ ثم كان معنا رُكْز [4] به أكل كثير ، وكنا عدداً عديداً من الأبطال الصناديد ، ولكنا مع ذلك كانت تعترينا رعدة ، وكان يشبع فى قلوبنا فزع ، أن يفجأنا هنا الجنى صاحب المكان ، الذى لا يخشى فينا شريعة ، ولا يرده عن أذانا قانون . . . ثم توقلنا كذلك ، فأشرفنا على مغارة سحيقة هى مقام السيكلوب ومنامته من غير ريب ؛ بيد أننا لم نجده عندها ، فقلنا ربما انطلق بقطعانه يرعاها فى المروج القريبة ووردنا الطرف فى المغارة فرأينا مصافى كثيرة معلقة ينز الحصير [5] منها ههنا وههنا .فعرفنا أن السيكلوب يصنع الجبن من ألبان مواشيه ،

---

(١) الناطور تمثال لتخويف الطير

(٢) توقل . صعد فوق جبل

(٣) العطايا .

(٤) الركز (الخرج) بضم الراء مايحمل فيه الزاد

(٥) الماء يسقط من الجبن .

سيما وقد امتلأ المكان ببواط كثيرة مفعمة بالحصير والمخيض [1] وعلى مقربة منا شهدنا حظائر واسعة لصغار الشاء والحملان والماعز.

وقد قسمت فرقا بحسب سنها وقد بدأ لبعضنا أن نذهب بما هنالك من جبن وزبد، وأن نستاق الحملان والجذعان [2] إلى سفائننا، غير أنى – وأسفاه – تأبيت، لأننى آثرت لقاء السيكلوب، رجاء أن ينفحنى من كنوزه، ويسبغ علىّ من آلائه؛ ولذا، جلسنا ريثما يعود، وأكلنا من جبنه وزبده، وأشعلنا ناراً نستدفئ، ثم إذا هو يطوى المروج الخضر بقطعانه، وإذا على كاهله الرحب أثقال وأحمال من الحطب وفروع الشجر اليابس. حتى إذا كان لدى الباب ألقاها فى بطش فاهتزت الأرض ودوّى المكان، وانحبس وصيد الكهف، فانقذف الرعب فى أفئدتنا، فهرولنا مذعورين صَعقين، واختبأنا كالخفافيش فى زوايا المغارة وشقوقها . . . أما هو فقد أدخل قطعانه، واحتجز ذكرانها فى الفناء الخارجى، ثم أخذ فى حلب الإناث فى الرحبة الداخلية . . . ونهض بعد ذلك فسد مدخل الكهف بحجر واحد كبير لو وضع على عربتين عظيمتين لم يستطع عشرون ثوراً ضخماً أن تزحزحه من مكانه . . . وجلس يحلب النعاج والماعز، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى جذعانها ترضع ماتبقى فى ضرعها . . . وكان يقسم لبنه قسمين، فيحتفظ بأحدهما لشرابه، ويمخض الآخر لزبده وجبنه؛ ثم فرغ من هذا كله وأضرم ناراً عظيمة ما كادت تلتهب حتى رآنا معلقين فوق نؤى الكهف. فصاح بنا: «من هنا؟ ويْ! من أنتم أيها الغرباء، ومن أى البلاد نزحتم وفيم خضتم هذا العباب إلى هنا؟ آفاقيون؟ أم تجار؟ أم قرصان تعيشون فى بلاد الناس؟» وزلزلنا زلزالاً عظيما، وكان صوته الأجش الخشن يلقى الرعب فى قلوبنا فتعتلج اعتلاجاً . . . . ثم إنى جمعت ما تبقى من وعيى، وما أبقى عليه الروع والهلع من إدراكى، فقلت أجيبه: «نحن

---

(١) اللبن المخض

(٢) جمع جذعة صغار الخرفان والبقر . الخ .

إغريقيون أيها العزيز وقد ذرعنا البحر اللجى شرقا ومغربا ، وتقاذفتنا فوقه كل ريح ، منذ بارحنا اليوم التى فتحها الله علينا ، لأننا من عساكر أجا ممنون الملك ابن أتريوس الكريم ، قاهر طروادة ، ومبيد الطرواديين . . . وها نحن أولاء . قد لذنا بك بعد طول النصب . فنضرع إليك أن تفئ علينا مما أفاء حوف عليك . وأن تردنا غانمين . . . فيا مولانا أكرم مثوانا . فنحن الأغراب فى كنف جوف أبداً . وأينما نولّ فإنه معنا »

وتجهم السيكلوب الجنى وقال مغضبا مستهزئا : « حسبك أيها الأخ المغفل ما خوفت من جوف . فنحن السكلوبس لا نبالى جوف . حامل إيجيس[1] .ولا سكان السماء قاطبة . . . إنا أقوى منهم بكثير.وأنا نفسى.لن آبه لأيما نذير من جوف كبير الأولمب...ولكن حدثنى قبل كل شئ متى ألقت سفينتكم مراسيها فى أرضنا؟ وأين هى؟ أقريبة أم قاصية من هنا ؟ قل الحق ولا تخف عنى شيئاً » . . . وأجبته فى حيطة ورفق ، وقد عرفت ما رمى إليه : « لقد نسف نبتيون رب البحار مركبنا فى اليم نسفا وسلط عليها الزوابع فجرت بألواحها بعيداً . بعيداً من ههنا . . . ونجوت مع هذا النفر من رفاقى فقط إلى شاطئكم » . ولم ينبس السيكلوب الجبار بكلمة . . . بل أقبل نحونا ، وانقض على رجالى كالصاعقة ، ثم أمسك باثنين منهم ، وأرسلهما فى الهواء ، ثم ضرب بهما أرض الكهف ذات النؤى ، فتهشم رأساهما ، وانتثر المخ فوق الحجارة هنا . . . وهنا . . . وألقاهما بعد ذلك فى الجمر المتأجج حتى نضجا . . . واستوى كالسبع الرئبال ، وطفق ينهشهما . . . ولم يمض وقت طويل حتى أتى عليهما . غير مبق على عظمة واحدة ، أما نحن فيا لآلهة السماء ! . . لقد كان هذا المنظر الفاجع يعصف بنفوسنا ، ولم نملك إلا أن نرفع الأكف فنبتهل إلى جوف أن ينجينا . وأن يرحمنا ، ولم يكن لنا مع ذاك من أمل فى نجاة !

وبعد أن أشبع الجبار نهمته من اللحم الآدمى الغريض ، وبعد أن

---

(١) درع .

شرب من اللبن شرب الهيم [١] ، انطرح بين قطعانه ، وجعل يرسل فى الكهف شخيراً مزعجاً . . . وقد حدثتنى نفسى أن أنقض عليه فأخوض فى لَبَّته بحرازى [٢] ولكن فكرةً سوداء طافت برأسى حينما نظرت إلى باب الكهف فأبصرت الحجر الضخم الذى لايطيق أحد أن يزحزحه ، وتذكرت الموتة الجاهلية المفزعة التى ستموتها إن فعلت . . . فقنطت قنوطاً شديداً ، وأرسلت آهات الحسرة والندامة أنا وأصحابى ؛ وانتظرنا بقلوب فارغة تباشير الفجر، ورأينا أورورا الوردية ترسل أول أشعتها من الكُوى الصغيرة ، فهب السيكلوب إلى قطعانه ، وأخذ فى حلب إناثها ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى صغارها ترضع وتنخب ؛ ثم إنه قبض على اثنين من رجالى وفعل بهما كما فعل بصاحبينا أمس ، حتى إذا فرغ من إفطاره ، هب إلى الحجر فزحزحه فى سهولة ويسر ، كأنما كان يزحزح غطاء آنية . ثم استاق قطعانه ، وأعاد الحجر إلى مكانه ، ومضى يرعى بُهمه ، وبقينا نحن ندعو ثبورا . . . وفكرت ألف فكرة فى وسيلة أنتقم بها من هذا المارد الوحش ، وتوسلت بمينرڤا أن أستطيع . . . وانفرجت أساريرى فجأة ، وأشرق وجهى بنور الأمل . . . ذلك أننى أبصرت بجذع زيتون مشذب أعده الجنّى ليكون عصا يهش بها على قطعانه ، فقلت فى نفسى : « ولم لا يكون فى هذا الجذع خلاصنا ؟ » ، ثم إنى أمرت رجالى ببرى أحد طرفيه ، وكان الجذع طويلا جداً ، يصلح سارية لسفينة كبيرة يعمل فيها عشرون بحاراً . . . فأقبلوا عليه ينحتون ويبرون ، وأكببت أنا على نهاية الطرف أحدده . . . ثم انتهينا من عملنا وأخفينا الجذع تحت القش الكثير الملقى فى الكهف ، وجلسنا نتخير من بيننا أشجعنا وأكثرنا أيْدا وقوة ، وأشدنا استعداداً لحمله وغرزه من طرفه المحدد فى عين السيكلوب . . . وانتهينا من ذلك إلى أربعة ، وكنت أنا خامسهم . . . ثم عاد الجنى فى موعده فأدخل

---

(١) الإبل الطامئة

(٢) السيف القصير. واللبة قرب الرقبة

قطعانه وأرجع الحجر إلى مكانه وجلس يحلب الإناث ويقسم اللبن ويمخضه ، ويرسل كل جذع إلى أمه ؛ ثم نهض إلينا فبطش باثنين منا وتعشى بهما . وقبل أن يستلقى على الأرض ليستريح أفعمت كأساً كبيرة مما كان معنا من خمر مارون وتقدمت بها إليه وأنا أقول : « ألا أيهذا السكلوب ! هاك كأساً من الخمر إذا تحسيتها بعد أكلتك الهنية من اللحم البشرى عرفت أى خمر فقدنا فى سفينتنا المغرقة ! لقد كنت أحضرتها تكرمة لك إذا أنت أكرمت مثوانا وأطلقت سراحنا وساعدتنا على العودة إلى وطننا سالمين ! ولكن ! أواه ! إن سورتك طامية أيها القاسى الجبار ، وإن أحداً من البشر لن يجسر على أن يقترب من جزيرتكم بعد اليوم ! » وأخذ الكأس فعبها عباً ، وسر بها سروراً كبيراً ، ثم سأل أخرى فقال . « أيها الفتى ما اسمك ؟ أعطنى كأساً أخرى وإنى مثيبك عليها . إن لدينا خمراً صرفاً من أكرم ماتعصر العناقيد ، يسقيها جوف من شآبيبه . ولكنها أبداً لا تبلغ هذه الخمر البكر جودة » وأعطيته ثانية وثالثة وراح المجنون يشرب ويشرب ولما شهدت النشوة ترقص برأسه قلت له فى ظرف : « أيها السيكلوب لقد تساءلت عن اسمى ؛ ألا فاعلم أنه أوتيس[1] ؛ وبه أُسمى فى بلادى ! ولكنك وعدت أن تثيبنى على ما قدمت لك من خمر ؛ فماذا عساك مانحى ؟ » فاستهزأ السيكلوب وقال : اطمئن يا صاح ؟ سأهب لك أن تكون آخر من آكل من إخوانك . . . هذا هو جزاؤك ! وتثاءب ؛ ثم انطرح وسط قطعانه يغط فى نوم عميق . . وكان يُصَعِّد أنفاسه بقوة فتقذف من بلعومه شوائب من خمر ، ممتزجة بقضمات من لحم بشرى . . . . وقفزنا إلى جزع الزيتون فوضعنا طرفه المحدد المبرى فى الجمر المتأجج حتى تأجج مثله ، وبكلمات قليلة أثرت النخوة فى نفوس إخوانى حتى لا تخذلهم قواهم . ثم استعنت الآلهة فابتعثت فينا قواها السحرية ، واستجمعنا كل ما فينا من مُنّة اليأس . ووضعنا الطرف

---

(١) أوتيس Outis معناها (لا أحد) ولم يستحسن مترجمو هومر ترجمتها ، لأنها قد تعنى (ذو الأذنين الكبيرتين) ولم تؤثر ترجمتها كذلك .

المشتعل فى عين السيكلوب المقفلة ، وحركنا الجذع وطفقت أنا أقلبه فيها من مكان عَلٍ ، كما يفعل السفّان الصناع بمثقابه فى خشب السنديان . . . . وانبجس الدم من عين السيكلوب العمياء ، وجحظ إنسانها كأنه عين حمئة من دم وعلز[1] . . . وقصاراى : لقد كنت كالحداد الماهر الذى يطفئ سلاحا محمى فى ماء بارد ! ! ولقد صرخ السيكلوب صرخة ردد أصداءها الكهف . . . ثم رددتها الغيران والجبال المجاورة ؛ وذعرنا نحن ، فلصقنا بالشقوق والزوايا ؛ وراح الجنى الجبار يخبط فى ظلام العمى بعد إذ انتزع الجذع المشتعل من عينه ، وهرول كالجبل نحو الباب فوقف عنده ، وطفق يولول ويهتف ويصيح ، ويدعو جميع إخوانه السيكلوبس كلاً باسمه ، فاجتمعوا إليه من كل فج عميق . . . وقال قائلهم : « ماذا دهاك يابوليفيم حتى تروعنا هكذا فى ظلام الليل وحتى تقض مضاجعنا بصراخك الفظيع ؟ هل خِفْتَ أن يستاق أحد قطعانك ، أم خشيت أن يقتلك أحد بقوة أو غدر ؟ » وقال پوليفيم وهو يتصدع : آه يا أصدقائى ! إنى أموت ! ولقد قتلنى أوتيس ! » فقال قائلهم : « إن كان أوتيس – الذى هو لا أحد – قد ألحق بك أذى فما صنع بك هذا إلا جوف ؟ تجلد ياصاح ، وادع أبانا نبتيون ليساعدك ، يأتك من أعماق اليم » ثم تركوه وانصرفوا لشأنهم ، وضحكت أنا فى سريرتى لأنى استطعت أن أعمى عليهم بهذا الاسم الملفق المفترى : ومابرح پوليفيم يبكى ويُعْوِل ويهزه الألم والأسى ، حتى زحزح الحجر الذى يسد الباب ، وجلس عنده ، ماداً ذراعيه ليمنع أحداً منا أن يفلت أو أن يذهب ببعض أنعامه . . . إنه يحسبنا بُلْهاً مثله ! ! . وجلسنا نعمل الفكرة بعد الفكرة ، ونرسم الخطط تلو الخطط لنجاتنا . . . حتى تاحت لى فكرة حسنة ، أيقنت أنها تفلتنا من هذا السجن السحيق إن كان شئ مستطيعاً أن يطلق سراحنا منه ، لقد فكرت وفكرت ، فبدا لى أن لدى السيكلوب

---

(١) العلز الدم المتجمد

كباشاً كنازاً (١) تستطيع أن تحملنا إذا رُبط كل منا تحت بطن واحد منها . لقد كانت الكباش سمينة حقاً ، ذات فراء كثة وقوة كبيرة . فقمت من فورى فجدلت من أغصان الصفصاف التي كان السيكلوب الشنيع ينام فوقها ، وجعلت من كل ثلاثة حبلا واحداً ، ثم ربطت كل رجل تحت بطن كبش كبير قوى جعلته بين كبشين لا يحملان أحداً ، بل يكونان وقاية للكبش الذى يحمل رجلا بينهما . . . أما أنا فتعلقت بصوف الكبش الأخير وبقيت ساكنا صامتاً ، ومكثنا هكذا ننتظر الفجر المقدس الرهيب ، بعيون واكفة (٢) وقلوب واجفة (٣) . حتى بزغت أورورا فهرولت الذكران كعادتها للمرعى ، وبقيت الإناث لكى تحلب ، وتهادت الكباش بالأثقال المعلقة تحتها وهى تكاد تنوء بها ، وكان السيكلوب لا يزال يُعْوِل ويشكو بثه إلى غير سميع . وكان يلمس بيديه ظهور الكباش وهو لا يدرى ما تحتها ، حتى إذا برز كبشى . زلزلت زلزالا ، وسمعته يقول له وهو يتحسه : « يا كبشى الحبيب مالك أستأنيت هكذا وكنت دائما سباقاً إلى المرعى على رأس القطيع تقضم الكلأ الحلو . . . سباقاً إلى الغدير ذى الخرير تنهل من مائه السلسبيل ؟ بل كنت سباقاً كذلك إلى مأواك هنا . . . فى كل مساء ؛ ويحك ويحك يا كبشى الحبيب ! لقد أسيت لى وحزنت من أجلى . وشعرت بما دهى صاحبك من التعس الرجيم أوتيس ، وأتباعه اللؤماء المفلوكين...أوتيس الذى سحرنى بخمره...ويل له ؟ إنه لن يفلت من الموت اليوم ! آه لو كان قلبك مثل قلبى ، وآه لو كان لى بصرك الحديد فيدلنى أين اختبأ أوتيس التَّعس ! إذن كنت أحطم رأسه فوق هذا الصخر . أوتيس الوغد . . . الذى اسمه لا أحد ! ! فهو لا يساوى شيئاً ؟ » .

ثم أفلته المغفل فانطلق الكبش فى إثر رفاقه ، حتى إذا كنا بعيدين من الكهف ومن صاحبه قفزت من مكمنى ، وعدوت فأطلقت سراح رفاقى ،

(١) سمانا كبارا .
(٢) دامعة .
(٣) خائفة .

وسقنا نخبة من أحسن النعاج إلى حيث سفينتنا المختبئة فى الجون الهادئ ... فى ظلال الحور والسنديان ... ثم أبحرنا من فورنا فوصلنا إلى إخواننا فى الجزيرة الأخرى ، الذين هنأونا بقدر ما ذرفوا الدموع على ضحايا بوليفيم ! ! واعتزمنا الإبحار فاستعد كل فى سفينته ، وأقلعنا لا نلوى على شئ . حتى إذا كنا على مبلغ الصوت من الشاطئ ، نهضت وجعلت أهتف بالسكلوب بوليفيم هكذا : « بوليفيم ! لقد بؤت بما صنعت يداك ، وكان جزاؤك وفاقاً ، أيها النذل الخسيس ! لقد حسبت أنك تغتال رجال قائد لا سلطان له عليك ، ولاقدرة له على الانتقام منك ، فرحت تغتذى كالوحش بلحم ضيوفك الذين لجأوا إليك وتفيأوا ظلالك .. فاهنأ الآن أيها الهولة بما حلَّ بك ! » وما كدت أصمت حتى ثار ثائره وغلت مراجله ، وانتزع صخراً كبيراً من شعاف الجبل ، وقذف به فى قوة وعنفوان ناحية الصوت ، فهوى الصخر على مقربة منا ، وكاد يهشم سكان السفينة ، وقد انفرج البحر ، وانشطرت أمواجه ، وارتدت السفينة نحو الشاطئ حتى لكادت أن تغوص فى رماله وتتحطم على أواذيِّه [1] ، لولا أن أمسكت بالسارية الكبرى وجعلت أدفع وأدفع حتى عادت السفينة إلى مكانها فى البحر ... وابتعدنا قليلا ... وجاهد رجالى بمجاديفهم حتى كنا على مسافة هى ضعف المسافة الأولى ... وهنا ، حاولت أن أصيح بالسيكلوب مرة أخرى ، غير أن إخوانى حالوا بنى وبين ذلك ، وسمعت بعضهم يقول : « ويك أوديسيوس ! لم تهيج الجنى بكلماتك ، وقد كاد الحجر الذى قذفه إلينا يودى بنا جميعاً ويحطم سفينتنا على الشاطئ ؟ أما نحمد الآلهة التى أنقذتنا من ساعديه الجبارتين ، وهو لو سمع ركزاً من أحدنا لهشمنا جميعاً قبل أن نغادر غاره ؟ » على أننى ما أصخت لهم ، بل هتفت بالمارد الجبار أقول : « أيها السيكلوب الطاغى ! إذا سألك أحد عن عماك فقل له أعمانى أوديسيوس ابن ليرتيس الإيتاكى ! » وتأوه المارد حتى كاد يتصدع وقال :

---

(١) جمع آذى : الموج

« ويلى منك ! لقد صدقت النبوءة ؟ وتحقق ما قال تلموس يوريميد النبى الذى شب بيننا وطالما تحدث إلينا معشر السيكلوبس عما خبأ القضاء فى صحف الغيب لنا ؛ لقد قال لى إنى سأفقد بصرى على يد رجل من البشر يدعى أوديسيوس ، فظللت أنتظره ، وكنت أحسبه مخلوقا طويلا عظيم الجسم بادى القوة ... فإذا هو أنت أيها القزم – اللاشئ ! – الذى قهرتنى أولا بالخمر ثم أذهبت بصرى وأطفأت النور من عينى ! أوه ... ولكن ... عد إلى ياأوديسيوس وحل على ضيفاً من جديد ، أكرم مثواك ... وأصَلِّ من أجلك لأبى ... نبتيون ... الفخوربى ، أن يمهد لك البحر ، ويطامن من تحتك الموج حتى تصل إلى بلادك سالما ... إنه وحده هو اللطيف بى ، وليست قوة فى الوجود غيره تستطيع أن تشفينى وترد على بصرى ! » فقلت له : « بنفسى لو استطعت فقذفت بك من حالق إلى قرار جهنم فلا يقدر أحد على رد بصرك إليك — حتى ولا أبوك هذا ! » وغيظ السيكلوب وحَنِق ، ورفع كفيه إلى السماء يصلى لأبيه هكذا : « أبتاه نبتيون المحيط بالأرض ، اسمع دعائى ، ياصاحب الشَّعر اللازوردى ، اذا كنت حقاً أبى ، وإذا كنت حقاً تفخر ببنوتى فاحرم هذا القزم المدعو أوديسيوس بن ليرتيس الإيثاكى من العود إلى بلاده ، إلا أن يكون هذا قضاء فى الأزل فأقم العقاب فى طريقه ، وشرد به طويلا فى البحر ، وأغرق سفائنه ، واقبر فى الأعماق أصحابه ، وأحوجه إلى ذل السؤال وطلب المعونة من الناس ليمدوه بمركب يعود عليه ؛ وإذا عاد فليلق الهم والغم مقيمين ببابه ... آمين ! » ولبى نبتيون ، ورفع السيكلوب حجراً أضخم من الأول ، وجعل يهوم به بكلتا يديه ، ثم قذفه قذفة هائلة ، فذهب يُرَنِّق فوقنا ، وسقط وراءنا بمقربة من السكان ، فانشطر البحر فِرقين كل فرق كالطود العظيم ، ثم انحسر الماء فجرت السفينة إلى الشاطئ مرة أخرى ، ولكنها هذه المرة أرست على الشاطئ الآخر الذى أرست عنده سفائننا الأخرى ، حيث أقام إخواننا يشهدون المعركة الهائلة ويجزعون ... ثم إننا نزلنا إلى البر ، وفرقنا الأنصبات من النعاج السيكلوب بيننا . وكان من نصيبى ذلك الكبش المفدى الذى

نجانى ، فذبحته على رمال الشاطئ قرباناً لجوف المتعالى ... واأسفاه ! إن أكبر ظنى أنه لم يقبل قربانى ، لأن أكثر سفائننا أغرقت فيما بعد ... وأكلنا هنيئاً ، وشربنا مريئاً ، وانتظرنا مد البحر ، ولكنه استأنى علينا ، فنمنا حتى نضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، ونهضنا ... ونشرنا الشراع وأصلحنا القلاع ، وأبحرنا ، بقلوب واجفة ، ونفوس نال منها الهلع ، لائذين بالفرار .

أوديسيوس يروى قصته

(ا) إيولوس وجعبة الرياح الأربع
(ب) فى جزيرة الجبابرة
(جـ) غرام سيرس

« وبلغنا جزيرة الأيوليين حيث يحكم الملك إيولوس بن هبوتاس ، حبيب الآلهة . وهى جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسى الهائل ، وشطئانها التى يتكسر فوقها الموج . ولقد زوج الملك أبناءه الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم فى قصره المنيف ، فى فىء وارف من حب الملكة ، وفى بُلَهْنية [1] ورغد ، وعيش واسع مخفرج [2] ، ونعمى طائلة ، ولذائذ شتى ... يقضون وقتهم فى لهو برئ ومرح ، ويأوون إذا أجنهم الليل إلى سرر موضونة [3] وزرابى [4] مبثوثة ... وأرائك من حرير .

ولقد لقينا الملك بالبشر والإيناس وأقمنا فى كنفه شهراً كاملاً ، ناعمين طاعمين ، ثم سألنى فقصصت عليه قصة (إليوم) وكيف سقطت فى أيدينا . وما كان من إبحار أسطول الآخيين بعد ذلك ، وما تم من رحلتنا فى ذلك العباب ضاربين على غير هدى ... ثم إنى ضرعت إليه أن يعيدنى فى خفارته إلى بلادى ، فأجاب سُؤلى ، وأمدنى بكل ماييسر رحلتى ، ثم تفضل فمشى معى إلى البحر ، حيث قدم إلىّ جعبة مصنوعة من جلد عجل كبير جسد [5] ، خيل إلىّ أنه ذبح فى سن التاسعة ، وهى جعبة من صنع جوف سيِّد الأولمب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياج العالم أجمع ، وأحكم رباطها بسلك فضى متين ، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا بإذن ...

(١) حياة ناعمة سعيدة .
(٢) واسع
(٣) مسوحة ومرصعة بالجواهر .
(٤) وسائد وطنافس حريرية
(٥) قوى لايعى ولا يتعب .

وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس – رب النسيم الحلو – فملأ شراعنا ، وهبَّ بين أيدينا ... واأسفاه ! لقد كانت هباته اللطيفة الرخية عبثاً ، وضاعت فى غفلة من رجالى سدى ! فلقد جرت بنا الفلك آمنة مطمئنة طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا شطئان إيثاكا فخفقت قلوبنا فرحا ، واستطعت أنا نفسى أن ألمحَ مُواطنى الأعزاء يوقدون النار فى شعاف [1] الجبال ... بَيد أنى كنت منهوكا موهوناً من كثرة العمل ووعثاء السفر ، وطول السهر والمراقبة ، فداعبت عينى سنة من الكرى ، لأنى كنت أسهر على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ، ولم أكن آمن أحداً من رجالى على الاضطلاع بها خشية الوَنَى [2] ، ومخافة التأخير ... وبينما كنت نائماً ، لعب الوسواس فى صدور رجالى ، زاعمين أنى أحمل أذخاراً من الذهب والفضة أسبغها علىَّ إيولوس الملك ... قال قائلهم : « ياللآلهة ! أبداً ماوطئت قدما أوديسيوس بلاد قوم حتى تهالكوا عليه فرحين معجبين مكبرين ! وهو اليوم يعودمن طروادة ومعه من طُرَفها وسَلَبها الجم الكثير ... أما نحن فوااسفاه علينا ! لقد شاركناه تلك الرحلة المشئومة ، وهانحن نرضى من الغنيمة بالإياب ، ونعود منها صفر الأيدى ، لا أمامنا ولا وراءنا ! وها هو أيضاً قد فاز دوننا برفد ملك الرياح ، إيولوس العظيم ، هلموا يارفاق ! البدار إلى هذه الجعبة ننظر ما احتوت من أصفر وأبيض ، وأعطيات وهبات ... ولُهَى [3] ! » ، وأقبل بعضهم على بعض ، وامتدت أيديهم إلى الجعبة فحلوا رباطها ... واحسرتاه ! لقد انطلقت الرياح الحبيسة ، وزمجرت العواصف الهوج فى كل صوب ، وطفقت تكسحنا فى شدة وعنف ... بعيداً ... من إيثاكا ! ولقد قفزت من غفوتى خائفاً مذعوراً ... حتى خيل لى أن طوفانًا قد غمرنا ! ... وظللت برهة فى ذهول ودَهَش ، وطغت الأحزان على قلبى ، ورانت

(١) رؤوس الجبال .

(٢) الفتور والبطء .

(٣) هدايا .

الهموم على نفسى ، وفتَّ اليأس فى عضدى ... ولكننى لم أجد من الصبر بداً ؛ فتحملت الكارثة فى هدوء وصمت ، وعصبت رأسى بثوب شِفّ ، وانبطحت فى قمرتى ... وراحت العواصف تدفع الأسطول فى غير هوادة ، حتى بلغ شطئان الأيوليين مرة أخرى ... وهناك بكى صحبى ... ولات حين بكاء ! وهبطنا الشاطئ ، وكان همنا أن نرتشف من ماء إيوليا العذب رشفات ، ثم جلسنا نعد أكلة عجلى ونلتهمها ؛ وتوجهت أنا وصديق إلى قصر الملك ثانية ... وقد كان يجلس لوليمة كبيرة هو والملكة الحسناء المصون ، وأبناؤه الغر الميامين ... ولشد ما بدهه أن يرانا بعد طول النأى ، فحدجنا وقال : « ويلك أوديسيوس فيم عدت أدراجك ! وأى سلطان مشئوم لوى عنانك بعد إذ أرسلناك مزوداً بخير زاد لتصل إلى بلادك ، وتلقى آلك ؟! » ، وكان فؤادى ينخلع حين قلت أجيبه : تبارك الملك ! لقد خاننى رجالى اللؤماء ، وخاننى معهم طائف من الكرى ! فإذا شاء الملك فليجبر ما انصدع منا ، وهو لا يزال صاحب الحول والطوْل ! » .. وهكذا شاءت المقادير أن أقف ضارعًا إلى هذا الملك مرة أخرى . . . وقد تلبث أبناؤه صامتين لايَنبِسون ... واكفهر وجه الملك وقال : « أيها الرجل انطلق ... أُغرب عن جزيرتنا هذه ياأتعس الناس ! انطلق فوالله إنى لأستغفر الآلهة أن أكرمت مثوى رجل مثلك عدو نفسه ، ممقوت من الأرباب ، مغضوب عليه من السماء ! » وهكذا طردنى الملك شرطردة ، فمضيت على وجهى ، ولقيت أصحابى ، وأبحرنا نذرع اليم المصطخب بمجاذيفنا ، ونسكب فى هذه الأعماق المضطربة قوانا ، لا أمل لنا فى الوصول إلى بلادنا ، ولا رجاء فى الخلاص من هذه البؤوس ! ووصلنا مدينة ليستريجونيا بعد نَصَب ستة أيام بلياليها ... تلك المدينة الموحشة التى بناها منالاموس العظيم ... والتى تغزو الحشرات مروجها نهاراً ، فيخرج الرعاة بقطعان الغنم ذات الفراء الكثة التى تحمى الحيوانات من ذبابة الماشية وتدفع عنها غائلتها ، فإذا جَنَّ الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرها ، وذهبوا بالنَّعم لترعى فى هدأة الليل ، ولتكون بمأمن من غوائل الذباب الذى يكون

قد غلبه النعاس ... وصلنا إلى هذه المدينة فألفيناها محصنة بسور عظيم من الحجر الصلد ، ينحدر قليلا قليلا قليلا إلى الميناء . بمضيق صغير لا تعلو فيه موجة ، ولا يتحرك فيه الماء ... وقد أدخل رجالى سفائنهم فى هذا البوغاز ، وآثرت أنا أن أظل بسفينتى عند فمه مما يلى البحر ، فالقيت مرساى ، وثبتها فى حجر كبير ، ثم وثبت إلى الشاطئ ، وتسنمت ربوة عالية ، وأخذت أجيل نظرى فى الجزيرة ... ولم أقف لإنس أو حيوان على أثر ، وبدت الأرض جرداء بلقعا ؛ بيد أن دخاناً كثيفاً كان يَصَّاعد من وسطها ؛ فرأيت أن أبعث باثنين من رجالى جعلت عليهم ثالثاً رئيسياً ، ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة ، وليتحسسوا أخبار أهلها ... وقد قص هؤلاء آثار العربات التى يستعملها السكان فى نقل الأخشاب من الغابة إلى مدينتهم ؛ ولقوا عند مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ، فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك آنتيباتاس ملك هذه البلدة ... ومشت بين أيديهم حتى كانوا فى قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة ، فلم يجسروا أن يمدوا إليها أبصارهم مما غشيهم من الفزع ، وكانت هذه هى الملكة التى صاحت عند مالمحت رجالى ، بزوجها ، فأقبل يهتز وتزلزل الأرض من تحته وما كاد يلمح هؤلاء الغرباء حتى أمسك بواحد منهم وخبط به الأرض فحطمه ... كأنما أقبل ليخوض معمعة ... ؛ وانطلق الآخران لايلويان على شئ ؛ حتى بلغا سفائننا ... ثم زجر الملك بصوت قاصف كالرعد يدعو إليه رعاياه ، فأقبلوا إليه من كل حَدبَ ، مردةَ جبارين كالأغوال ، لاعدد لهم ، ولا تقع العين على أبشع منهم ... ثم تهاوَوْا إلى الشاطئ حيث أرست سفننا ، فجعلوا يقذفونها بحجارة من سجيل ، جعلت رجالنا كعصف مأكول ، وجعلت مراكبنا حطاماً كان يهوى إلى الأعماق ؛ بينما هؤلاء الجبابرة ينشلون قتلانا بحرابهم ليعودوا بهم إلى بيوتهم فرائس سائغة يملأون بها بطونهم ... وهكذا استمرت هذه المذبحة الدامية ... وكنت واقفاً فى مركبى ، وجرازى إلى جانبى ، فاسرعت إلى حبال المرساة فقطعتها به ، وبادر رجالى إلى مجاذيفهم

فأعملوا فيها بأيديهم ... وبذلك نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التي كانت تتطاير فوق رؤوسنا وتتهاوى عن شمائلنا وعن أيماننا ، فتشيع فى فرائصنا خطر الموت ... وظللنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ، ومع ذلك ، فقد كانت قلوبنا تعتلج هماً وأسى على إخواننا ... ثم رسونا آخر الأمر عند جزيرة إيايا ، حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات الشعر الكهرماني ، أخت إيتيس الحكيم من أبيها الشمس ، وأمها پرس ابنة أوشيانوس . وكأنما مشت عناية السماء بين أيدينا فرسونا فى جو هادئ ساكن فى غير جلبة ولا ضجيج ، ثم هبطنا إلى الساحل فلبثنا فيه يومين كاملين نستجم ونستروح مما بنا من أين [(١)] وجهد ، وكلنا فرائس لما فى أضالعنا من شجوٍ وهم وشجن ، ثم إنى تسلحت برمحى وسيفى وحثثت خطاى فى أسناد الجبل حتى كنت فى ذراه الشاهقة ، ووقف ثمة أنظر وأتحسس ، فلمحت فى البعد دخاناً يصاعد بين الدوح والزهر من قصر سيرس وبدا لى أن أتوجه إليه من فورى عسى أن أجد عنده خيراً ، ولقد ترددت بعد ذلك كثيراً وكدت أعود أدراجى إلى السفينة لأرسل نفراً من رجالى يكشفون لى الطريق إلى القصر ، وما كدت أخطو خطوات حتى ساق إلىّ أحد الآلهة ظبياً غريراً شرد من المرج المعشب الحلو ليستقى مما ألح به من ظمأ فارسلت إليه رمحى فقصم ظهره ، وسقط يتخبط فى دمه ، وقطعت شيئاً من عساليج الصفصاف وجدلت منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أرجله واحتملته على ظهرى . ومضيت قُدمُا إلى رفاقى متوكئاً فى كل خطوة على رمحى إذ لم تعد شيخوختى تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير ! وهتفت برجالى فى مرح وظرف أن : «هلموا يارفاق فلن نقضى قبل أن تحين آجالنا ! هلموا إلى ظبى فنيق [(٢)] وشراب عتيق ، واطرحوا ما بكم من هم وضيق ...» وأقبلوا فرحين وشمروا عن سواعدهم وهم يتعجبون من هذا القنص الغريض ، وظللنا يومنا هذا نطعم ونشرب ، حتى إذا أرخى الليل

---

(١) تعب

(٢) كريم تربى فى عز وأمن

سدوله انكفأنا على الشاطئ نغُط فى سُبات هادئ ... وذرت أورورا ابنة الفجر الوردية فهتفت برجالى فهبوا . ثم جلسنا ساعة نتشاور . وأنا أقول لهم : أيها الرفاق ! ياإخوان الشدائد ! هانحن أولاء قد لصقنا بهذه الأرض ولسناندرى أيان نذهب ؟ هل نُشرِّق . أو نُغرب . أو نظل هنا أبد الدهر ؟! ولكن هلموا ننظر لأنفسنا مخلصاً مما نحن فيه ... فإنى حينما تسنمت ذروة هذا الجبل أجلت الطرف فى أرجاء هذه الأرض فعرفت أنها جزيرة تترامى إلى مدى البصر ؛ ثم إنى آنست دخاناً يعلو فى الجو من وسطها . ينبثق من سَرَوَات طوال فيها ، فَرَوْا لأنفسكم أثابكم الله » — وكأنما اسقِط فى أيديهم ، وكأنما حاقت بهم ذكريات آنتيباناس وقومه اللستريجون . وما لقوا من هول السَّكالب أكلة اللحم البشرى ، فبكوا ساعة من الزمان . ثم استرجعوا حيث لايجدى البكاء ... ثم قسمتهم فريقين . جعلت على أحدهما يوريلاخوس ، قِرْن الآلهة ، وجعلت نفسى على الفريق الآخر . وجلسنا نقترع على من يذهب لارتياد الجزيرة فوضعنا الرقاع فى خوذتى ، ثم كانت القرعة على يوريلاخوس . فمضى ، وتحت إمرته اثنان وعشرون من رفاقنا . كانوا جميعاً يذرفون الدمع خوفاً وفزعاً مما وجهوا إليه ، وكنا نحن نبادلهم دمعاً بدمع وبكاء ببكاء ... ووجدوا قصر سيرس فى بطيحة[1] منخفضة . فماذا رأوا ؟! قصر مُنيف مُمَرَّد تحدق به تماثيل حية من سباع وذؤبان سحرتها سيرس بعقاقيرها ذات القوى الخارقة الخفية ... ولم تؤذهم تلك الوحوش . بل كانت تثب على أرجلها الخلفية فى دل وتلطف ، ثم تبصبص بأذنابها كأنها كلاب السادة العظماء حينما تتملقهم فى وليمة من أجل لقيمات ... وتسمعوا . فإذا سيرس تتغنى بصوتها المعجب المطرب وهى تعمل على نولها ، مشغولة بنسيج سابرى عبقرى عجيب . ليس يقدرعلى مثله إلا الآلهة . وكان فى رجال الفريق أمير عظيم هو عندى أربطهم جأشاً فقال : « أتسمعون أيها الأصدقاء إلى هذا الغناء الحلو ترِدده جنبات القصر ؟ إنه لاشك غناء ربة الدار التى تعمل على نولها .

(١) الأرض المتسعة

ولست أدرى أربة خالدة هى ، أم من بنات حواء ... وعلى كل هلموا نهتف بها » . وتنادوا ، وأقبلت سيرس فهشت لهم وبشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا ... فدخلوا ، واأسفاه ، إلا يوريلاخوس فقد خشى أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . ثم قادتهم إلى بهو كبير صفت.فيه عروش فخمة من ذهب ، ماكادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساقى بخمر وعسل ثم جئ بجبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعى آكليها ، وتنسيهم ماسلف من أمورهم ، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم ، ثم ضربت كلا بعصاهـا السحرية بعد إذا أكـــلوا ورووْا ، واســتـــاقتهـــم إلى حــظـــائـرهـــا حــيث مسخوا فكانوا خنازير ، وإن أبقى السحر على ألبابهم . أما طعامهم بعد هذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والكريز [١] الكلابى . وما إلى هذا وذاك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة .

وأقبل يوريلوخوس ينتفض من الذعر ، وينعقد لسانه فما يكاد يبين . ثم هدأ روعه قليلا فطفق يصعقنا بأنباء ما رأى : « أوديسيوس ياذا المجد ! لقد ذهبنا نتحسس كما أمرتنا ، ونرود هذا الوادى الأشب [٢] فوجدنا قصراً مشيداً فوق أكمة عالية ، وسط بطيحة منخفضة ، ذا قبة سامقة جلست تحتها امراة أوربة – لا أدرى – ولا تفتأ تعمل على منسج بخفة صنعة . وترسل ألحاناً حنوناً حلوة ، وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت فلقيتهم بالبشر وفتحت بابها على مصراعيه فدخلوا جميعا – حاشاى – فقد أوجست خيفة ، ووقر فى قلبى أن ثمة شركاً نوشك أن نتردى فيه ؛ وقد راقبت رفاقى إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة . ثم هالنى ألا أراهم فجأة ! » وماكاد ينتهى حتى قفزت إلى سيفى فتسلحت به وأخذت قوسى وسهامى ، وأمرته أن ينطلق بين يدى إلى حيث ذهبوا من قبل ، ولكنه ركع أمامى وتعلق بساقى وجعل يرجو ويلحف فى الرجاء ألا أذهب . . .« فإنك لن

---

(١) الكريز: وجمعه الكراز بالضم الأقط ، والمراد هنا فاكهة الكرير.

(٢) النضر

ـ تفشل فى إعادة رفاقنا فقط ، بل قد تفشل فى أن تنجو بنفسك . فانطلق بمن بقى منا ، وياحبذا لو استطعنا الفرار ! » ولكنى أجبته أن له أن يبقى هو فيأكل ويشرب فى السفينة ، ويكون بنجوة مما فزع منه أما أنا ، فلم أر ضرورة لبقائى .

وانطلقت لا ألوى على شئ ، ولكنى قبل أن أبلغ البطيحة التى بها القصر ، لقينى هرمز الحبيب إله العصا السحرية . وكانت مخايل الصبا وبَدَوات الشباب تتدفق فى بردتيه ، وحمرة الورد تلتهب فى خديه ؛ لقينى فصافحنى متلطفا وقال : « أيها التعس أبان تضطرب وحدك فى هذه الأرض . وقد حبست سيرس من أرسلت من رجالك فى حظائرها بعد إذ سحرتهم إلى خنازير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك معهم إلى الأبد ؟ ولكن اصغ إلى : إنى سأحبط ما فعلت ، وسأحميك وأحفظك . خذ هذا العقار [1] ولا يهمك بعد أن تدخل قصر سيرس فأنه ينقذك من كل خطر . . . وهلم أعلمك ما عندها من السحر . إنها ستمزج لك كأساً من الشراب بما عندها من رجس ، وستضع لك منه فى طعام تقدمه لك فكل وارو ولا تبال ، فهذه البقلة العجيبة التى أعطيك ستحبط كل ما تحيك لك فلا تقدر على مسخك كمن مسخت من رفاقك . . فإذا عالجتك بعصاها السحرية فاهجم عليها بسيفك غير هياب ، وأرسل إليها شرر الغضب من عينيك فإنها حينذاك تتقادلك ، وتقودك إلى غرفتها ، وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى ، فإياك أن تنصاع لها . واطلب إليها أن تبطل ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا تمسك بأذى . واحذر يا صاح أن تدلس فصل خيرك بما ركب فى طبعها من شر . » وانحنى رسول الآلهة فالتقط عشبة من الأرض ثم وضعها فى يدى وأخذ يكشف لى أسرارها ويقص علىّ قواها الخارقه وذكر لى أن اسمها (مولى) ، وبه يدعونها فى السماء . وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف

---

(١) واحد العقاقير دو .

يشفون بها رقى السحر . . . وكانت جذورها سوداً حالكة السواد . أما زهرتها فكانت بيضاء ناصعة البياض كاللبن . . . وودعنى هرمز ثم رف ورف . وعرج فى السماء وانطلقت أنا أخبط فى ظلمات من هواجسى حتى كنت لدى باب ربة السحر التى وجدتها تعمل كما ذكر لى صاحبى على نولها . . . وصحت صيحة عالية . فأقبلت تتهادى نحوى وفتحت مصاريع أبوابها . ودعتنى . فدلفت وراءها . حتى كنا عند عرش عظيم ممرد فضى . ذى درج . فاستويت عليه . وذهبت هى فمزجت لى كأساً من الخمر بشئ من عقارها ، وقدمته لى فاحتسيته . بيد أننى لم أتغير ولم أتحول عن صورتى . فضربتنى بعصاها السحرية وهى تقول : « هلم إلى الحظيرة حيث تقر مع رفقائك » ولم تكد تصمت حتى وثبت من مقعدى وامتشقت سيفى . وهجمت عليها ، وفى عينى جحيمان من نار الغضب ؛ فرُوِّعت ربة السحر ، وزُلزلت زلزالا عظيما ، وجرت نحوى ، وركعت عند قدمى ، وتعلقت بساقى . وأخذت تضرع إلى وتقول فى بيان رائع وكلمات باكية : « عمرك الله من أنت ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يامن لم تسحرك جرعتى الهائلة التى لم يدقها أحد وظل فى صورته لحظة واحدة ! ولكنك تحمل قلباً لا تجوز عليه نفثات السحر . . . هلم . . . تعالَ . . . إلىّ إلىّ أعرفك أحسن المعرفة . . . إنما أنت أوديسيوس الصَّناع ذو الذكر ، ولقد وصلت إلى هنا من إليوم بدورك فلم يشأ هرمز ذو العصا الذهبية أن يخبرنى بمجيئك ! ولكن اغمد سيفك . وهلم ننعم بالحب كزوجين . وليفرخ روعك وليهدأ بالك . . . اطمئن يا أوديسيوس . هلم ! » وصمتتْ لحظة ثم انطلقت أجيبها« سيرس ! كيف تتصورين أن يفرغ روعى ويهدأ بالى وقد حبست فى رحابك رفاقى وشركاء رحلتى بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؟ ثم تخشين إفلاتىْ فتخادعيننى وتبهرجين على بطلاسم الحب ، داعية إياى إلى فراشك لتشوبى صفاء فضيلتى برجس رذيلتك . . . لا . . . لا . إنى لن ألبّى لك طلبا حتى تقاسمينى أغلظ الأقسام ألا تلحقى بى أذى ، وألا تحاولى الإضرار بى » وراحت تحلف

وتؤكد الحلف . وتقسم وتغلظ فى القسم . ثم إنى انطرحت فى سريرها الفخم الديباجى . وأقبلت أربع من عرائس البحر . خطرن من اليم وأقبلن من العيون والحرج المجاور لينهضن بخدمتنا ؛ أما الأولى فقد أصلحت من سريرنا وطرحت عليه مطارف الخز . وأما الثانية فقد صفّت الموائد ورتبت الكراسى . وجاءت الثالثة بزق عظيم من شراب طيب ملأت به الكئوس الذهبية المنضدة فوق الموائد — أما الرابعة فقد أعدت لى حماماً ساخناً وضمختنى بأحسن الروائح والطيوب . حتى انتعش جسمى الخائر . وتأرجت روحى الفاترة . . . ثم ألبستنى ثوبين غاليين من أندر الديباج ، ومشت بين يدى إلى عرش عظيم مزدان بأحسن التصاوير . مطعم بالذهب والفضة . فاستويت عليه . واضعاً قدمىَّ على درج من لباد ناعم . . . وأقبلت بعد ذلك عروس أخرى فصبت الماء على يدى من إبريق من ذهب ، فى طست من فضة ، وجاءت بمائدة حافلة بأشهى الآكال فوضعتها قدامى لكننى ما مدت إلى شىء من ذلك يدى ، لما كان يساورنى من الهم . وما يشغل بالى من الانتقام ؛ فلما لحظت ذلك سيرس أقبلت تميس . وأخذت تلاطفنى وتقول : « مالك تجلس ساكنا يا أوديسيوس ، كالذى غشى عليه ، ولاتكاد يدك تمتد إلى شئ ، وكأن ألف وسواس يخامرك ؟ ألا تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى فيها ؟ ! ألا ما أكبر غفلتك ياصاح ! اطمئن . فلقد أعطيتك موثقى وحلفت لك بأغلظ الأيمان ولن أطلب إليك حراما ! » وأجبتها قائلا : «كيف تمتد يدى إلى طعام أو شراب ورفاقى لايزالون فى إسار سحرك ؟ أبداً لن أذوق شيئاً حتى ترديهم إلى صورهم . ثم ألتقى بهم » ونهضت تحمل عصاها السحرية وذهبت من فورها إلى الحظائر حيث أطلقت رفاقى . وكانوا لا يزالون فى صور الخنازير . ثم جاءت بترياق فمسحتهم به . فعادوا إلى صورهم البشرية ، وبدوا فى أنضر شباب وأصباه ، ثم أقبلوا نحوى يلثمون يدى ، ودموع الفرح تبلل مآقيهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون وتردد أصداءهم جنبات القصر . حتى تأثرت سيرس نفسها مما رأت ، وراحت تقول : « ياابن

ليرتيس الصناع ، هلم إلى مركبك فاشددها فوق البر لتكون بمأمن من غوائل البحر ، ثم خبئ كنوزك وأذخارك فى غيران هذه الحال ، وعد إلىّ فى جميع رفاقك » وطربت لهذه الفكرة فهرولت إلى الشاطئ حيث لقيت الآخرين يندبوننا ويذرفون دموعهم علينا . وما أن رأونى حتى أهرعوا نحوى يرقصون ويطربون ويُحيون كهذه البُهْم التى تعود فى المساء إلى حظائرها فتتلقاها صغارها بالثغاء والرغاء والضوضاء . وهكذا تلقانى أولئك الرفاق . وبدلت دموع أحزانهم بعبرات المسرة ، وخيل لهم أنهم رأوا فىّ وطنهم النائى المحبوب إيثاكا . حيث ولدوا وحيث نشأوا وترعرعوا . . . قال قائلهم : « تالله لكأنا رأينا فيك أوطاننا ياأوديسيوس ، وتالله لقد طفرت قلوبنا حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبدانها . حدثنا أيها العزيز كيف هلك إخواننا فى هذا التيه » وقلت لهم : « هلموا أولا نجر مركبنا على هذا السِّيف [1] الهادئ ، ولنخبئ أذخارنا وسلاحنا فى غيران هذه الجبال ، ولننطلق جميعاً إلى سيرس حيث ترون جميع رفاقكم فى أمنَةٍ وعز وطعام وشراب ، ونعيم مقيم » وصدعوا بما أمرتهم إلا يوريلوخوس . فقد سمَّر مكانه ، وكأنه لم يحفل بما أخبرت به ، ثم حرك شفتيه فقال : « ويح لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا نحن الآخرين إلى قصر سيرس ، وقد تمسخنا جميعاً إلى سباع أو ذؤبان أو خنازير ، ونظل إلى الأبد نحرس عرينها مرغمين ؟ لقد ذهب كثيرون منا ضحية هوَس أوديسيوس وقلة بصره ، يوم حسبنا السيكلوب من أجل أطاع رئيسنا الطياش [2] ! » وأوشكت أن أضرب رأسه بجرازى ، فيخر إلى الأرض برغم ما يربطنى به من آصرة الوطن ووشيجة الغربة ، لولا أن هب رجالى الآخرون يصرخون ويقولون : « أوديسيوس الكريم ! لنتركه هنا ليحرس فلكنا ، أما نحن فراحلون معك إلى قصر سيرس ، ولوكان مِلئه الفزع الأكبر ! » وتدفقوا من السفينة على الشاطئ ، وانخرط يوريلوخوس بينهم منصاعاً لنظراتى

---

(١) الشاطئ .

(٢) الطائش

المتأججة . . . أما ما كان من سيرس حينذاك . فإنها أدخلت رفاقى إلى حمَّامها ثم ضمختهم بأحسن الطيوب . وخلعت عليهم أفخر الملابس ؛ ولما وصلنا وجدناهم يطعمون . فما إن رأونا حتى هبوا يعانقون صحابهم ويبكون . ثم جلسوا يستمعون إلى قصة ما حَل بإخوانهم . وهم يصعدون زفرات الحزن . ترددها قباب القصر ونهضت سيرس فوجهت إلىَّ الخطاب إذ تقول : « ابن ليرتيس العزيز هون عليك . وليرفه رجالك عن أنفسهم ولا يستسلموا هكذا لنوبة الحزن . ولترقأ دموعهم جميعا . . . إنى لا أجهل ما تجشموا من أهوال فى ذاك البحر المضطرب . وما لقوا من فوادح فى كل أرض . بما كتب لهم فى لوح القضاء . . . ولكن . تعالوا جميعاً . . . أنعشوا نفوسكم الخالدة بكؤوس الراح . ولتستشعروا بأسكم الذى كنتم تستشعرونه يوم غادرتم شطئان إيثاكا العزيزة . . . إنكم إن لم تتناسوا آلامكم فإنها تفت فى عضدكم وتوهى من قوتكم وتكون أبداً حلفاً لكم وإلباً عليكم . ولا تعودون تشعرون معها بلذة العيش وبهجة الحياة ! » . ووقعت كلماتها فى قلوبنا فأقبلنا على الطعام والمدام ؛ ثم إننا أقمنا عندها عاماً بأكمله فى أرغد عيش وأحسن حال . متقلبين فى أرفه نعيم ؛ ثم استدار الزمان . وهتف بنا قانون الأزل . فدعانى رجالى إلى جلسة خارج القصر فقالوا لى . « تذكر يامولانا وطننا الأول . فإننا نحن إليه ونتمنى لو ساقتنا المقادير إلى شطئانه » وكأنما نبهوا منى غافلاً . فتلبثنا يومنا هذا على مائدة ربة السحر فى بُلهنية وعيش مخفرج وخمر . وأقبل الليل فأوى كل إلى فراشه . وأويت أنا إلى سيرس فداعبتها ولاطفتها فى صَوْنٍ وطهر . ثم قلت لها فى رجاء وظرف : « سيرس ياربة ؟ حبذا لو وفيت بعهدك فأرسلتنا فوق هذا البجر رحمة بنا . لنقضى حاجات الوطن . ولتنقطع شكاوى صحابى التى مزقت نياط قلبى » . وقالت سيرس : « أوديسيوس العزيز ؛ المعروف بأصالة الرأى ورجاحة الفكر . إنى لن أقسرك على البقاء هنا . لا أنت . ولا أحداً من رفاقك . ولكنك قبل أن تفكر فى شد رحالك إلى بلادك ينبغى أن تذهب فى رحلة شاقة بعيدة المدى . . .

إلى هيدز[١] . . . دار بلوتو[٢] وبرسفونية . . . حيث نلقى النبي الصِّدِّيق الصالح تيرزياس . الذى احتفظ وحده فى عالم الموتى بكل أسراره وقواه الغيبية الخارقة . والذى يثوى فى رحاب مليكة الفناء يتنبأ لها وتستوحيه وتستشيره فيعرِّف[٣] لك عما يهمك ويقفك على ما ينطوى لك من صحف الغيب » وما كادت تنتهى حتى احلولكت الدنيا فى عينى وتدفقت الهموم فى نفسى . وأجهشْت وأجهشْت . ثم استخرطْت فى بكاء طويل . وما كدت أصحو من هذه النوبة حتى قلت لها :«أنى لى ياربة أن أذهب إلى هيدز ؟ ومنذا الذى يحدونى إليها . ولم يسبقنى إليها أحد من أحياء البشر ؟ . فقالت تجيبنى : يابسليل ليرتيس العظيم ليفرخ روعك . ولا يحزنك ألا يكون لك إلى هيدز من دليل . بل هلم إلى سفينتك فأصلح قلاعها وانشر شراعها وستهب الصّبا[٤] سَجْسَجاً فتُهَدْيكم رويدا . فإذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطئ النز[٥] الذى تنمو فوقه أشجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمة باسم پرسفونية . فادفعوا إليه بسفينتكم ثم تهاوَوْا إلى مثوى بلوتو السحيق الذى يبتدئ عند الصخرة الهائلة التى تتكسر فوق أواذيها أمواه أشيرون[٦] وستيكس وكوكيتوس فاتركوا سفينتكم ثمة . واحفروا عندها حفرة ذراعا فى ذراع ثم صبوا فى جهتها الأولى قرباناً من لبن وعسل . وفى الثانية خمراً معتقة من أحسن ما تعصرون . وفى الثالثة ماء قراحا . فإذا كانت الرابعة فانثروا الدقيق فوق الجميع . واصنعوا ذلك باسم الموتى جميعا . ثم انذروا لهم أن تذبحوا يوم تعودون إلى إيثاكا سالمين عجلاً جسدا من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لتيرزياس كبشاً سَمَوَّريا ليس فى أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلادا . فإذا فرغتم من صلاتكم ونذوركم وأدعيتكم لجميع الموتى من كل الأمم فاذبحوا فى الحال كبشا

(١) الدار الآخرة (٢) إله الموتى وروجه (٣) يتكهن من العرافة بالكسر .

(٤) ريح الشمال وسجسجا أى هوناً لطيفا. (٥) الذى ينز الماء مصدرا ستعمل صفة

(٦) تنطق الشين كاما مشددة وقد آثرنا الشين فى كل كتبنا لتسهيل النطق . وهذه كلها أنهار فى العالم الثانى فى أساطير اليونان .

ونعجة سمورية . على أن تكون رأسا الضحيتين تلقاء إربوس وعلى أن تشيحوا بوجوهكم تلقاء الشاطئ . فإذا صنعتم كل هذا فسرعان ما ترون أرواح الموتى تقبل نحوكم من كل فج . فسارعوا إلى ذبائحكم فاسلخوها وألقوا بلحومها فى النار مصلين ملبين داعين كما تهدأ نفسا بلوتو وزوجته برسفونية . ولا تسمحوا لأرواح الموتى أن تقرب أضحياتكم . وذودوهم عنها بأسيافكم حتى تلمحوا تيرزياس قادماً فيلقاكم ويحدثكم ويوضح لكم ما غم عليكم من سبيلكم فى هذا البحر الرجراج المتلاطم بالأمواج » . وسكتت . وانبلج الصبح . فنهضت تصلح من أثوابها وتضفى عليها من شفوفها البيض كالندف . وتنثر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثلج . أما أنا فنهضت كذلك . واكتسيت صدارى ودثارى ثم توجهت إلى رفاقى فأيقظتهم وحثثتهم على الإبحار من تونا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعاً إلا فتى يافعا لم يكن له يدان فى هذه الشدائد . بل كان كل همه فى كأس من خمر ينطرح بعدها وهو لا يعى شيئا . وكان اسمه ألينور . وكان قد غرق فى سبات عميق فوق سطح القصر . وقد أفزعه ما سمع من جلجلة أسلحتنا فهب من نومه مخموراً متخاذلا وساقته قدماه إلى حافة السطح فَزَلَّتَا وسقط إلى الأرض . ودُقَّ عُنقُه . فسبقت روحه إلى هيدز . وقلت لأصحابى لما اكتمل جمعهم : « أتظنون أنا مبحرون إلى أوطاننا ! ! كلا يا رفاق ! فأمامنا رحلة طويلة شاقة إلى هيذر ، حيث ينبغى أن نلقى تيرزياس النبى الصالح لِيُعَرِّف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنا الغيب ، بهذا رسمت سيرس ، وإنا لنصيحتها لسامعون ! » وخفقت قلوب إخوانى . ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولكنهم صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أن لا شئ غير هذا ينفعهم . وانقلبنا إلى البحر ، وكانوا لا يزالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم . . . وفيما نحن ذاهبون ، كانت سيرس تسوق إلى السفينة كبشاً عظيما ونعجة سمورية . . . وإن كنا لم نرها قط . ومن ذا الذى تستطيع عيناه أن تريا ربة كريمة رائحة أو جائية إن لم تشأ هى أن تكشف عن نفسها ؟ »

رحلة أوديسيوس إلى العالم الثاني

وذهبنا إلى الشاطئ وأنزلنا الفلك إلى الماء ، ثم أصلحنا القلاع ونشرنا الشراع ، ووضعنا القرابين على السطح ، وذرفنا من الدموع ما شاءت لنا الهموم والآلام ... وأقلعنا ... وأرسلت سيرس بين أيدينا ريحاً رخاء كانت خير معوان لنا وخير رفيق فى سفرتنا الرهيبة هذه، حتى لتركنا لها مقاليد الفلك ، وانْسَدَ حْنا [1] فوق السطح من غير ما عمل . ولم تزل تجرى بنا طول هذا اليوم ، حتى إذا أوشكت الشمس أن تَوارىَ بالحجاب ، وقارب الظلام أن يلقى أردانه على الكون الهادئ ، أشرفنا على تخوم البحر الأعظم ، حيث تنهض مدينة السمريين التى ينعقد من فوقها دَجْن . [2] كثيف وظلمات داجية ، فلا تنفذ إليها شعاعة من نور ، ولا يحييها رسول من شمس هذه الدنيا العاملة الدائبة ، التى يسطع فى سماواتنا ركبها الفخم ، فهى أبداً فى ليل متصل مدلهم ، لاتنجاب عنها غواشيه . وهنا ، ألقينا مراسينا ، وأنزلنا الكبش والشاة إلى البر ، وانطلقنا فوق سيف البحر إلى حيث أمرتنا سيرس ، وتركنا يوريلاخوس بن برميد عند القربانين ، وعنيت أنا باحتفار الوهدة فجعلتها ذراعاً فى ذراع ، ثم شرعت أصب تقدمات الشراب باسم الموتى فبدأت بمزيج من اللبن والعسل المصفى ، وأتبعته بالخمر المعتقة ، وثلثت بالماء القراح ، ثم نثرت على ذلك كله دقيق الشعير وصليت من أجل الموتى ، ونذرت – إن عدت إلى إيثاكا – أن أضحى لهم بعجل عظيم ذى خوار يكون أسمن وأقوى ما فى قطعانى، أذبحه وأحرقه فى نار مجللة بكل ما يشوق الأشباح من أرواح وطيوب ، وخصصت الكاهن الطيبى (تيرزياس) فنذرت أن أضحى له بأحسن كباشى وأعظمها مُنة ، ثم

---

(١) انسدح : نام وفرج بين ساقيه

(٢) السحاب المظلم

شمرت عن ساعدى ، وذبحت القربانين فتدفق الدم فى الوهدة ... وهنا ... أهرعت الأشباح من كل فج ، وأقبلت مهطعة كأسراب الدَّبَى [1] ... يا للآلهة ! ! هنا ، زرافات العذارى جرعن كأس الحمام فى ميعة الصبا ، وهنا ، جموع الشباب اليانع كأفواف الزهر غالهم عادى الردى ، وثمة ، عرائس سادرات تسربلن بسواد الحزن ، فجأتهن المنايا ليلة الزفاف ، وهناك ، أطفال كأكمام الورد لما تفتح قطفتهم أيدى المنون ، وعن كثب ، وقفت كواكب المحاربين الذين لطخوا بالدماء وجه البسيطة ... والآباء والأمهات والأجداد ... أقبلوا يتدافعون نحو الوهدة صاخّين صاخبين ، قاذفين فى قلوبنا الرعب ... ثم هتفت برجالى فشرعوا يحرقون القرابين ويصلون لرب هذه الدار – بلوتو – ولزوجه ، ورحت أنا أذود الأشباح الهائمة عن دم الضحايا بسيفى أضرب به ههنا وههنا ، حتى لمحت روح رفيقى ألبنور[2] الذى تركناه فى أرض سيرس دون أن نقيم له شعائر الموت لما كنا بسببه من هموم ... لمحت روح رفيقى فتصدعت ، ثم ذرفت عبرات ، وعبرات وكلمته قائلا : «ألبنور ! ياصديقى ! كيف وصلت إلى ظلمات هذه الدار الآخرة فى مثل هذه السرعة ولم تحملنا إليها سفينتنا إلابعد لأى ؟ عمرك الله هل سبحت فى الهواء ؟ أم طويت إليها الرحب ماشياً ؟» وانهمرت من عينيه دموع ودموع . ثم قال يجيبنى : ياابن ليرتيس النبيل ، المعروف فى العالمين بالحكمة ودقة الفهم ، لقد أودى بى السكر فسقطت من سطح سيرس فدق عنقى وأسرعت من ثمة على دَرَج الظلمات إلى هيدز ... على أننى استحلفك بكل عزيز عليك ، ببنلوب ، بالنار المقدسة التى تتأجج عن قبسها حياتك ، بولدك الأوحد تليماك أن تجمع ما تبقى من سلاحى وعتادى إذا عدت إلى سيرس ، وأنك إليها لعائد حين ترجع أدراجك من عالم هيدز ، وأن تحرق جثمانى فى نيران هذا العتاد ، ثم تصلى له ،

---

(١) الجراد

(٢) ألبنور الثمل الذى سقط من السطح فدق عنقه (الفصل السابق) .

وتضرع إلى الآلهة من أجلي حتى أقرهنا ، وتهدأ فى تلك الظلمات روحى ، وأن تغرس فوق الكومة التي تشمل رفاتى ، مجدافى العزيز الذى عملت به فى البحر تحت إمرتك ، وفى ذرى سلطانك وقيادتك حتى يذكرنى فى العالم الفانى الذاكرون » . ووعدته أنى فاعل ثم لم أزل أذود الأشباح عن الدماء المتدفقة ، وفجأة لمحت بين أرواح الموتى شبح أمي ! أمي المحبوبة أنتكليا ابنة الشجاع أوتوليكوس ، التي تركتها يوم يممت شطر طروادة قوية ، غريضة الصبا ريانة الشباب وما وقعت عيني عليها حتى أجهشت وأجهشت ، ثم انهمرت من مقلتى أحر العبرات ... ومع ما كان يعتلج به صدرى من الأسى عليها ، فقد ذدتها عن الدماء كذلك ، وبى من الهم لتلك الفعلة ما أوهننى وأضوانى . ثم أقبل نبى طيبة وكاهنها الجليل ، يتوكأ على عصاه الذهبية ، وما كاد يحملق فى قليلا حتى عرفنى وخاطبنى يقول : « لم غادرت الدنيا الدافئة المشرقة أيهذا التعس ، وقدمت لترى هؤلاء الموتى ولتضرب فى ظلمات هذا العالم العبوس ؟! ولكن نحِّ هذا السيف قليلا حتى أجرع من تلك الدماء ، وإنى لمحدثك حديث الصدق عما جئت من أجله » وأغمدت سيفى وانحنى الكاهن فعب من الدماء ما شاء ، ثم قال لى : « أوديسيوس ! إنك تجتهد أن تعود أدراجك إلى بلادك ، غير أن طريقك إليها محفوفة بالمكاره ، ممتلئة بالعقبات ، وإن لك فيها لعدواً يتأثرك ، ذلك هو نبتيون الذى أسخطته بما سَملت عين ولده السيكلوب (بوليفيم) على أنك واصل بعد أهوال جسام إلى وطنك ، فإنك إن كبحت جماح شهواتك ، أنت ومن معك ، فإنك واصل يوماً إلى شطئان ترينا شيا ، وتكون قد أفلت من روع اليم وأرزائه ، فإذا كنت ثمة . فاحذر أن تمس قطعان رب الشمس السائمة فى الجزيرة بأذى إن كنت جد حريص على العودة إلى بلادك سالماً ، مهما اقتحمت بعد ذلك من عباب وعقاب . فإذا مسها منكم أحد بأذى ، فويل لكم جميعاً ! إن فلكك تغوص إلى الأعماق ، ويغرق رجالك أجمعون ، أما أنت فتنجو بعد جهد ، وتلتقطك سفينة عابرة وتعود بك بعد شقاء وبلاء ، وعناء أيما عناء ، إلى وطنك الذى ينتظرك فيه ألف

ويل ! وويل ستجد قصرك المنيف محتلا بطغمة أشرار من خطاب زوجك الوفية لك ، يُريغون خيرك ويذبّحون شاءك ، ويغرون بنلوب بالعطايا والرِّشى لتختار من بينهم بعلاً لها ... ولكنك ستنتقم منهم وتنتصف لما قدموا من سوء ، وستبيد جموعهم ، فإذا تم لك النصر عليهم فانطلق من فورك إلى الشعب الذى لم ير البحرَ أحد من أهله ولم يذق الملح أحد منهم قط ، وليكن معك مجداف عظيم يدلك عليهم فإنهم إن رأوه عجبوا من منظره ، وظنوه مذراة مما يذرى به القمح ، فإذا عرفتهم فاغرس المجداف فى أرضهم ، وضح لنبتيون رب البحار بعجل عظيم وكبش سمين وخنزير كنازٍ[1] ، ثم تبتل إليه وأخبت ، وانطلق إلى وطنك وضحِّ بأحسن ما تملك من الشاء والنعم للآلهة ، وصلِّ لكل منها واخشع ، تعش آمناً غانماً ، وتمت بعد حياة هادئة موتة قريرة ناعمة بعد حكم عادل طويل ، وشيخوخة هانئة موقورة ... هذا من أنباء الحق عرَّفتها لك » .

وقلت له : « أنا لا أكذبك ياتيرزياس فيما كشفت لى من أنباء الغيب ولكن جُعلت فداك : إنى ألمح شبح أمى جاثماً بالقرب من الدم دون أن تتعطف بكلمة واحدة على ابنها الحبيب ، فمن ذا الذى يشعرها أنى — أنا ابنها الأوحد — قريب منها ! » فقال : « لا أيسر من ذلك يابنى ! فإنك إن تركت أياً من هذه الأشباح يرشف رشفة من ذاك الدم ، فإنه يتحدث إليك بعد ، وينبئك بما تشاء » . ثم غاب شبح الكاهن فى ظلمات مملكة بلوتو ، وسُمِّرت أنا مكانى أنتظر شبح أمى ، التى ما كادت تتذوق الدم حتى عرفتنى ، وانطلقت تكلمنى فى رفق وحنان : « أى بنى كيف أتيح لك الضرب فى دياجير هذه الدار الآخرة وأنت لاتزال حيا تدب على رجليك ؟ ! ألا ما أشق هذا على بنى الموتى من أهل الدار الأولى ! إن ههنا أنهاراً من حميم يدور بعضها على بعض ، وقد تطغى على شطئانها بعباب حمىء ، ويحيط البحر الأعظم الذى لاتشق أجباله فُلك ، بَله قدم سائر

---

(1) بالكسر سمين .

عابر ! أواه ! لقد ذرعت البحار شرقاً ومغرباً فى رحلتك من إليوم ، أنت ومن معك ، ولما تصل إلى إيثاكا العزيزة !» وسكتت قليلا ، فسألتها : « الظروف القاسية وحدها ياأماه هى التى قادتنى إلى مملكة بلوتو ، ليعرف لى الكاهن الصالح الطيبى تيزياس ، ولقد تجشمت الأهوال الثقال منذ توجهت مع أجا ممنون للقاء أبناء طروادة ... وهأنذا منذ ذلك اليوم لم تطأقدماى أرض وطنى ... ولكن ... نبئينى يا أماه أية ضربة أودت بحياتك الغالية ؟ هل سفك دمك أحد ؟ أم أصابك سهم من ديانا ؟ ... وحدثينى كذلك عن أبى السند الشيخ ، وعن ولدى تلماك ، وحدثينى عن ملكى وعتادى ، هل غلب عليهما أحد من سادات البلاد ، حين يئس الكل من عودتى ؟ وخبرى عن زوجى ، ألا تزال تعيش مع ولدى مخلصة وفية لى ، أم تزوجت من أحد أمراء هيلاس ؟! » وقال الشيخ الكريم يجيبنى : حاشا يابنى ! إنها لا تزال وفية لك مبقية على ذكراك مقيمة فى قصرك وإن تكن تقضى لياليها وأيامها فى حزن ممض عليك ، ودموع جارية من أجلك ، وآلام ما تنتهى لبعدك ، أما أملاكك فلا تزال لك ، وما يفتأ ولدك يغلها باسمك ، وما يفتأ يغشى الولائم فى أبهة الأمراء ، ورُوَاء الأماثل العظماء ! ولم يزل أبوك مقيما فى مزارعك ، عزوفاً عن المدينة وبهرجها ، وأرائك القصور وزرابيّها ، وهو يقضى أيامه يصطلى نار المدفأة فى الشتاء ، قابعاً على فروته الفقيرة المتواضعة ، غارّاً فى أثماله ومِزَقه ، فإذا جاء الصيف ، أو فجأه الخريف ، اعتكف فى ناحية ، وانطرح على الهشيم المتساقط من الأشجار ، وراح يعالج من الحزن عليك ، والبكاء بسببك ما يوهيه ويضنيه ، طول تلك السنين السوالف وهكذا هلكت أنا الأخرى من طول التفجع عليك ، والتصدع من أجلك ، فلا ديانا أصمت فؤادى بسهم ، ولا اعتدى علىّ معتد ... بل الحزن وحده ياأوديسيوس ، والوحشة والضنى ، وطول الوجد ، وذكراك فى كل حين ؛ كل أولئك يابنى اختضر عود حياتى ، وعجّل إلىّ مماتى !» وما كادت تفرغ من حديثها حتى أزْرَفت[1]

(١) أسرعت

إليها أود لو ضممتها إلى صدرى ، بيدأنى فشلت مرة وأخرى وثالثة ، إذْ كانت تتفتل فى كل مرة من بين ذراعىَّ كما ينفتل الظل ، أو كما يسرى الحلم . ولم أطق على ذلك صبراً فقلت لها : « لماذا تأبين علىَّ عناقك يا أماه وقد نتداوى به مما بنا من شجو ، ولوكنا هنا فى مملكة بلوتو؟! أم ياترى أرسلت إلى برسفونيه شبحاً يعبث بى ويتضاحك على ؟! » قالت : « أواه يابنى ياأتعس بنى الموتى ! أبداً ما حاولت ربة هيدز أن تعبث بأحد ، ولكنها طبيعة الموتى هنا فهم لا عضل ولالحم ولا عظم ، ولا ماذهبت به النار بعد الموت فى الدار الأولى ... بل هم أرواح تشبه الظلال أو الأحلام فى خفتها وسرعة انفلاتها ... ولكن هلم فعد أدراجك إلى النور ... فلقد جاءك من الحق ما هو حسبك » ، ثم هممت حولى أشباح العذارى والأزواج من بنات هيدز سعين من عند برسفونيه ؛ فامتشقت سيفى ، وطفقت أذودهن فلا يقربن الدم إلا بإذنى واحدةً بعد واحدة ، لتقص على كل منهن قصة حياتها ، ولقد كلمت تيرو الحسناء ، كريمة المحتد ، طيبة الأعراق فذكرت لى أنها ابنة سالمون وزوجة كريثيوس بن إيولوس — وأن أينيوس إله السلسبيل ، أعذب أنهار الدنيا — قد كان مشغوفا بها حباً ، وأنه طالما كانت تغش شطئانه النُّضر ، وخمائله الخضر من أجل ذلك ، وأنها كانت يوماً تلعب هناك ، فإذا شبح جميل كأنه شبح حبيبها يظهر فجأة ثم يأخذها بين ذراعيه ، ثم يعلو طوفان من اليم فيطويهما معاً ، ثم تفيق فترى نفسها بين ذراعى نبتيون الجبار رب البحار الذى يشاكيها غرامه هو الآخر ، ويبثها حبه ، ولاعج قلبه ، ثم يهوى بها إلى أعماق مملكته السحيقة ، ويعاشرها كزوجة ، ثم يرسلها بعد أن يوصيها بولديه التوأمين منها ، ثمرة الحب السرمدى المقدس ... ويغوص فى اليم . وتعود هى إلى بلدها فتضع ولديها العظيمين — وزيرى جوف الأكبر — بلياس ونليوس — ويشب بلياس ويضرب فى الأرض ، فينتهى إلى مروج إياؤلخوس ويرعى ثمة بهمه وقطعانه ؛ أما نليوس فيسكن البلقع الجدب من أرض بيساوس ... وتتزوج كريثيوس بعد ذلك كله ، فتنجب منه أبناءها الثلاثة الآخرين ،

ذوى الشهرة والمجد . ثم كلمت أنتيوب ابنة آسلوب التى راحت تفخر بما كان بينها وبين جوف – كبير آلهة الأولمب – من هوى وصبابة وحب ، وأنها أنجبت له ولديه العظيمين أمفيون وزيتوس منشئ طيبة العظيمة ذات القلاع والتلاع والأبواب السبعة ... ولقيت بعدها ألكمينة ابنة أمفتريون حبيبة جوف ، وأم هرقل الحديدى الجبار ... وقد ذكرت لى أنها تزوجت من كريون بعد فأنجبت له ابنته ميجارا ، زوجة ابن أمفتريون ... ؛ ... ولقيت الحسناء يوكاستة أم أوديبوس الملك التعس ، الذى تزوجها وهو لايدرى أنها أمه بعد أن ذبح أباه ، فصبت عليه السماء سياط عذابها ، وذهب على وجهه فى الأرض حيران ، أما أمه فقد سبقت روحها إلى هيدز بعد إذ شنقت نفسها فى سريرها ، تاركة ولدها لربات العذاب يسمنه الخسف ويجرعنه الأوصاب ... ولقيت الغادة الحسان خلوريس التى هام بها نليوس ونثر تحت قدميها هداياه ، فأسلست له ، ورزق منها أبناءه الثلاثة نسطور وخروم وبركل ، الميامين ذوى المجد ... ثم كلمتنى ليدا زوجة تندار ، أم كاستور الصنديد وبوللكس الملاكم العتيد ؛ إنهما ينعمان بنعمة زيوس أبى الآلهة ، فهما يتبادلان الموت والحياة ، سنةً فسنة [1] وفاءا منهما ومحبة وإعزازاً ... ؛ ... ثم رأيت إفيمديا الحبيبة التى فخرت بهيام نبتيون والتى أنجبت له طفليه الجميلين أوتوس وإفالت اللذين بزا بجمالهما كل من دب على وجه الأرض . باستثناء أوريون ... يالهما من طفلين ! ! لقد شبا نيران الحرب على آلهة السماء وحاولا رفع أوسا إلى قمة الأولمب فجعلا بليون على أوسا ركاما ، وقد أوشكا أن يفلحا لولا أن ذبحهما زيوس وولده أبوللو ليكونا عبرة لغيرهما ... فيا للموت ، هذا المتعدى على شبابهما الغض ، فأذبل الخدود وأذوى الورود !

ورأيت بعد ذلك فيدرا ، ولقيت آريادن المفتان وبروسيز اللعوب ، أما آريادن فقد حملها ثيذيوس من كريت إلى فراديس أثينا ... ولكن

(١) وردت عنهما أسطورة رائعة ستنشرها قريبا فى الجزء الثانى من كتابنا أساطير الحب والجمال عند الإغريق .

وا أسفاه ! إنها ما تمتعت ثمت لاقليلا ولا كثيراً فقد أصمتها ديانا الغادرة بسهامها ، وشهد فعلتها المنكرة باخوس العظيم ... فى ديا .

ورأيت ميرا ... وكليمنيه ... وإريفيل التعسة التى قبلت أن تنال ثمن روح زوجها من الذهب .

والآن ! ! وقد أوشكَ الليل أن يلقى علينا طيلسانه فما أحسبنى أستطيع أن أحصى زوجات الأبطال العظام وبناتهم اللائى لقيت فى هيدز ، فأرجو لو أمر الملك فانطلقت لأستريح فى سفينتى ... أو هنا إن أذِن ... وكلى ثقة فيكم وإيمان بالآلهة أنكم ستدبرون أمر إبحارى إلى وطنى حتى الصباح ... »

* * *

وسكت أوديسيوس ، وصمت الجمع المحتشد فى الردهة الملكية فكأن على رؤوسهم الطير من روعة ماحدث ، حتى نهضت أريتا الملكة ، ذات الذراعين العاجيتين ، فقالت : « أيها الفياشيون كيف أنتم وهذا المهاجر النبيل الذى زادته الآلهة بسطة فى العقل والجسم ، وأضفت عليه هذا البهاء وذاك الرواء ؟ إنه ضيفى ، بيد أنكم تشركوننى فى ضيافته والاحتفاء به ، فخليق بكم ألا تسرحوه على عجل كما يحب ، بل حرى بكم أن تستبقوه أياما حتى تخلعوا عليه ، وتقدموا له أطرف الهدايا وأعز اللُّهَى وتُفيئوا عليه مما حبتكم السماء ، فكلكم غنى جم الغناء ، مُثرٍ واسع الثراء » . وتكلم البطل إخنيوس ، أكبر أمراء فياشيا وأتلدهم ذكراً فقالت : « إن مليكتكم ذات المجد والكبرياء يا أصدقاء لا تبدى رغبةً فحسب ، بل هى تصدر عن إرادة عالية وأمر سنى ، فحبذا لو أصختم وصدعتم . . . على أن كل شئ هو رهين بمشيئة الملك ، فَلْيَر إذن رأيه » وقال الملك : « إنى أوافق على ما رأت الملكة ، زهرة فياشيا وسيدة البحار ؛ ليبق الضيف إلى غد إذن ، برغم ما يحدوه من الشوق إلى بلاده ، حتى أسبغ عليه ، وأدبر أمر عودته التى يُعنى بها الجميع » وكأنما صادف مقال الملك هوى فى فؤاد أوديسيوس فنهض وقال : « ألكينوس ! يا ملك فياشيا العظيم ! بودى لو بقيت هنا عاما

بأكمله ليتم الملك نعمته على ، وليدبر أمر عودتى سالماً إلى أرض الوطن . . . فما أجمل أن أعود بالعطايا والهدايا والنعم ، لأملأ عيون مواطنى ، ولأكسب احترامهم وأنال محبتهم بعد طول النأى وفدح البعاد » .

فأجابه الملك : « لله ما أروع ما حدثت يا أوديسيوس ! وَيْكأنما حدثت بلسان ساحر عليم يبهرج القصص ويوشّى الأخبار ، ويروّق ويزوّق ، فى زكانةٍ وفطانةٍ وحذق وترتيب ؟ ! أبداً ما حملت هذه الأرض ألبَّ منك ولا ألبق فى رواية وتحديث ، وأبداً ما تساكبت الموسيقى والنغم الحلو من لسان كلسانك الذرب الحبيب ؟ ولكن ماذا عندك من أخبار الأبطال الإغريق ، الصيد الصناديد ، الذادة المذاويد ؟ حدث يا أوديسيوس ! قل ، قص علينا أخباركم ؛ أرأيت أحداً ممن شهد معك وقائع طروادة ؟ إن الليل لايزال فى عنفوان يا صاح ، وما بأعيننا من سِنة فنأوى إلى فراشنا فى مثل تلك الساعة ؛ هلم فحدثنا ، فبنا إلى حديثك شغف ، وكلنا إليه شوق ، ولو حدثت حتى مطلع الفجر ، إن لم ينل منك وَصَب او يُعيِك ملال » .

وقال أوديسيوس : « بورك سيد فياشيا الملك ألكينوس ! لا يزال فى الوقت متسع للحديث وللنوم معاً ، وإن شئت حدثتك بطائفة من الأحاديث عن الأبطال الإغريق سواء منهم من ثوى تحت أسوار طروادة ومن أفلت من الموت ثمة فترصدته المنايا فى أرض وطنه صَبَباً من كف زوجه الأثيم الزنيم ! إليك إذن : . . . وحينما هتفت برسفونيه – ربة هيدز – بأشباح العذارى وأرواح الحسان فانثنين عنى إلى ظلمات دار الفناء – بدا لى طيف أجاممنون – إبن أتريوس – ومن حوله كوكبه من أشباح الذين قتلوا معه فى داره بيد إيجستوس . . . أهرع إلى الدماء فرشف منها رشفات ، ثم نهض فعرفنى ، وكأنما شاعت فيه رعدة من الدهشة والذعر ، وتحدرت دموعه الحرار السخينة فوق خديه ، ثم مد إلىّ ذراعيه يود لو

عانقني، ولكن. ..وأسفاه! وهل يعانق الشبح إنسياً ؟! ونال مني الحزن فبكيت من هذا المنظر الفادح الأليم ، وقلت أكلمه فى أسلوب بائس وعبارة باكية . « ويحك يا ابن أتريوس يا ملك الدنيا العظيم ماذا جرعك كأس المنايا ؟ خبرنى ! هل جرعتها فى قرار اليم مُغرقاً بيد نبتيون أم فوق ظهر الأرض حين كنت تسوق قطعانك ، أم قتلت وأنت تحارب من أجل بنات أخايا إذ هن محاصرات خلف أسوار مدينتهن ؟ ! » فقال يجيبنى : « أوديسيوس الزعيم النبيل ، ياابن ليرتس الحكيم أبداً مامت مغرقاً بيد نبتيون ، ولا فوق ظهر الأرض فى حومة حرب زبون ، بل ذبحنى اللئيم إيجستوس بعد أن دبر غيلتى مع زوجتى الآثمة ، حين مَلَقَ[1] لى وبالغ جهده فى الاحتفال بى ، ثم ذبحنى كما يذبح الثور فى مِذْوده وكر على رجالى فذبحهم كما تذبح الخنازير لوليمة فى عرس أو فى حفل لزعيم عظيم . أوه أوديسيوس ! لا جرم أنك قد شهدت ألف معركة ومعركة جندلت فيها أبطالاً وراء أبطال ، بيد أنها جميعاً لم تك شيئاً فى ذلك الحدث الرهيب ! لقد هوينا نتخبط فى دمائنا التى ضرجت الأرض ، تحت أخاوين[2] حافلة بأطيب الآكال وأشهى الأشربات . . . ثم . . . جلجلت فى أذنى الصرخة الرهيبة وصرخة ابنة بريام ، فكانت ما أروع وما أفدح ! لقد انبطحتُ على الأرض إلى جانب كاسندرا ، قتيلة بيد زوجتى كليتمنسترا . . . ومع ذلك لم أفقد الأمل يا صديقى بل حاولت أن أمتشق جُرازى ، لكن الخائنة انسحبت كالأفعى ، ولم تعبأ بى ، بل لم تشأ أن تُغمض عينى ، أو تسند ذقنى ، فى اللحظة التى أوشكت أن أطرق فيها أبواب هيدز ؟ ! ويلاه ! وويلى على المرأة التى طاوعتها يدها فأتت هذا المنكر ، وارتكبت إثم قتل زوجها ورفيق صباها ! !

لقد حسبت حين عدت أدراجى أننى سأقابل بالأهل وبالسهل من

---

(١) ملق فلاناً وملق له تودد

(٢) أخاوين وخون وأخونه . جمع خوان موائد الطعام

أبنائى وأهلى وحاشيتى ، ولكنها . . . الفاجرة الغادرة ، التى بزّت بفجورها كل صنوف الفجور ، قد سحبت على نفسها أذيال العار والخزى ، بل هى قد سحبت أذيال العار والخزى على كل أنثى لم تر النور بعد ، وعلى كل الصالحات الطيبات من بنات جنسها » .

وسكت أجاممنون ، فقلت بدورى : « يا سماء ! ! ما أقسى ما قضت يد زيوس على بيت أتريوس منذ البدء ! كله من الأنثى دائما ! لقد قتلنا فى غير رحمة ولا رفق من أجل هيلين [1] ؛ وتدبر لك كليتمنسترا تلك الفعلة بينما أنت نازح بعيد عن ديارك ! ! »

قال : « من أجل ذلك أوصيك ألا تلين عريكتك لامرأة قط ، وألا تجعلها موضوع سرك ومحل ثقتك ، بل إن أسررت لها بشئ ، فخبّئ عنها أشياء ، هذا وإن تكن زوجك وفية خالصة لك ، لا يخشى عليك منها رَهق ، ولا غدر كهذا الغدر ، لأنها ابنة إيكاريوس وحسب ذات الحصافة واللب ، لقد غادرناها ولما تزل عروسا يوم غادرناها إلى اليوم ، وعلى صدرها الوفى ولدك الحبيب ، الذى ينتظرك لهفانَ ليضمك إلى صدره يوم تعود إلى إيثاكا . . . وإنك إلى إيثاكا لعائد ، وبذا قضت الآلهة . . . أما أنا فوا أسفًا على أورست ، ولدى المسكين ، الذى قتلتنى الغادرة قبل أن أتزود منه بنظرة ! اسمع يا أوديسيوس ، أصغ إلىّ ، إنى سأفئ عليك من كنوز خبرتى وتجاريبى ، عليك بالسر فى أوبتك إلى وطنك . واستعن على رحلتك بالكتمان لأنه لاثقة فى امرأة بعد اليوم [2] ...ولكن أصدقنى بربك أين يأوى ولدى الآن هل يقيم فى بيلوس؟ أم يثوى فى أرخومينوس؟ أم هو يستذرى بذرى جدته أمي الحبيبة ، فى قصرها المنيف بأسبرطة ؟ إنه لا يزال حياً يرزق ، ولم يأو بعد إلى دار الظلال هيدز . واعتذر إليه أنى لا أعلم إذا كان حياً يرزق أو أنه غدا من أشباح هيدز » وظللنا نتحدث شجون الحديث ،

(١) التى فر بها باريس وكانت سببا فى حروب طروادة (إقرأ قصة الإلياذة لنا)

(٢) وهكذا عاد فاستمسك برأيه فى النساء حتى فى بنلوب

وندرف الدموع على كل ذكرى حتى وافى شبح أخيل البطل ، ابن بليوس العتيد ، وفى إثره شبح تر به بتروكلوس العظيم وبمقربة منه طيف أنتيلوخوس يتدهدى مع طيف البطل المغوار أجاكس الذى امتاز ببسطة الجسم وجبروت المظهر على الجميع ما عدا بيليدس وحده . . . وعرفنى شبح العدَّاء الكبير إياسيدس [1] فقال يخاطبنى فى خفة وظرف « أوديسيوس يارجل الدهاء والخُدَع : أى تدبير ليست فيه تدابيرك الماضية وحيلك السوالف شيئاً ما ». أنَّى بك إلى هذه الدار ؟ أضيف أنت ؟ أم هو طيشك وقلة مبالاتك جعلاك تضرب فى دياجير هيدز ؟ هيدز الرهيبة بيت الأرواح والظلال والأشباح ؟ » فقلت : « أخيل يا ابن بليوس العظيم ، يا أشجع أبناء أخايا قاطبة ، لقد سعيت إلى شطئان إيثاكا الصخرية ، لأنى عييت بالزوابع والعواصف فى عرض اليم ، فما استطعت أن أصل إلى أخايا أو أن أرسو فى بلادى . . . إنى أغبطك يا أخيل من أعماق ؟ فلقد عشت فى هناء وعز ، ويَجِلُّك الناس كأحد آلهتهم ، وها أنت ذا تحكم هنا وتنهى وتأمر على جميع هؤلاء الموتى ، فما أجدرك ألا تأسى لأنك مت هذه الموتة فى الدار الأولى » وأجابنى على الفور ؛ : « أوديسيوس ذا الذكر ، لاتخالنّ عزاء يخفف من وطأة الموت ؟ لقد كنت أوثر أن أعيش فى الدنيا كأحقر الأجراء الأذلاء ، وأتبلغ بلقيمات قليلات لا تقيم أود الشيخ الفانى ، على أن أقيم هنا مُمَلَكا فى جميع هذه الأشباح والتهاويل ! ! ولكن تعال ؛ هلم فحدثنى عن ولدى الحبيب ، هل وصل ما انقطع من حياتى الحربية ، أم هجر السيف وطلق المعمعة ؟ وحدثنى عن أبى بليوس الكريم ، ألا يزال يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم وحب الميرميدون [2] وفدائهم ، أم تجرد من الأبهة ونزل على حكم المشيب والكبر ، والأيام التى أوهنت عظامه ؟ أواه يا أبتاه ! ليس لك اليوم أخيل كان ينشر الرعب فى جنبات طروادة ؛ أواه لو

(١) قد يكون هذا من أسماء أخيل

(٢) جنود أخيل فى حروب طروادة .

وسعني أن أعود إليك لحظة ، إذن لقسرت الناس على الخضوع لك ، ولأرغمت كل جبار عصى على تمليقك وبذل العبودية لك ، بدل الثورة بك ، وقلة الاحتفال بشيخوختك ! » وقلت أجيبه أنا أعلم بما كان من أمر بليوس أبيك ، ولكني ذاكر لك ماترامى إليّ من أخبار ولدك نيوبتلموس[1] لأني حملته على سفائني من سكيروس إلى الجيوش الحاشدة من أخايا ؛ ولقد كنا نجتمع للشورى[2] تحت أسوار اليوم فما كان يتكلم إلا لماماً ، وما كان ينطق عن الهوى إذا فعل ، وإذا استثنينا نسطور . . . و . . . وأنا . . . فما كان أحد ينهض إلى مقامه ، أو يقارن به من جميع الأبطال الإغريق . . . وكنا نكر حول طروادة ونفر ، فما أعرف أن أحداً كان أجرأ منه كرًّا ولا أحذق فرًّا . . ولقد جندل من أبناء طروادة الصناديد أقراناً وفرساناً حتّى ما أستطيع سَرد أسمائهم جميعاً ، بيد أنني أذكر منهم يوريبيلوس بن تلفوس البطل الذى أغرى (بريامُ) نساءه بالرشى ليقنعه بخوض غمار الحرب إلى جانب الطرواديين ، فما زلن به حتى خاضها هو وجنوده السيتيون . . .لله ما كان أجمل وما كان أروع ! ! أبداً ما رأيت زعيما ولا سيد قوم ، باستثناء ممنون ، أبهى منه ولا أصفى جمالا ! وما أنس يوم حصان إبيوس الخشبي ، يوم قمت أتخير الصنايد المذاويد من أبنا هيلاس ليكونوا معي داخله . وكنت على أن أظل عند بابه السرى لأرى فى فتحه أو إغلاقه ما أرى . . . لا أنسَ ما كان من هلع أبطالنا وذعرهم وذهاب نفوسهم وتحدر دموعهم من هذه المهمة رعباً وفرقاً ؛ أما ولدك ، فياما كان أشجع ، وياما كان أربط جأشا ! ! إن عَبرة واحدة لم تنسرق من عينيه ، بل إنه كان يحثني ويحرص جد الحرص على أن أختاره ، حتى إذا فعلت تقدم متبختراً يجر رمحه الظمئ ، ويغلى صدره بنار الانتقام يود لو يصبها على طروادة وأبنائها جميعاً ! ! وما إن فُتحت علينا ، وأبنا منها بالغنائم

(١) هوبيروس فى مأساة راسين (أندروماك) د - خ

(٢) يحسن بالقارئ أن يذكر أن أخيل قتل قبل سقوط طروادة .

والأسلاب والسبى حتى نظرت إليه قبل أن يبحر فما وجدته يشكو رَمية . ولا يئن من جرح ، ولا أثر فى جسمه لخدش مما تصنع الحرب ، وما تسجل فعال مارس » .

وزُهى أخيل من كثرة ما أثنيت على ولده فراح يتخايل ويدل وسط شجر البَرْواق[1] . . . وكانت جموع من أشباح الموتى تملأ الرحب ، وقد جلس كلٌّ أوهام على وجهه يبكى ويشكو بثه لغير سميع وقد رأيت بينهم شبح صديقي التيلامونى – أجاكس – وكان يحدجنى فى الفينة بعد الفينة ، ولكنه لم يشأ أن يكلمنى ! ! آه ! إنه لا يزال ينقم علّى ما شجر بينى وبينه من نزاع على عُدة أخيل (بعد مقتله) ، وما كان من طلب ذيتيس[2] ألا يلبس دروع ولدها سواى، ثم ما كان من تأييد مينرفا للأم الرؤوم فيما طلبت. لَقد كان انتصاراً لى . كم كنت أوثر ألا يكون ، لأنه كان فيما يبدو سبب مقتل أجاكس المغوار الذى لم يكن فينا من هو أشجع منه إلا أخيل نفسه . . ولقد وجهت إليه ألين الخطاب لأَفُلَّ من سورة غضبه . فقلت له : « أيها العزيز أجاكس ، يا ابن تيلامون المجيد ، أما تستطيع أن تغضى وأنت فى الدار الآخرة عما شجر بيننا بسبب هذه العدة المشئومة ؟ لعنتها الآلهة من عدة كُتبت فوقها صحيفة موتك ، فخسرنا فيك أشجع فرساننا وأعظم مقاتلينا ! إنا ما نفتأ نبكيك ونشكو رُزأنا فيك ، ونعد فقدك كفقدنا أخيل نفسه ! ولكن لا تثريب على أحد قط ، فجوف كبير الآلهة الذى ما ينفك يصب لعنته على جيوش آخايا ، هو الذى قضى عليك بالموت . أيها البطل هلم نحوى كيما تسمع إلى الكلم الطيب الذى أجهد أن أترضاك به ؛ لتخمد جذوة الغضب علىّ فى نفسك ، ولنحسم ما بيننا من خصام ! » بيد أنه ما حرك شفتيه . بل لوى عنانه وانخرط فى جماهير الأشباح الهائمة ، وترك الرغبة الملحة المشتعلة فى صدرى شوقاً إلى تكليمه تنطفئ رويداً . . .

---

(١) شجر كان يزرعه اليونانيون على قبور موتاهم وقد ذكره الفيروز أبادى .

(٢) أم أخيل وهى إحدى عرائس الماء .

فقلبت نظرى فى الأرواح القريبة عسى أن أعرف منها أحداً فأتحدث إليه ، فلمحت بينها مينوس سليل جوف الأكبر ، وكان يجلس على عرش ممرد للقضاء بين الموتى ، وفى يمينه صولجانه الذهبى الثمين ، ومن حوله زرفت جموع سكان هيدز ، فمنهم الواقف ومنهم الجالس ، ومنهم المنتصب يشرح للقاضى شكواه ، ويبثه بلواه ، بينا قد أهطعت الرؤوس وانحبست النفوس ، وتكأكأت الموتى عند البوابات الكبيرة الهائلة تنتظر دورها . . . ثم راعنى أن أرى بين تلك الجموع أوريون الجبار يسوق قطعانه التى ذبحها بيديه فى الدار الأولى ، وهو يرعاها على أوراق البرواق . . . ورأيت فيمن رأيت تيتوس الجبار ، سليل هذه الغبراء ، وقد كان منبطحاً على الأرض بحيث يشغل فضاء تسعة أفدنة ، وعلى كل من جنبيه أفعوان هائل أرقم يتغذى بمضغ من كبده الكثير الدامى . وينغبُ من أحشائه الغلاظ ، جزاءً بما حاول أن يستذل لاتونا اللعوب الطروب ، عشيقة جوف سيد أولمب ، التى فرت من جهة فى بطائح بيتو إلى فراديس بانوبيوس . ثم رأيت تانتالوس فى ضِعف من العذاب ! رأيته يتخبط فى عينٍ حمئةٍ من حميم ، وقد غاصَ فيها إلى ذقنه ، والموج يضرب وجهه ويسعفه ، وهو مع ذلك يلهث من الظمأ ، لا يجد ما يبل به غلته ، أو يطفئ جُوَاده[1] وصداه ! فهو إن حنى رأسه غمرته الحَمَم ، وإذا رفع جسمه كزّت الأرض على قدميه بأمر ربها فهو فى عذاب مقيم . . . ولله أشجار الفاكهة دانية قطوفها فوق رأسه ، من رمان حلو وتفاح عطرى ، وتين معسول وزيتون ، كلما اشتهى أن يقطف ثمرة وكاد ، هبت الرياح عاتيةً فذهبت الغصون عاليةً فى السحاب ! ! . . ثم رأيت سيفوس ذا الأنياب يضنى ويشقى ويتعذب ؛ يدفع أمامه حجراً جلموداً عظيما فيجعله فى رأس جبل ، حتى إذا انتهى إليه غاصت الأرض من تحته بقوة خفية فكانت بئراً عميقة ، فيهوى الحجر من علٍ فيعود المسكين إلى نَصَبِه عوداً . . . على بدء ، ويتحدر عرقه على جسمه العظيم ، ويتبخر من رأسه كأنما ينقذف من بركان ! . . .. ثم

(١) الجواد والصدى والظمأ

شهدت هرقل الحديدى القوى الجبار . . . شبحه فقط ، لأنه هو قد منح بركة الآلهة وخلودها ، فهو أبداً يحضر ولائمها فى شعاف الأولمب . . . شهدته يحتضن ابنة جوف الجميلة المفتان ، هيب ذات القدمين الناصعتين والنعلين الذهبيتين ؛ رأيته وأشباح الموتى ترف من حوله صافاتٍ كالطير ، ثم يَقْبضن . . . وراعنى أن أراه عابساً كالحاً كقطعة من الظلام ، وقد حملق بعينيه فى الأرض وفى يديه قوسه وسهامه يوشك أن يرميها ، وعلى وسطه حزامه الرائع المموه بالذهب ، وقد نقشت عليه صور مئات من الدببة والذؤبان والسباع ، ينقدح الشرر من عيونها ، دائبة فى عواء وزئير وتقاتل ونهش ، صنعةٌ معجزة لم يقدر على مثلها أحد من قبلُ ولا من بعد . . . وما كاد يتبينى حتى عرفنى ، وظل يقلب فى عينيه السادرتين ، ثم قال لى : « آه يا ابن ليرتيس النبيل ذا المجد ما أتعسك ! ! ما أظنك إلا معنياً ببعض المجازفات التى كنت أشغف بها فى حياتكم الدنيا . . . ها أنت ذاترانى هنا ، فى ظلمات هيدز ، عبداً رقيقاً لإله أحقر منى شأناً وأقل قدراً ، لأننى وأنا ابن جوف الأعظم قد كتب علىَّ أن أشقى هنا لِأَصِل آلام الحياة ولأواءها . . . أتصدق أنه يأمرنى أحياناً أن أسوق كلبه ، مع مافى هذا الأمر من سخرية وتحقير ؟ ولكنى لن أنسى أنى جذبته من مملكته هيدز إلى نور الحياة الدنيا بمساعدة أخى هرمز ، وبمعونة مينرفا ذات العينين الزبرجديتين » ثم هام على وجهه فى ظلمات مملكة بلوتو ... ثم تلبثت أنا مكانى راجياً أن ألقى غير من لقيت من أرواح الأبطال الذين عرفتهم فى الدار الأولى ، أولئك العظماء ذوى العزة والمجد . . . وكم وددت أن أرى بيريثوس وثيذيوس سليلى الآلهة . . . بيد أن جموع الموتى الحاشدة التى أقبلت تصرخ قذفت الرعب فى قلبى . وخفت أكثر أن ترسل برسفونيه ملكة هيدز فتفعل بى الأفاعيل . . . فآثرت أن أسرع إلى مركبى ، وأمرت الملاحين فأقلعوا ، وجلسوا على الظهر ، وحملنا تيار سريع عبر البحر المحيط بعد أن أعملنا المجاذيف وقتاً غير طويل .

تمام قصة اوديسيوس

١ – السيرينات المغنيات

٢ – سكيللا الهولة

«والآن ، وقد احتملنا العباب ذو الزَّبَد ، وذرعنا اليم المترامى ، وعتمنا نضرب فى موج كالجبال ، فقد وصلنا بعد لأى إلى جزيرة إيايا المرجانية حيث ترتع أورورا ابنة الفجر الوردية وتلعب ، وحيث مَطلع الشمس وراء البحر المضطرب ... وألقينا مراسينا ، وتلبثنا فوق رمال الشاطئ نرقب انبلاج الفجر ، حتى إذا لاحت تباشيره أرسلت طائفة من رجالى إلى قصر سيرس فأحضروا جثمان إلينور (الذى خر من السطح فدق عنقه) ثم إننا بكيناه أحر البكاء . وجمعنا له من الحطب والخشب ما وسعنا ، وطرحناه وسط الكومة التى صنعناها من هذا الوقود ، وطرحنا معه سلاحه ، وأقمنا إلى جانبه مجدافه العظيم ، ثم أدَّينا له الشعائر الجنائزية التى أرويناها بأذكى دموعنا ، وأشعلنا النيران بعد إذ أقمنا نُصْباً جليلا ، تحية وذكرى ولم تعلم بعودتنا سيرس [1] بيد أنها مع ذاك أقبلت فى ربرب من وصيفاتها الحسان الأتراب يتهادين نحونا ، حاملات دناناً من أكرم الخمر ... ووقفت بيننا العروس الهيفاء ثم قالت : « ويحكم أيها الاشقياء كيف حَلا لكم أن تموتوا مرتين بينما يموت جميع الناس مرة واحدة ؟ ولكن تعالوا هلموا إلى طعامكم ، وتحسَّوا من هذه الخمر لتقضوا يومكم فوق رمال الشاطئ فى شراب وآكال ، فإنكم ضاربون فى ظلمات ذاك البحر فجر غد وإنى منبئتكم عما يروعكم فى طريقكم عسى ألا تضل بكم . ويا ما أكثر ماتتجشمون من أهوال فى البر والبحر ! » ولبينا دعوة الربة المضياف ، فأقبلنا على طعام شهى وشراب رَوِى طيلة يومنا ، حتى إذا توارت ذُكاء

(١) نطقها اليونانى كيركة ونحن نفضل النطق الحديث دائماً

بالحجاب ، وشملنا ظلام الليل ، تطرّح رجالى فوق الرمال النائمة ، ثم انتحيت أنا وسيرس ناحية ، وجلست قبالتها ، وراحت هى تحدثنى وتقول : « أما وقد أوشكت متاعبك أن تنتهى ، فأصغ إلى ، إفقه ما أقول لك وتدبره ، فهو وحى يوحى إليك من السماء ينفعك إذا جدبك الجد ، وأزفت حولك الآزفة... ستصل أول ما تصل فى رحلتك عبر هذا البحر إلى جزيرة السيرينات الشاديات اللائى يسحرن بغنائهن القلوب ، ويخلبن بجرسهن الألباب ، ويطّبين [1] كل من أوصله سوء حظه إلى جزيرتهن بحلو تطريبهن وجميل شدْوهن حتى ليلصق بأرضهن وينسى آله وأوطانه . ولا يخطر فى باله أن يعود إلى بلاده ليهنأ بلقاء زوجه الحبيبة وأولاده الأعزاء ، بل يجمد مكانه من الشاطئ حيث يكون بمسمع من السيرينات وتكون عن يمينه وعن شماله رفات الضحايا الكثيرين الذين عرجوا من قبل ليشنفوا آذانهم بغناء أولئك العذارى فجمدوا مثله ، وذهلوا عن أنفسهم حتى ذووا ، وذبلوا وضووا ، وحاق بهم الفناء بينا يخطر السيرينات بين شجر البرواق متهاديات فوق السندس الحلو الجميل ... فأوصيك أن تُفرغ فى آذان رجالك من سائل الشمع قبيل أن تبلغ أرضهن ، فإنهم بذلك لا يسمعون شدوهن ولا يسحرون بغنائهن . أما أنت ، فلك أن تنصت إلى ذاك الغناء إن شئت ، بيدأنه ينبغى أن يشد رجالك وثاقك فى قلع سفينتك شداً قوياً محكما ، فيربطوا ذراعيك وساقيك بأمراس وأحبال ، حتى لا يسبيك ما يُشنف أذنيك من غناء وشدو فلا ترضى إلا أن تثوى بأرض السيرينات ، فإذا اشتد بك الوجد من سحر ما تسمع وطلبت إلى رجالك أن يخلوا عنك لزم أن يزيدوا فى رباطك ويحكموا وثاقك أضعاف ما فعلوابك من قبل ... فإذا جُزْتم تلك الجزيرة وغابت مناظرها عن أبصاركم ، فلرجالك أن يطلقوا سراحك ... على أننى لا أدرى أى السبل ينبغى أن تسلكوا بعد هذا ، فهنالك طريقان أحلاهما مر ، وأيسرهما عناء وضر .

---

(١) اطبى القوم فلاناً خانوه وقتلوه .

وإنى واصفة لك كليهما وأدع لذكائك أن يختار لك ... إنكم بالغون فى سبيلكم إلى صخور هائلة ناتئة فى البحر ، تتكسر فوقها أواذيُّه ، وترتطم بجلاميدها أمواجه ، وتدافعه على آحيادها أمفتريت (زوجة نبتيون) الجبار . وقد أطلق الآلهة على هذه الصخور اسم (إيراتيك) وهى قِلال موحشة لا يستطيع مخلوق أن يقترب منها ، ولا يجسر الطير أن يهبط فيها ، بل طير أبينا جوف نفسه الذى يحمل إليه غذاءه الإلهّى المقدس لم يجازف مرة فحط فيها يستجم من سفر ، ولما يعلم من أنها مهلكة زَلقةٌ . ولم ترس عندها سفينة قط إلا ارتطمت فوق نتوئها وهوت إلى القاع بما حملت ، أو ابتلعتها العواصف الهوج فغابت حيث لا يدرى أحد . ولا يعرف أحد سفينة جازت مهالك هذه الصخور إلا السفينة (آرجو) التى حاطتها جو نو [1] برعايتها رحمة بجاسون وحناناً من لدن سيدة الأولمب ، حين أقلعت من جزيرة إيايا ؛ وقوام تلك الصخور هضبتان شامختان شاهقتان ، تمثل إحدهما صنما هُولةً ضخما يضرب فى السماء بَروْقيه وتتراكم فوقه منذ الأزل ثقال السحاب التى لا يذيبها خريف ولا صيف ، لأن الشمس لم تنشر عليها أشعتها قط ... ولو أن أحداً من العالمين له عشرون يداً وعشرون رجلاً ما استطاع أن يرقى عليها أبداً لأنها ملساء ناعمة كأنما صقلتها يداً مثال صناع ... وإن فى سنده [2] الغربى لكهفاً سحيقاً نقرثمة باسم إربوس [3] ...، وإنى لأحذرك أن تقترب منه حين تجوز به ياأوديسيوس ، بل كن بنجوة منه ، بعيداً بقدر ما تستطيع ، أو على الأقل على مرمى سهم مراش من سفينتك إلى وصيده ، ذلك لأنه مأوى سكيللا [4] المخيفة التى تدَوِّى بصوتها وعوائها ، ويَفرق الناس والآلهة من وجهها المكلثم القبيح ، وحسبك أن تعلم أن لها اثنتى عشرة قدما كلها أمامية ، وأن لها ستة أعناق

---

(١) هى حيرا زوج زيوس كبير الآلهة .

(٢) سنده جانبه

(٣) إله الظلمات الذى تزوج من أمه (ليلة)

(٤) ونطقها الأصلى سكوللا

طوال ينتهى كل منها براس كبير فظيع ، سلح بثلاثة صفوف من أنياب حداد أصلها ثابت وحشوها سم زعاف ، وهى تربض فى غور كهفها السحيق ، بينما أرؤسها بارزة من فوهة الكهف تبحث فى الماء عن الدلافن وكلاب البحر ودواب الماء وجميع حيوان مملكة أمفتريت وليس يجسر بحار أن يفخر بأنه نجا مرة من شرها فهى تنقض كالصاعقة على السفينة العابرة ، وتلتقم بأفواهها الستة الجائعة ستة من بحارتها مرة واحدة تقضمهم قضما ... وتلقاء هذه الهضبة ، هضبة أخرى على مرمى سهم يا أوديسيوس وقد نَمت فوقها تينة برية كبيرة ذات أفنان وعساليج حانيات فوق الماء ، وتحتها عين خارِبْدِيس الحمئة التى يغيض فيها ماء البحر كله ثم تعود فَتَمجُّه ثلاث مرات فى اليوم . ويك أوديسيوس ! خذوا حذركم ! فوالله إنكم إن دنوتم منها فإنها تبتلعكم ، ولا يستطيع نبتيون نفسه بعد ذلك أن ينجيكم وإنى أرى أن تدنوا من الصخرة الأولى فتلتقم سكيللا ستة منكم ، فهو خير لكم من أن تغرقوا جميعاً » وسكتت سيرس ، وقلت أسائلها : « بحق الآلهة عليك ياربة أن تخبرى : أما أستطيع أن أنقذ رجالى المساكين من سكيللا إذ نجونا من خارِبْدِيس ؟ » فقالت تجيبنى : « أيها التعس ، أما تفتأ تحن إلى مجازفات الحرب وخوض غمار الوغى ؟ إنه لا سلطان للآلهة نفسها على سكيللا ، وهى ليست مخلوقاً مما يجوز عليه الفناء ، بل هى غول سرمدى شديد المراس ، شكس شديد الشراسة ، لا يغالب أحداً إلا غلبه فأطلق سفينتك للريح ، ولذ منها بالفرار . وإياك أن تفكر فى التسلح لها ، فهى لابد ملتقمة ستة من رجالكم ، وإذا حاولت مدافعتها فإنك منهم ! ! فإذا بعدت فاضرع إلى كراثيس ، أم هذه الهولة التى هى إلى الأبد طاعون للبشر ، وأن ترد كيد ابنتها عنكم فلا تتبعكم فى سبيلكم ولا تلتقم منكم أكثر مما فعلت ... وإنكم بالغون (تريناشيا) بعد هذا حيث ترعى الربتان الحسناوان : لمبتيا وفيتوزا ابنتا هبريون من عروس الماء نيرا ، قطعان أبيهما السبعة التى يشمل كل منها خمسين شاة ذوات صوف ناعم كالثلج ... وكل هذه الشاء يرعى ثمة باسم رب الشمس العظيم . فإذا كنتم حقاً

تتشوقون لبلادكم ، وتتحرقون شوقاً إليها ، فاحذروا أن تصيبوا تلك القطعان بسوء ، فإنكم إن فعلتم غرقت بكم سفينتكم وذهب رجالك أباديد . أما أنت ، فتنجو بعد لأى وبعد نضال وأهوال ، فتصل إلى بلادك ملوماً محسوراً ! »

وتنفس الصبح الندى الرحى فذهبت تتبختر وتجرر أذيالها إلى قصرها المُنيف ، وذهبت أنا إلى الشاطئ فأيقظت رجالى ، وأمرتهم فجروا السفينة حتى استوت فى الماء ، ورفعت مراسيها ، ثم جلس كل إلى مقعده وأعملوا أيديهم فى مجاذيفهم فتدافعت الفلك فى البحر ، وما هى إلا لحظة حتى أرسلت سيرس ، الربة المقدسة ، نسيما رُخاءً كان خير رفيق لنا ، إذ كفانا عناء التجديف ، فتطرحنا فى المركب ، واشتدت الريح فى غير عصف فأسرعت بنا دِرَاكا .. ثم كلمت رجالى وفى قلبى وجيب فقلت . « أيها الأصدقاء تعالوا أحدثكم عما تنبأت به سيرس لنا فى رحلتنا هذه ، فإنه سيان إن أفلتنا من العذاب أو تردينا فيه ؛ بل أردت أن أطلعكم على ما خبأته المقادير لنا لتأخذوا حذركم ، وتبرموا أمركم ؛ ويكون كل على نفسه وكيلا . لقد حذرتنى أن يستمع أحدكم إلى غناء السيرينات الشاديات وحلوْ تطريبهن ، وأجازت لى وحدى أن أصغى إليهن ، بيدأنها أوصتنى أن اخبركم أن تشدوا وثاقى بأمتن الأمراس فى سارية السفينة فلا تطلقوا سراحى حتى نبعد عن جزيرتهن ، وكلما رجوتكم أن تخلوا عنى شددتم وثاقى أكثر فأكثر (هذا إن أردتم أن نكون بنجوة من الهلك فى تلك الأرض الملعونة) » . وهكذا نبهت غافلهم بتحذيرى . ثم إننا انطلقنا فى اليم ، وأخذنا نقترب من جزيرة السيرينات ، وعرفت ذلك لما هدأت الريح فجأة ، ونام الموج ، وخفتت أنفاس الطبيعة ، وشمل الركود كل شئ حولنا ، كأنما مسحت يد مقدسة علوية كل هذا الوجود الرحب . ونشط الملاحون إلى مجاذيفهم فالتمع تحتها بساط الماء ، ثم نشطت أنا إلى قِدْر من الشمع فعالجته بسكين ، ثم قوَّمته براحتى وتركته كى يلين قليلا فى أشعة الشمس ، ثم جعلت منه فى آذان رجالى واحداً فواحداً ... واستسلمت

لهم بعد هذا فشدوا وثاقى فى شراع السفينة شداً محكما ، وجلس كل إلى مجدافه ، وانسربت الفلك فى الماء تشقه وتجرجر فيه ... وصرنا على مدى ما يبلغ الصوت من الجزيرة إلى آذاننا فأصغيت وأصغيت ، وإذا السيرينات الشاديات يتغنين هكذا :

« أوديسيوس أيها الزعيم ! يامن لهج بذكره كل لسان »
« ألق فى جزيرتنا مراسيك يافخر اليونان »
« تلبّثْ عندنا أيها العزيز وشنف أذنيك بأغانينا »
« فما من أحد جاز بجزيرتنا حتى عرج يتزود من هذا الغناء »
« ثم يقلع أسعد ما يكون ، وأفطن ما يكون »
« ذلك ونحن نعلم من أنباء ما أصابك كل شئ »
« ما خضت من معمعان طروادة ، وما أصابتك الآلهة من مصيبة ، وما لقى قومك فى كل مكان »
« تعال تعال ... هلم نحدثك فعندنا علم كل شئ »

وهكذا شرع العذارى يسكبن إرنانهن الجميل فى قلبى ، وكأنما كن ينفثن فيه السحر فيصغى وتلح عليه الرغبة فى الإصغاء ، ورحت أنا أضرع إلى قومى أن يفكوا قيودى ويطلقوا سراحى ويخلوا بينى وبين السيرينات المطربات فلم يسمعوا لإشاراتى ولم يستجيبوا لتوسلاتى ، بل هبَّ يوريلوخس وپرميديس فضاعفوا أغلالى وشدوا على حبالى ... ثم بعدنا ... وظللنا نبعد ونبعد ، حتى إذا كنا حيث لا يصل إلينا من شدو السيرينات شىء نهض رجالى فأزالوا ماكنت قد جعلته فى آذانهم من الشمع ، ثم عمدوا إلى فأطلقوا سراحى ... وما كادوا يفعلون حتى أبصرت فى ظلام البعد موجاً كالجبال كأنه ظلمات بعضها فوق بعض . ورأيت دخاناً كثيفاً ينعقد فى الجو ، ثم إذا بى أسمع رعداً قاصفاً يصم الآذان ! وقد ذهل رجالى عن أنفسهم ، وطارت المجاديف من أيديهم فلم تعد تجديهم نفعاً ، ووقفت السفينة كأنها الأرجوحة على أرؤس الموج ؛ وذهبت أنا أشجعهم رجلا

فرجلا : « أيها الرفاق ! هانحن نلقى أولى عقباتنا ، وهى ليست على كل حال أشد هولا من مصيبتنا يوم حبسنا السكلوب فى كهفه السحيق ، وكيف احتلت لفرارنا من وجهه ، وسيأتى يوم نذكر تلك الشدة المفاجئة بمثل الغبطة التى نذكر بها الشدائد السوالف ... هلموا إذن فاثبتوا فى أماكنكم ، واصمدوا لهذا اللج المصطخب ، واضربوا فيه فى جلد وصبر ، عسى أن يكلأكم جوف ربكم فينجيكم منه وأنت أيها الربان أصغ إلى ، إنك تقبض على ناصية الحال فتحاش أن تقترب من هذا الدخان وتلك الأمواج الثائرة ؛ وابتعد ما استطعت عنها ، وخذ سبيل هذه الصخرة ، ذلك أدنى ألا تقذف بنا فى حمأة الخطر ... » وظللت أنفخ فيهم روح الصبر حتى فاءوا إلى أمرهم فاستقتلوا فى مجاهدة الأمواج استقتالا ... وتسلحت أنا بكل ما استطعت من عدة . وجعلت فى يدى رمحين طويلين ، ووقفت أرقب سكيللا الهولة من بعد ، ولم أجسر أن أذكر كلمة عنها لرفاقى حتى لا تفرغ أفئدتهم فرقاً فيهربوا من عملهم ويكتظوا فى بطن السفينة مخافة أن يمسهم منها أذى ... وشرعنا نعبر البوغاز ، ... ولشد ما أفزعنى أن أرى سكيللا ترمقنا وتتلمظ ، وقد انتصبت كالموت على الشاطئ القريب ، ثم أرى فى الوقت نفسه خارْبديس على الشاطئ القريب ، ثم أرى فى الوقت نفسه خاربّديس على الشاطئ الآخر تحشرج فى حلقها الرحب الفظيع عباب الماء تمجه ، فكأنما تقذف من جوفها ماء فائراً يعلو فى الجو كالحميم ، ثم يهمر ويله فى كل فج ، وتعود فيفيض فى البحر من بلعومها ، ثم تقذفه ، وهكذا دواليك ... ياللروع ، وياللفزع الأكبر ! تالله لقد كنا ننظر ما تبدئ خاربديس وماتعيد فى جزع وفى هلع ،بينما كانت سكيللا تتوثب وتتوثب ثم ترسل أرؤسها الستة فتلتقم ستة من رجالنا كانوا واأسفاه أشجعهم جميعا ، وكان قلبى يتمزق حين راحوا يهتفون بى وينادوننى باسمى وأنا كالذى أسقط فى يديه ، ما أستطيع شيئاً فأصنعه ، بل انظر إلى أذرعهم وأرجلهم تتقلب فى الهواء وهم يصيحون ويُعْوِلون ، وأنا ساكن ذاهل أقلب كفى ولا أفعل شيئاً آخر ! واحزناه ! ! ما كان أشبه سكيللا المتوحشة بصائد السمك الذى

أطعم سناره وأرسلها من فوق صخرة تداعب السمكة المسكينة ، حتى إذا حان الحين جذبتها إلى أعلى تترنح هنا وهناك . هكذا كانت هذه اللعينة التى جذبت إلى كهفها أشجع رجالنا وراحت تقتات بهم بين الصراخ والبكاء ، وبين التوجع والأنين ، وكلهم يمد إلىّ ذراعيه مستنجداً مستغيثاً فى قنوط ويأس ! ! أبداً ما وقعت عيناى فى جميع مخاطراتى ، على منظر أبعث للأسى ، وأمض للنفس ، وأجرح للفؤاد ، من ذلك المنظر الرهيب !

وما كدنا نفلت من سكيللا وخاربديس بعد تلك الفاجعة حتى اقتربنا من أرض الشمس ، حيث ترعى قطعان هيبريون[1] الجميلة الكثيرة ذات الفراء الناصعة . . . ولقد كنت أسمع ثُغاءها ورُغاءها إذ أنا على ظهر سفينتى فى عرض البحر وسرعان ما ذكرت ما قاله لى الكاهن الطيبى الأعمى ، تيرزياس فى هيدز ، عن هذه القطعان ، ثم ما أنذرتنى به سيرس سيدة إيايا من من وجوب الابتعاد عن هذه الجزيرة التى كانت منذ الأبد غواية البشر ، حتى قمت فى رجالى فجعلت أحذرهم وأقول : « أيها الرفاق اسمعوا : هذه هى جزيرة الشمس الهائلة التى حذرنا تيرزياس الكاهن الطيبى من الرسو بها أو الاقتراب منها ، وكذلك حذرتنى منها سيرس ربة إيايا . فإن كل ما لقينا من أهوال ليس شيئاً إلى الهول الذى يحيق بنا إذا حللنا بها .فاسمعوا نصحى وسيروا بنا نذرع هذا البحر نسلم من شر مستطير ، وبلاء لا يجيرنا منه مجير » وكانوا يصغون إلىّ فى حيرة وذهول ، وماكدت أفرغ حتى انتصب يوريلوخوس يرد على فى جفوة وضيق : « أوديسيوس ، أيها القاسى الطاغية ، أما أوهنت كل تلك الشدائد جَلدَك ؟ أمخلوق أنت من حديد فما ترق وما تلين ؟ أتأبى على رجالك الموهونين المكدودين أن يرسوا بهذه الجزيرة الفيحاء المعشبة ليريغوا مما بها من آلاء ، وليطعموا من خيرها الكثير ؟ اتصرفنا عنها بنزقك وقلة بصرك لنخبط

---

(١) فى بعض المصادر أن الشمس غير هيبريون . وفى بعضها أنها هو . وفى بعضها أنه أحد سواس عربتها .

طول الليل فى هذا البحر الأجاج خبط عشواء مع ما تكون الريح عليه حينئذ من شدة وعنف؟ خبرنا أيها الأحمق ماذا نصنع إذا عصفت بنا نكباء من الجنوب تحطم فلكنا ولا ينجينا من بطشها أحد حتى الآلهة؟ أليس الأفضل لنا أن نرسو فى الجزيرة فنقضى بها ليلنا ، حتى إذا انفلق الإصباح أقلعنا منها على هدى؟! » .

وحبذ الملاحون ما قال ، فدار فى خلدى أن لابد مما ليس منه بد ، وأن لابد من وقوع القارعة الكبرى بنا ، فقلت فى كلمات يائسات : « لا ضير يا يوريلوخوس! وليس بى من بأس أن أخضع لما ترى الجماعة ؛ ولكن تعالوا جميعاً فأعطونى موثقكم ألا تذبحوا شاة ولا تجزروا نَعمة مما هنا من هذه القطعان ، مهما ألح عليكم السَّغَبُ ، وأضواكم الجوع . . . . بل يكون حسبكم ما حملتم من آكال من عند سيرس » .

وأقسموا أغلظ الأقسام أن يفعلوا ، ثم يمموا بالفلك فى جون هادئ فوق الشاطئ ترتفع فى وسطه نافورة رائعة ؛ فأرسوا ثمَّ وتدفقوا وراحوا يعدون وجبة المساء ، بيد أنهم سرعان ما نسوا مسغبتهم حين تذكروا إخوانهم الذين غالتهم سكيللا ، وراحت تتغذى بهم أمام كهفها السحيق فأخذوا يبكونهم ويذرفون عليهم دموعهم حتى غلبهم النعاس ، فناموا . . . وفى الهزيع الثالث من الليل ، حين عبرت النجوم فكانت فى كبد السماء ، ساق جوف رب السحاب الثقال ريحاً جابت البر والبحر ، وغمرتها بماء منهمر ، ثم عقد فى الكون ظلمات فوق ظلمات يتدجى بعضها فى بعض . . . ثم أشرقت أورورا الوردية ، فنهضنا من مراقدنا ، وسحبنا الفلك إلى غار كان لبعض عرائس البحر يرقصن به أو يستروحن فيه ، وما كاد شملنا يجتمع ثمة حتى نهضت فى رجالى أقول : « أيها الرفاق إننا ما ينقصنا غذاء ، وما بنا من حاجة إلى أكل ، فمعنا من ذلك الشئ الكثير ، فإياكم أن تمسوا هذه القطعان بأذى ، وحسبكم أن تعلموا أنها ملك خالص لربة الشمس التى تراكم أينما كنتم » وهكذا أيقظت فى نفوسهم النخوة . ثم إنا لبثنا فى

هذه الجزيرة شهراً ما نريم عنها وما كان لنا إلى غيرها متحول ، ذلك لأن الدبور[1] ظلت تهب من الجنوب فى صرامة وشدة ، فإذا هدأت ، لم تهدأ إلا لتهب ريح شرقية أشد منها عنفاً . ولم يمسوا قطعان الجزيرة السائمة بأذى مادام لم ينفذ ما كان معهم من طعام ، فلما تناقصت ميرتهم راحوا يتلمسون صيد البر والبحر ، أما أنا فكنت أجوس خلال الجزيرة عسى أن التى إلها أضرع إليه فيجعل لنا من أمرنا مخرجاً . . . وبينما أنا أجوب الجزيرة إذا بى أبعد كثيراً عن رفاقى ، فبدا لى أن أسكن إلى منعطف دافئ هادئ على سيف البحر ، فأغسل[2] يدى مما علق بهما من قذر ، ثم جلست أصلى للآلهة وأدعو واحداً بعد واحد أن تهيئ لنا من شدتنا مرفقاً ، ولكنها جميعاً — واأسفاه — أصمت آذانها عن دعائى ، ثم أرسلت علىّ طائفاً من الكرى . . . فنمت نوماً عميقاً . . . بينما كان يوريلوخوس التعس يوسوس إلى رفاقه فيقول : « أيها الأخلاء ! أنا أخوكم فى البلاد فاسمعوا وعوا . ليس أشنع من الموت إلى النفس ، ولكن الموت جوعاً هو أشنع ألوان المنايا التي يرتجف منها الإنسان . . . هلموا . . . لنذبح من هذا الشاه والنعم ، ولنضح للآلهة بأضخم ثيران الشمس ، ولننذر أن نبنى للرب المبارك هيبريون هيكلا عظيما حالما نصل سالمين إلى إيثاكا ، ولننذر أيضا أن نجعل فى الهيكل من الطُّرف والتحف ما يرضى الإله ويكفر عن سيئاتنا . أما إذا آثر أن يغرق فلكنا وتضافرت معه جميع الآلهة على ذلك ، لأننا ألحقنا أذى بعدد من قطعانه ، فإنى أول من يجاهر بقبول الموت مرة واحدة فى أعماق هذا اليم ، على أن أموت هذا الموت البطئ جوعاً ! » وزين لهم ما قال ، فاستاقوا أسمن ما فى القطعان التى كانت ترعى العشب قريباً منهم ، ثم أطعموها أنضر أوراق الشجيرات الباسقة إذ فرغ كل مالديهم من الشعير ، ثم وصلوا للآلهة ، وجزروا الحيوانات البائسة ثم سلخوها ، وفصلوا الأفخاذ والشحم وقذفوا بها إلى النار تقدمة للآلهة وقرباناً . . . ولم

---

(١) ريح الجنوب ضد الصبا

(٢) كان غسل اليدين كالوضوء عندنا شرطاً لا تصح الصلاة اليونانية بدونه .

يكن معهم خمر ليتموا بها الشعائر القدسية ، فقذفوا فى النار بدلا منها ماء قراحاً . . . وجلسوا بعد هذا يعدون شواءهم من الحوايا[١] والكبد وما إلى ذلك مما فى جوف البهيم ، حتى إذا طعموا ملء بطونهم انطرحوا فى مراقدهم بينما استيقظت فجأة من سباتى ونهضت لأنطلق فى طريقى صوبهم . وماكدت أشرف عليهم حتى ملأ خياشمى قتار[٢] ما فعلوا ، فوجمت وجوماً شديداً ، ثم أجهشت ، ثم استخرطت فى بكا طويل وضرعت إلى الآلهة وظللت أقول . « أهكذا يا أرباب السماء تلقون علّى ذلك الطائف من الكرى فيفعل أصحابى ما فعلوا إذ أنا أغط فى نوم عميق ؟ » . . . وطارت لمبتيا بالخبر المشئوم إلى إله الشمس فثار ثائره وطفق يصخب ويهتف بالآلهة ويقول : « يا جوف العلى ، وأنت يا آلهة السموات ! إثأرى لما فعل السفهاء من رجال أوديسيوس ! لقد اجترأوا فجزوا من نعمى وشأنى التى هى بهجتى وأنسى والتى أرمقها أبداً من علياء السماء ، فإن لم تنتقمى لى فوعزتى لأهبطن بشمسى إلى هيدز فأنير آفاقها وأضفى أضوائى على الأشباح ثمة ، وأدع هذا العالم المشرق الجميل يضرب فى دياجير ما مثلها دياجير » . وأجابه رب السحاب الثقال فقال : « يا إله الشمس على هينتك ، بل ظل مشرقا على بنى الموتى الدائبين فى تلك الأرض ، وإنى مسخر صواعقى على سفينتهم فى لمح البصر فتذهب بها وبهم أباديد»...أما من أخبرنى هذا فقد حدث به هرمز رسول الآلهة...ثم وقفت فيهم أنتهرهم وأنعى علهم ولكن.. وأسفاه! أى انتهار وأى نعى وقد سبق السيف العذل؟! ثم حدثت المعجزة! ! وبدأت السماء تشهد آياتها فقد تحركت الجلود الملقاة على الأرض وزحفت نحونا ثم سمعنا مُضَغ اللحم الغريض سواء ما ظل منها دون أن يمس وما علق منها بالسفافيد ،وقد أرسل ثغاء وخواراً كأنها لا تزال على قيد الحياة ! . . وهكذا ظل رفاقى يجزرون كل ثور حنيذ من ماشية إله الشمس ويغتذون بحواياها طوال ستة أيام ، حتى إذا كان السابع أمر جوف

(١) الأمعاء .

(٢) ريح الشواء .

العاصفة فهدأت والبحر فتطامن ، فأهرعنا إلى الفلك فأنزلناها فى اليم ، ونشرنا الشراع ، وأقلعنا حيث لا ندرى ماذا يراد بنا ! ! ثم غابت الأرض عن الأنظار ، ولم يكن إلا البحر من ورائنا وأمامنا وعن شمائلنا وأيماننا . . . ثم السماء فوقنا . . . ثم شرع زفيروس (١) يهب ويهب ، ويقلب اللج من حولنا ، ثم اشتد واشتد وصار ريحا عاصفاً هوجاء ، كسرت قلاعنا وحطمت سكاننا ، وذهبت بقلب الربان المسكين فلم يعد له صبر ولا جلد . . . ثم سلط علينا جوف صواعقه فقصمنا ، وحطم سفينتنا فترنحت أول الأمر ، ثم غاصت إلى الأعماق ، وطفونا إلى سطح البحر الغاضب بلا أدنى أمل فى أى شئ بله العودة إلى بلادنا . . . ولقد كنت أرقب حطام الفلك يطفو معنا ويغوص ، حتى عنَّ لى أن أعلق بخشبة قريبة منى ، فطويت عليها قطعة من الشراع الممزق وجعلتها لى ثماماً (٢) لصقت به ، بينا نامت الشمال لسوء حظى ، وأخذت الجنوب تهب فى عنفوان وبأس ، وتدفعنى بقسوة وقوة حتى خيل لى أنها ستنتهى بى إلى عين خاربديس الحمئة . . . ياللهول ! لقد مضى على ليل أيما ليل . . . حتى إذا أشرفت ذكاء ، رأيتنى وياللأسف عند صخرة سكيللا ، وعلى مسافة من عين خاربديس ولحسن حظى كانت اللعينة قد ابتلعت كل مياه الشاطئ . . . ثم دفعتنى موجة من الأعماق فاستطعت أن أعلق بأحد أغصان التينة الهائلة النامية فوق صخرتها ، فبقيت لا صقا به كالخفاش لا يمكننى أن أهبط أو أن أتسلق لعظم ما كانت الأغصان تبتعد من الأرض وتمد من حولى ، ولأنها كانت تعرش من فوق خاربديس ، حتى كنت أرتعد من فزع وهلع عندما كنت أبصر تحتى فأرى العين الحمئة الملعونة تبتلع الموجة إثر الموجة ، ثم رأيت الخشبة وقطعة الشراع التى كنت عالقاً بهما ينقذفان نحوها ويكونان تحتى ، فطربت ، ولو أن هذا جاء متأخراً حتى ريع قلبى ووهنت قواى ، وغمرنى شعور الذى انفرجت أزمته ، وكشفت عنه

(١) إله الصبا .

(٢) الثمام أقل مايتعلق به الغريق .

غمته ، فهويت إلى الماء، وتعلقت بها بقبضتين مستميتتين . . . ويلاه عليّ ! ! أواه ! لو لمحتنى سكيللا الهائلة طافياً هناك ! ! إذن ما استطاع إنقاذى رب الأرباب نفسه من مخالبها وأنيابها ! ! ثم بقيت هكذا تسعة أيام بلياليها . . . يصرعنى البحر وأصرعه ، ويناضلنى الموج وأناضله ، حتى رثت الآلهة لحالى فساقتنى فى العاشر إلى أوجيجا ، جزيرة عروس الماء كليبسو ، فرسوت ثمة فى ليلة ليلا ، مظلمة طخياء . . . وقد نالنى من كرم العروس وجميل معروفها مارد إلى قواى ، وأثابني عما لقيت من شقوة وأرزاء . . .

ولكن لم هذا ؟ لقد سمعتم قصتى مع كليبسو من قبل ، إذ رويتها للملك ولزوجه أمس ، وإنى لأكره الحديث المعاد » .

أوديسيوس يصل إلى إيثاكا

وفرغ أوديسيوس من حديثه ، وجلس القوم فى الردهة ذات الظُّلَلِ مسبوهين مشدوهين من روعة ما حدث ، ومن غريب ماروى ، حتى تكلم الملك فقال : « أوديسيوس ، يا أيها العزيز ! صفا بالك وطاب حالك واستذريت من ذرى هذه القبة الشماء بركن ركين ، فلن ينالك أذى بعد اليوم ، ولن تقدر عليك الريح الهُوج فى رحلتك الآمنة إلى بلادك ، وإن يكن مثلك لا يبالى الحِدْثان ، ولا يأبه لصروف الزمان ، بعد إذ رضع لبانها ، وتقلب طويلا فى أحضانها ... وإنه والله ليس أحب إلينا من أن تقيم آخر الدهر عندنا فتتحسى معنا من أكرم هذه الخمر ، وتشنف أذنيك بما يتغنى مطربنا الحبيب الإلهى ، وإلا ، فذاك صندوقك العزيز وفيه أذخار الهدايا وأعز اللهى ، من مطارف الديباج ، ومكنون الذهب الوهاج ... ولكن على رسلك ، هلموا يامعاشر الفياشيين فليحضر كل منكم للنازح الكريم طُرْفةً مر أبرّ الطُّرَف ، وتحفةً من أجلِّ التحف ، ولتكن ركيزة من الذهب وأصيصاً صغيراً للزهر ؛ وليساهم الشعِب فى هذا ، وذلك أدنى ألا تطيقوا ثمنها » .

وصادفت مقالة الملك هوى فى قلوب السادة زعماء الفياشيين ؛ ثم نهضوا فتفرقوا إلى منازلهم يلتمسون الراحة ، وينعمون بطيب المنام ؛ ونضرت أورورا ابنة الفجر جبين المشرق بأفواف الورد فهب الزعماء العظام من مراقدهم ، وبادروا إلى السفينة بهداياهم التى وصف الملك . وقد كان ألكينوس نفسه ينتظرهم ثمة ؛ وكان يتناول كل هدية بيديه فيضعها الأمين تحت مقاعد المجدفين حتى تكون بنجوة من ضرر يصيبها ، أو أذى يلحق بها ، حين يكون الملاحون مشغولين فيما هم بسبيله من عمل البحر ومصارعة الموج ... حتى إذا أسلموا تذكاراتهم عادوا مع الملك إلى قصره المنيف لوليمة

الوداع الفاخرة وقد قرّب إلى جوف الكبير المتعال ، رب الأرباب ورب السحاب الثقال ، بثور جسدٍ عظيم ؛ واعدّ من فخذيه شواء شهى أقبل عليه القوم يأكلون ويرَوّغون (١) ، بينما يسكب فى آذانهم غناءه ديمودوكوس مطربهم الحذق الحبيب . وكان أوديسيوس يرنو بطرفه المشتاق إلى الشمس يود من أعماقه لو عجلتْ إلى خدرها ، وكان يضجره منها جريانها الوئيد ، فهو دائماً يرقب مغيبها بعينى الزارع الشق الجوعان الذى أجهده طول النصب فى حرث حقله ، فعلق بصره بالشمس يتمنى لو هبطت فجأة فى المغرب ليلوى أعنة بهائمه إلى كوخه ، وليتبلغ هناك بلقيمات ! وما كادت تتوارى بالحجاب حتى وجه الخطاب لزعماء الفياشيين فى شخص الملك ، فقال : « مولاى الملك الجليل ألكينوس ! يافخر شيرا وعماد الفياشيين ! تمنيتُ لو أديت الصلاة الخمرية ياموْلاى وتفضلت فأذنت لى فى وداعكم ، مادمتم قد أعددتم لى الهدايا واللُّهَى ، والأبطال الصناديد من رجالكم الملاحين ... وإنى لأضرع إلى الآلهة أن ترعانى فى رحلتى فى اليم ، وأن أصل إلى بلادى فألقى فيها آلى وعشيرتى سالمين ، كما أسأل أرباب الأولمب أنْ ترعاكم وأن تقرّ أعينكم جميعاً بذويكم . وأن تفئ عليكم من نعمائها ، وتحفظ بلادكم من عاديات الزمان وملمات الحِدْثان » وسر الجميع من مقالته فهتفوا له . ورجوا الملك أن يأذن له فى السفر ، فالتفت ألكينوس إلى مشيره وقال : « هلم يابنتُّون فأدهق الزق واحمل الخمر إلى جميع أضيافنا ليريقوها خالصةً لوجه سيد الأولمب ، كى نتأذن لأوديسيوس بالرحيل إلى دياره » ولبى المشير ، وأخذ كل كأسه ، ولم ينتظر أوديسيوس حتى يصل الندمان إلى الملكة المبجلة الوقور ، بل هب مسرعاً وقدم إليها كأسه الهائلة ، وقال : « وداعاً يامولاتى الملكة آخر الوداع ! إلى آخر العمر ؟ وليكن عمراً موفوراً مُخَفْرَجاً (٢) تقرين فيه بمولاى الملك والسادة النجب أبنائك المحبوبين وشعبك » وحَيّاً وبَيّا ، ثم

(١) يدسمون اللقمة .

(٢) واسع الرزق .

أهرع إلى المرفأ ومشير الملك يسعى بين يديه ، ثلاث من وصيفات الملكة يتهادين فى إثره ؛ أما الأولى فكانت تحمل الثوب الديبجىّ الموشىّ ، وأما الثانية فكانت تحمل الصندوق الثمين ذا الأذخار ، وحملت الثالثة مئونةً حافلة من أشهى الآكال وأطيب الشراب ... حتى إذا كن عند السفينة ، سلمن ما حملن للملاحين الشجعان وانثنين من حيث أقبلن ... واشتغل بعض البحارة بإعداد فراش وثير فى قمرة [1] خلفية من أجل أوديسيوس ... الذى آوى إلى منامته واستغرق ثمة فى سبات لذيذ ، بينما كان الملاحون دائبين فى فك الحبال ورفع المرساة من صخور الشاطئ ، حتى إذا انتهوا توزعوا إلى مجاديفهم وأعملوا فيها أيديهم ، فهمت الفلك واحتواها الماء ، وأقلعت تشق الأمواج ، وتأخذ سبيلها فى البحر سرباً ... هذا بينما كان النائم البرئ قد استسلم لطائف من الكرى يشبه طائف المنون .

وعَمرَك الله [2] هل رأيت أربعاً من صافنات الجياد تتبارى فى حلبة ، وقد أذن المؤذن فاندفعت تهب الرحب ، وترسل فى الهواء أعرافها ؟ لقد كانت السفينة تتواثب على أعراف الموج مثلها ، والعباب الزاخر يصطخب من ورائها ، واللجة من بعد اللجة تجيش وتضطرب تحتها ، كأنما تتحدى اليم فى طمأنينة وثبات ، أو تسابق فى الجو البواشق البزاة ! ! وكيف لا ، وقد حملت رجلاً لا كالرجال ، وبطلا ابن أبطال وحكيما ترباً [3] للآلهة فى المكرمات وعظيم الفعال . وقِرناً ليس كمثله قرن فى يوم كريهة أو نزال ؛ لم يَغْف من قبل هذه الغفوة الناعمة التى باعدت بينه وبين ما تجشم من آلام وأحزان وأشجان .

وتلألأت فى الأفق الشرقى نجمة الفجر الصادق ، حينما كانت الفلك قُبالة الأرض الموعودة ... إيثاكا ... بعد إذ أتمت رحلتها الخاطفة فى جنح

---

(١) القمرة غُرفة فى السفينة .

(٢) أستحلفك بالله

(٣) الترب بالكسر اللدة أو المشبه

الليل ... وهناك فى شاطئ المدينة ، أُنشئ مرفأ أمين باسم فورسيز رب الأعماق يُدخَل إليه بين حاجزى أمواج ممتدين على مدى الجون الجميل ، بين ذراعى الميناء ، فما تستطيع ريح أن تعبث بما فيه من سفين ؛ وقد بسقت أشجار الزيتون على الشاطئ وامتدت امتداداً هائلاً إلى كهف حريز تأوى إليه طائفة من عرائس البحار قال لها النيَّاد . وثمة ، أى فى هذا الكهف المقدس ، صفت أباريق من حجر وجرار كثيرة ، يأتى النحل فيودع فيها شهده ؛ وقامت فيه أيضاً عمد من حجر يقال إن عرائس الماء تنسج عليها أثوابها العجيبة . وفيها أيضاً عيون من ماء زلال تسق ساكنيه . ويؤدى إلى الكهف طريقان عظيمان ، أُحل أحدهما للناس يضربون فيه ما يشاءون ، أما الآخر فلا تطؤه إلا قدم إله كريم ، ويعرف بطريق الجنوب المقدس .

ويمم البحارة بفلكهم شطر الميناء ، ثم أرسوا فيه ، وجنحت السفينة بنصف حيزومها [(١)] على رماله ... وحملوا أوديسيوس الزعيم دون أن يوقظوه ووسدوه على فراش [(٢)] وطأوه على الشاطئ ، ثم حملوا كل متاعه وأذخاره فجعلوها إلى جانبه خلف زيتونة ضخمة تحجبها عن أنظار المَّارة ، حتى لا يعبث بها عيّار إذ هو مستغرق فى نومه العميق ... وركبوا الفلك بعد هذا وعادوا أدراجهم إلى شيرا ... وأحسن نبتيون الجبار رب البحار وعدو أديسيوس الأكبر بما فعل الفياشيون فثار ثائره وقال يعتب على زيوس : « أيها الإله الأعظم الأبدى ، أبداً ما أحسبنى أنال نصيبى من التقديس والتبجيل بين الآلهة منذ اليوم ، ما دام شعب فياشيا لم يأبهوا أن يحقرونى أو يبالوا بى . فقد كنت عولت على ابتلاء أوديسيوس بأروع صنوف البلايا قبل أن تطأ قدمه أرض بلاده ، ولم يكن فى تصميمى أن أحول بينه وبين العودة إليها لأنك كنت قد وعدت بتمهيد السبيل لهذه العودة ، ولكنهم حملوه على فلكهم غارًّا فى أحلى المنام ، ثم حملوه إلى

(١) حيزوم السفينة مقدمها

(٢) فى نسخة أنهم حملوه بفراشه

الشاطئ الإيثاكي بما معه من العطايا والأذخار ، وطرف النحاس ، وتحف النضار ، ومطارف الديباج ، وما حمل من كنوز لم يكن يحمل شيئاً منها حتى لوعاد بنصيبه من أسلاب طروادة ! واأسفاه ! واأسفاه !» وقال يجيبه رب السحاب الثقال : «ماذا تقول يامزلزل الشطئان والخلجان ياذا الملكوت والجبروت ، يا أيها العظيم نبتيون ؟ ! لاعليك ياأخى ! لاعليك ، فإنه لن تحقرك الآلهة ولن تستخف بك ! فإذا استخف بك ملأ ضعيف من بنى الموتى – عبادنا البشر – فما يضيرك ؟ أليس فى يديك ألف فرصة للبطش بهم والانتقام منهم ؟ أربع عليك نبتيون ، وصِلْ ملاذَّك ، فإنك لست عبداً لأحد» قال نبتيون : «جوف يارب السحاب إنه ليس أحب إلى من أن أبطش بهم كما أشرت ، ولكنى لاأخشى إلا تحديك لى دائماً بغير حق ، وإنى أرجو أن أعصف بسفينتهم فى دأمائى [1] اللجىّ حتى لا يحملون ضارباً فى البر والبحر مثل أوديسيوس مرة أخرى ، وإنى مقتف آثارهم الآن ، فضارب فلكهم اللعين ، فساحره فى الحال إلى طود عظيم ينهض بروقيه أمام مدينتهم حتى ليحجبها عن كل سارب فى البحر فلا يراها أحد أبداً !» فقال جوف يجيبه : «هلم يا أخى فاصنع ما بدا لك، وافعل فعلتك التى رسمت ، وليكن ذلك حينما يقتربون من مدينتهم حتى يرى أهل شيرا ما يحل بسفينتهم ليكون لهم آية !» . وانطلق مزلزل الأعماق فى أثر الفياشيين حتى إذا كانوا قاب قوسين من الشاطئين أرسل يده تحت فلكهم فضربها ضربة هائلة أرسلتها فى الهواء وهوت بها إلى اللج ، ثم تركت مكانها جبلا عالياً أشم ، ولوى عنانه إلى أرجاء ملكه الرحب .

ووقف الفياشيون – ملوك البحار – على شاطىء البحر مسبوهين دهشين يسأل بعضهم بعضاً : من ذا الذى أرسى هذا الجبل الهائل مكان سفينتهم تلقاء المدينة حتى ليحجبها عن أنظار السفن العابرة فى اليم ؟ والتفت الملك وكان واقفاً بينهم فقال : «يا للآلهة ! لقد ذكرت نبوءة قصها

---

(١) الدأماء البحر العظيم

على والدى فيما غبر من الزمان . . . فلقد ذكر لى أن شعبنا المجيد مأذون له من نبتيون أن يحمل الناس من كل فج ، من ضل سبيله منهم إلى بلادهم مهما تناءت. وقد ذكر أيضاً أن سفينة من سفننا بعد إذ ترتد من رحلة لها إلى بلد رجل غريب نازح، ستغرق فى اليم ويبسق مكانها جبل عظيم شاهق يحجب شيرا عن البحر . . . وها قد تحققت النبوءة ، فهلموا نقرب لإله البحار نبتيون باثنى عشر عجلا جَسدا تكون أعظم عجولنا وأغلاها قيمة ، عسى أن يرثى لنا فيكشف عنا هذه الغمة ولا يحول بين البحر وبين مدينتنا بهذا الطود الكبير الراسى » وتفزّع زعماء الفياشيين وبادروا إلى عجولهم فجزروها باسم نبتيون ، وتكبكبوا حول مذبحه فصلوا له ، وسبحوا بذكره . . . أما أوديسيوس فقد هب من نومه وهولا يدرى أين هو ، ومع أنه كان ينام الذ النوم فوق شاطىء بلاده ، فإنه لم يعرفها لطول ما شطت به النوى [(1)] ولأن مينرڤا الكريمة ، سليلة جوف العظيم ، كانت ألقت حوله ظلالاً تحجبه عن أعين المارّة مخافة أن يعرفه أحد منهم قبل أن نلقنه من حكمتها ما هو ضرورى له فى حالته هذه . . كأنما أرادت ألا يستبينه أحد من مواطنيه ولا من أصدقائه وذويه حتى يبطش البطشة الكبرى بالخُطّاب الفسّاق الذين استباحوا عرضه واستحلوا بغير الحق زاده وخيره ، وعمروا كالشياطين داره لذلك موهت مينرڤا كل شىء فى عينى أوديسيوس ، فالطرق مستقيمة مستطيلة والموانىء رحبة مترامية ، والجبال ذاهبة فى السماء ، كالدوح الباسق يطاول الجوزاء ، وكل شئ ليس مما عهده البطل فى بلاده . . . ووقف يقلب عينيه فى المشاهد المحدقة به ، ثم تنهد من أعماقه ، وبسط كفيه إلى السماء وضرب بهما فى بَرَم على فخذيه ، وأنشأ يقول : « ويلاه علىّ وألف ويل ! أى شعب من الشعوب يقيم بهذه الأرض ياترى ؟ أأجلاف ظَلمة هم ، أم أطهار أخيار يخبتون للآلهة ؟ ليت شعرى أين أخبىء هذه الكنوز والأحراز ؟ وَىْ ! بل أيان أذهب أنا ؟ لعمرى لقد كنت أوثر ألا أنال شيئاً منها من هؤلاء الفياشيين على أن أكون

(١) السفر

قد حللت بأرض رجل ذى نخوة وذى نحيزة من ملوك الأرض غير ألكينوس هذا ، فكان يرسلنى آمناً سالماً إلى بلادى ! ماذا أصنع ياربى ؟ أأترك هذه الثروة الطائلة هنا ؟ أأدعها فريسة حلالا لغيرى من الناس ، وأهيم فى هذه البطحاء على وجهى ؟ واأسفاه ! أهكذا يغررون بى فيلقوننى فى شاطىء غير شاطىء بلادى ، وقد وعدوا أن يهبطوا بى مرفأ إيثاكا الأمين ؟ اللهم ياجوف العظيم ، يامن إليه يجأر أبناء السبيل والمهاجرون والمساكين ؛ انتقم لى يارب الأرباب من هؤلاء الخونة المبطلين ! ولكن . . . يجدر بى قبل كل شيء أن أحصى أذخارى لأرى هل سلبنى منها هؤلاء اللصوص شيئاً ؟ » ثم راح يحصر كنوزه ، فما وجد شيئاً منها ناقصاً أو غير موجود ، وزاد ذلك فى أشجانه ، فأخذ يندب حظه ، ويبكى على ما لقى من زمانه ، وينشج نشيجاً مؤلماً لهذه الهجرة الظالمة عن أوطانه ، وجعل يروح ويغدو على سيف البحر المضطرب ، وحيداً مُعَنَّى ويرسل دموعه وزفراته حتى بدت له آخر الأمر مينرڤا فى صورة راعٍ صغير غض الإهاب عجيب الثياب جميل المحيَّا ، كأبناء الملوك ، ملتفعاً حول عنقه ومن فوق صدره بشفيف [(1)] . صفيق طُوى حولها طيتين و فى قدميه نعلان متواضعتان ، و فى قبضته حربة ناعمة لامعة ، . . وكانت مفاجأة سارة فوجئ بها أوديسيوس فخطا خطوات عاجلة إلى الشاب وراح يسائله : « مرحباً أيها الغُرانق [(2)] الجميل ! لقد كنت أول إنسى ألقاه هنا ، فبحق هذا عليك أن تحمينى وتحمى أذخارى هذه ، وألا تلحق بأينا أذى ! إنى أتوسل إليك كما لو كنت أتوسل إلى أحد الآلهة أن تصدقنى فيما أسألك عنه : أية بلاد هذه ؟ وأى قوم يعيشون فيها ؟ أهى جزيرة آهلة أم حَدُور من بلاد مترامية ؟ أخبرنى بأربابك أيها الفتى » .

وقالت مينرڤا ذات العينين الزبر جديتين تجيبه : « أيها الغريب اللاجئ كم أنت ساذج ! كيف تسائل عن هذه البلاد كأنك لست من أهلها ؟

---

(1) الثوب الرقيق (2) الشاب الجميل المحيا

إنها بلاد ذات ذكر فى المشارق والمغارب ، ومنها وإليها تصدر الركبان إلى كل فج ، ثم هى ليست يهماء [1] مجهولة ، بل هى جنة مأهولة ، زاخرة الخيرات موفورة البركات ، ففيها أنضر سهول القمح وأبهج عرائس الكروم ، وأخصب المراعى الخضر الحافلة بقطعان النعم والشاء ، تسقى من ماء معين ، وأنهار وعيون . . . هذه يارجل إيثاكا . . . إيثاكا المباركة ، التى استطالت شهرتها ، واستطار ذكرها حتى ملأ الخافقين ، وجاوز طروادة ذات المجد ، التى لا تبعد شطئانها من أخايا » .

وشاع البشر فى نفس أوديسيوس لما سمع الراعى يؤكد فى لهجة قاطعة أن هذه البلاد هى إيثاكا الموعودة ، وهز السرور أعطافه لما رأى من زهو الشاب وافتخاره بها . . . بيد أنه مع ذاك راح يتجاهل ، ويُبدى عدم معرفته لهذه البلاد ، ويحاول أن يخدع الفتى عن نفسه ، وما يخدع إلا نَفْسَه هو . . قال : « أجل . . . لقد سمعت عن إيثاكا فى أقاصى البحار . . . والناس يعرفونها حتى فى كريت التى وصلت منها اليوم بعتادى هذا ، تاركاً فيها أبنائى وذوى رحمى ، فاراً بنفسى من الفعلة الهائلة التى فعلت . . . ياويح لى ! لقد قتلت العدَّاء المعروف أرسيللو بن أيدومين العظيم الذى لم يكن يباريه فى سرعة عدوه أحد . لقد حدثته نفسه أن يسلبنى ما غنمت من كنوز طروادة وأسلابها وما حصلت عليها إلا بعد قتال شديد ولظى حرب ، وركوب أهوال فى ذلك اليم . . . وذاك لأنى أبيت أن أقاتل تحت لوائه ، أو لواء سيده ومولاه ، بل قدت فيلقاً من الجند فظفرت وانتصرت ، فكبر عليه هذا ، وحفظها لى ، وأضمر فى نفسه الغدر ، فلما عدنا أدراجنا إلى أرض الوطن ، حاول أن يسرقنى كنوزى ، فأقصدته [2] برمحى فأرديته ، وكان معه زميل له شرير فذبحته ، واستعنت عليهما بدجى الليل ودُجُنَّته ، ثم هربت تحت أستار الظلام بأحرازى إلى الشاطىء ، حيث حملتنى سفينة فياشية رجوت ملاحيها أن يبحروا بى إلى شاطى بيلبا ،

---

(١) صحراء مضلة

(٢) رميته برمحى .

أو إلى مرفأ إيليس . . . لكنهم وأسفاه اضطروا إلى الإرساء هنا لأن ريحاً عاصفاً قسرتهم على ذلك ، فوصلنا هنا برغمنا فى جنح الليل البهيم ، ولقينا عناء عظيما فى النزول بالمرفأ الأمين ؛ ومع شدة حاجتهم إلى الطعام ، فإنهم لم يستأنوا ، بل تركونى وحدى ، وأبحروا على عجل ، بعد إذ نمت على الشاطىء من الإعياء ، وبعد إذ حملوا إلى هنا متاعى . . . وهم الآن فى طريقهم إلى سيدونيا . . . وهأنذا وحدى هنا ، لا أعرف أيان أذهب ، ولا أين أمضى ! ! » .

وسكت أوديسيوس . . . ولكن الراعى الشاب الجميل أخذ يتحول فى فتون وسحر إلى صورة خلابة أخرى . . . لقد أصبح امرأة حسناء هيفاء . . . وهاهى ذى . . . تلك المرأة الحسناء الهيفاء . . . تبدو فى صورة مينرڤا – ربة الحكمة – التى اقتربت من البطل فى تبسم وظرف ، وأخذت تعبث بلحيته الكثة الشعثاء فى دلال وسخرية ، وراحت بدورها تجيبه : « مرحى أوديسيوس . . . مرحى مرحى ! ! ما احسب أن أحداً – أحداً من الآلهة – يفوقك فى مكرك وبراعة حيلتك ! يا ابن ليرتيس ! ! أما آن تقلع عن مراوغاتك التى حذقتها مذ كنت يافعاً ، وعن توشية الأحاديث الملفقة التى حذقتها واشتهرت بها فى العالمين ؟ ! ولكن . . . . تعال . . . ليدع كلانا ما يحاول أن يزوق به كلامه ، فكلانا بارع فى ذلك صَناع . . . أنت بفصاحتك . ودقة فهمك وطريق حيلتك بين الناس ؛ وأنا بحكمتى وقوة تدبيرى بين الآلهة . . . وما أحسبك تجهل مينرڤا ابنة جوف الأكبر ، التى كانت رائدك ورفيقك فى كل ما حاق بك من مكروه . . . فقد كنت أقذف الشجاعة فى قلبك فى مواقف شدتك . كما كنت اثير الحَمِيةَ فى أفئدة الفياشيين الذين وصلوا بك إلى هنا ، وهأنذى طويت إليك فدافد الرُّحب لأخلو ساعة بك ، ولأن لى حديث نصح معك ، بودى أن أمحضّكَ إياه . . . وقبل هذا ينبغى أن تخبئ كنوزك التى أُسبغت عليك بمشورتى . . . ثم إنى محدثتك عما يتحيفك من أرزاء ، وما

يدبر لك من كوارث تحت سقف بيتك ، ونصيحتى أن تحتمل ما يصيبك أول الأمر بقلب جليد وصبر ثابت وطيد . واحذر أن يعلم أحد ، رجلا كان أو امرأة – بوصولك إلى إيثاكا وحيداً شريداً لاحول لك ، كما وصلت ، بل اصمت كلما حاول أحد أن يتعرفك ، واحتمل الأذى كلما امتدت به يد إليك » . وقال أوديسيوس ، وقد أسقط فى يده : «لله درك ياربة ! ما أبرعك فى تغشية العيون وتضليل الأبصار ، والتشكل فى أى صورة شئت ! بيد أنك برغم ذلك حليمة رحيمة كعهدى بك دائماً ؛ ألا كم نصرت أبطال أخايا المذاويد ، وأظفرتهم بأعدائهم فى ميدان طروادة . . . ولكنى لن أنسى مذ أقلع أسطولنا من مياه تلك المدينة ، بعد سقوطها فى أيدينا أنك لم تظهرى لنا قط ، ولم تبادرى مرة إلى إنقاذى من إحدى الرزايا التى كانت تحيق بى والتى كنت أحتملها بقلب حديد ، وصبر شديد ، حتى رثت الآلهة لحالى فجعلت لى منها مخرجاً وأنقذتنى إلى بر فياشيا ؛ حيث أثرت فى صدرى النخوة ، وأوليتنى الشجاعة ؛ وكنت دائماً دليلى ورائدى . . . ولكن . . . أصدقينى بأبيك يا ابنة جوف ، هل وصلت حقاً إلى ايثاكا ؟ أم أنا فى صُقع سحيق عنها وإنما أنت تسخرين منى وتعبثين بى ؟ أصدقينى بأبيك ياربة ، هل هذه بلادى العزيزة إيثاكا ؟ هل هى حقاً ؟»

وقالت ذات العينين الزبر جديتين تجيبه : « دائماً حَذِرٌ يا أوديسيوس ، وإلى الأبد يملأ الواسواس صدرك برغم ما أوتيت من حكمة وتبيان ، ورجاحة فكر وسلامة جَنان ! بيد أنك معذور ياصاح ، إذ أى رجل يتشوف لرؤية زوجه وأبنائه ولا يتحرق شوقاً للقياهم بعد هذا السفر الطويل ، والبعد الممض ، والأهوال الجسام الجمة ؟ غير أنه أفضل لك ألا تعلم شيئاً ولا تسأل عن شئ حتى تلمس بنفسك مقدار ما تكنه لك من الحب تلك الزوجة الوفية المخلصة التى ذهب شبابها عليك حسرات ، والتى ذرفت دموعها من أجلك آناء الليل وأطراف النهار طوال تلك السنين الباكية الحزينة الموحشة . . . إنى لم أتركك يا أوديسيوس كما تظن ، بل كنت أعلم أنك راجع دون ماريب إلى بلادك ، وإن فقدت كل رجالك ورفاق سفرك

الطويل الشاق . . . غير أنني أشفقت أن أثير حَنَقَ نبتيون، عمى وشقيق أبي ، الذى يحز الأسى فى قلبه من فعلتك التى فعلت بعين ابنه السيكلوب . . . ولكن هلم . . إنى سأقطع شكك باليقين ، وسأدلك على علائم تؤكدلك أنك فى إيثاكا . . . فهذه هى ميناء فورسيز حكيم البحار ، وها هى الزيتونة الكبرى عند رأس المرفأ وعلى مقربة منها ذلك الكهف المقدس الإلهى الذى تأوى إليه عرائس البحر المعروفة باسم النياد ، وقد طالما كنت تجزر القرابين والأضاحى باسمهن عند وصيده ، وهاك جبل نيروتوس وأولئك غاباته الشجراء . . . » ثم رفعت ربة الحكمة الغشاوة عن عينيه فعرف دياره ولم ينكر شيئا منها ، وهكذا شاءت العناية أن يشهد البطل المكدود بلاده الحبيبة مرة أخرى ، وهكذا خر أوديسيوس جاثياً يقبل ثرى الأرض المقدسة ، ثم رفع يديه يصلى لعرائس الماء كسابق دأبه ويقول : « يا عرائس البحر ، يابنات جوف الأعظم ، لقد قنطت قبل هذا من أن أراكن ، فهأنذا أعود إليكن بألف نذر وألف تحية وسلام . . . ولَكُنَّ القرابين الغوالى إذا مدت أختكن مينرڤا الحكيمة فى أيامى وباركت رجولة ولدى ومعقد أحلامى » .

وقالت ابنة جوف تؤيده : « تشجع يا أوديسيوس لا طائل لهذه الوساوس التى تعذبك ! هلم ! البدار ، البدار ! لنخبئ هذه الكنوز فى أغوار ذلك الكهف السحيق لتكون فى مأمن من عبث عابث ، ثم هلم أدبر الأمر معك » وانطلقت الربة فى ظلمات الكهف تتكشفه بينما حمل أوديسيوس أذخاره فوضعها حيث أشارت مينرڤا ، ثم حملت بيديها الجبارتين صخراً عظيما فأحكمت به غلق المدخل الرهيب . وجلسا عند أصل زيتونة باسقة ، وشرعا يرسمان الخطط ويحكمان التدبير لهلاك الخُطاب الفسّاق المعاميد ، فقالت مينرڤا : « أوديسيوس ، يا ابن ليرتيس المجيد ، هلم فأعمل فكرك الآن فى الوسيلة التى تبيد بها أعداءك الذين لايستحيون ، أولئك الخطاب الذين استبدوا بأسرتك طوال أعوام ثلاثة ، واستباحوا حماك ، وتكالبوا حول زوجتك كل هذه السنين يغرونها بالوعود ،

ويزخرفون لها الأمانى ، ويُعسلون لها كلمة الفسق ، وهى ما تزداد إليك إلا تحرقاً ، وما ترقأ دموعها من أجلك ، فتحتال لهم ، وتَعِدُ هذا وتوشى المنى لذاك ، معللة نفسها بعودتك لتسحقهم جميعاً !» واستعبر أوديسيوس قليلا وقال : « أوه ! كأن القضاء الذى أسكت نأمة [1] أجاممنون يكاد يحيق بى أنا الآخر فى صميم دارى ! ولكن ...وَىْ ! أضرع إليك أيتها الربة أن تشيرى على وتنصحى لى وتلقنينى كيف أثأر من هؤلاء الطغاة ؛ وأتوسل إليك أن تقذفى فى قلبى الشجاعة كما قذفتها فيه تحت أسوار طروادة ، فإنى بعونك أدوخّ المئين من أعدائى ، وما دامت يدك فوق يدى ، فإنى مستأصل شأفتهم جميعاً » قالت مينرفا : « اطمئن ياأوديسيوس ، سأكون معك وإن لم يمتد إلىّ طرفك حتى تغتالهم أجمعين ، وحتى تطيح رؤوس أكثرهم على أرض قصرك ... ولكن تعالى ؛ ألق بالك إلى ، إنى سأغير من صورتك ، وأحور من شكلك حتى لا يعرفك منهم أحد ؛ فهاتان الوفرتان [2] تستطيلان حتى تغطيا كتفيك وحتى تتصلا باللمة [3] ، وسأدثرك بدثار مرقع رث يثير التقزز فى نفوسهم فلا يمدون أبصارهم إليك ، وسأحدث أوراماً حول عينيك تزيد فى تنكرك ، حتى ليحسب من ينظر إليك من أعدائك أنك وأهلك بعض المساكين الذين لا يفتأون يضربون فى الأرض ... على أنه ينبغى أن تلقى راعيك الأمين (إيبومايوس) الرجل الوفى الذى لايزال يخلص لك ، ويفى لابنك ، ويؤثر بأصفى وده زوجك ... فاذهب إذن إلى جُبيل كوراكس المطل على نبع أريثوزا ، تجد قطعانك ترعى العشب الحلو ثمة ، وتسقى من السلسبيل المجاور ؛ وتجد راعيك الشيخ يتشوف إلى رؤيتك ، فحيه واجلس إليه ، واسأله عن كل ما تريد أن تعرف من أنباء بيتك وأهلك وعقارك ، وتلبث معه حتى أعود إليك بابنك من أسبرطة ... ابنك تلماك الذى ذهب يذرع الرحب سائلا عنك ، متحسساً أخبارك حيث حل ضيفاً كريماً على الملك منلوس ، الذى

(١) أسكت نأمته أى أماته .

(٢-٣) الوفرة مابلغ شحمة الأذن من الشعر واللمة ماألم بالنكب منه .

أرسله إلى ليسديمون ليرى هل لايزال أبوه حياً يرزق ؟» قال أوديسيوس : «واأسفاه عليك ياولدى ! ! ولم أيتها الربة المحيطة بكل شئ لم تخبريه أننى حى أرزق وأننى لابد عائد إليه ، فكنت كفيته بلاء الرحلة فى تيه البحر ، بينا هؤلاء الكلاب يستنزفون ثروته وماله ؟» فقالت تجيبه : «لاتأس على ولدك هكذا يا أوديسيوس . لقد ارسلته أنا ثمة ينشد الشرف وينشر ذكره بين الناس ... إنه لا يلقى عنتاً هناك ، بل هو ينعم بالرعاية فى قصر أتريدس ! واعلم أن فريقاً من خطاب بنلوب يتربصون به ، ويترصدونه فى طريقه ابتغاء أن يقتلوه قبل أن يبلغ أرض الوطن ... ولكن لا ... خاب فألهم ... إنهم لن يمسوه بأذى حتى تكون الأرض قد رويت من دمائهم ، وغيبوا جميعاً فى بطونها ، أولئك السفلة الذين يستحلون زادك وعتادك الآن» . ثم مسته بعصاها السحرية فبدت عليه بدوات الكبر ؛ فهذا جلده قد تغضن ، وهاتان وفرتاه ولمته قد استطالت حتى بلغ شعرها قدميه ، وهاهى ذى تضفى عليه الدثار المرقع الرث ، وهاهى ذى تحدث الأورام حول عينيه وتزوده بمزق قذرة علق بها التراب والسخام [1] وها هى تضفى عليه بعد ذلك جلد ظبى قديم غليظ وتدفع إليه بعكازة طويلة يتوكأ عليها ، وتمده بمزود [2] تدلت منه أوشية قبيحة ، وأحيط بسيور من جلد عتيق ...

وافترقا ... فهو إلى حيث يلقى راعيه ... وهى إلى حيث تلقى تليماء فى مملكة ليسديمون .

---

(١) الفحم أو مايعرف بالعامية بالهباب

(٢) خرج

مسرع الراعى

وسلك سبيله فى طريق وعر محفوف بالأشجار الباسقة إلى مأوى صديقه الراعى الشيخ الأمين ، فوجده جالساً وحده فى مدخل الحظيرة الشاسعة القائمة وسط المرج المعشوشب النضير . ولقد سورها يومايوس ، إذ سيده غائب فى أقصى الأرض ، بسور عظيم ضخم من حجارة قوية نحتها من محجر قريب ، وجعل على السور فروعاً من قتاد وشوك وجذوعاً من سنديان ، حتى صارت أمنع من عقاب الجو ... كل ذلك دون أن يساعده أحد ... ثم قسمها اثنى عشر زَرْباً [1] جعل فى كل منها خمسين خنزيرة كنازاً ... أما ذُكران الخنازير فقد تركها سائبة فى الخارج ليرسل منها إلى العشاق المعاميد ما يأكلون منه وما يريغون ... وقد بقى منها بعد تلك الأعوام الطوال ستون وثلثمائه . وربضت لدى الباب كلاب أربعة كسباع البرية ، تلحظ الحظيرة بأعين كالجمر ، وجلس الراعى يعمل لنفسه نعالا من جلد ثور مدبوغ ، بينما انطلق خدمه ومعاونوه الأربعة يعملون ويدأبون هنا وهناك . وكان رابعهم على وشك أن يترك الحظائر إلى المدينة ، حاملا لحم خنزير حنيذ يذهب به برغمه إلى الُخطّاب الفساق . ولمحت الكلاب أوديسيوس فأهرعت إليه ، وظلت تعوى وتنبح ، وترغى وتُزبد ، وأوشكت أن تفتك به ، لولا أن هب يومايوس فكسر شرتها بما رماها به من الحجارة ، ولولا أن ترك أوديسيوس عكازه يسقط من يده لأن الكلاب لا يغيظها إلا أن يُمسْك لها أحد عكازاً ... قال الراعى : « أيها اللاجئ العجوز سلمت ! خطوة واحدة ! وكانت هذه الكلاب قد مزقتك إرباً ، وكانت قد لحقت بى سبة لاتبيد ! ألا كم ترسل علىّ الآلهة من كروب ! وكم ترمينى من آلام ! أنا ، هذا العجوز الهالك ، الذى أمضنى

---

(١) الزرب : الزريبة للغنم

الحزن ، وشفني الأسى من أجل سيدى ومولاى ! هأنذا أُسمّنُ قطعانه وأرعاها لينعم بها غيره ، بينما هو نازح غريب يجوب الآفاق ويشتهى كسرة يتبلغ بها ، إن كان لا يزال حياً يرزق ! أوه ! تعالى ا: يها الصديق ، هلم فاتبعني إلى دارى أطعمك ما تيسر ، وأسقك كفايتك من الخمر ، وتخبرنى بعدها من أنت ، ومن أين أقبلت وماذا وراءك !» وانطلقا ، وقدم إليه الراعى الكريم حَشِيَّتَه التى كان يجلس عليها ، والتى اتخذها من جلد عنز حشاه بالقش ؛ فشكره أوديسيوس ، ودعا له بما يجب وبكل ما تصبوا إليه نفسه . فقال الراعى يجيبه . « أيها الصديق ليس أمقت إلى من أن أذود لاجئاً إلى دارى وإن يكن أرث منك حالا ، لأن ابناء السبيل جميعاً هم ضيوف زيوس رب الأرباب وأنا مع ذاك أعتذر إليك إذا لحظت أن زادى قليل وأن حالى رقيقة ، فقد مضى زمن العز والعيش الواسع المخفرج وأصبحنا نعانى القُلَّ والفاقة والعيش النكد تحت إمرة هؤلاء الرؤساء الأصاغر . آه يا مولاى يازين الحياة ومؤدب الناس أين أنت وأين أيامك وخيرك الوفر؟ ليتها دامت ، وليتك ظللت فعشنا فى كنفك ... وليت هيلين وكل من فى بيت هيلين فداؤك ... هيلين التى قتلت سادات هيلاس (١) مِمَّن أبحروا مع أجاممنون لينيلوه النصر فى ميدان طروادة ! ثم لملم دثاره وذهب إلى الزرب الأول فجاء بخنزيرتين سمينتين فذبحها وسلخ جلديهما ، وجعلها إرْباً إرْباً ، ثم أشعل ناراً عظيمة فسوى على جمرها السفافيد المثقلة باللحم ، وجاء بالشواء فوضعه أمام أوديسيوس ، ثم نثر عليه من الدقيق ، وأحضر زق الخمر ، وجلس قبالته وقال : « هلم ياضيفى العزيز فكل وارْوَ ... لاتؤاخذنى إذا رأيت الشواء لا سميناً ولاحنيذاً ، فكل سمين وحنيذ يذبح أولا فأولا ويرسل إلى الخطَّاب السفلة الذين لا يرعون فى الآلهة إلاً ولاذمة ، ولا يخافون سماءً ولا بشراً ... يالله من هؤلاء الفجرة ! ... ألا يلمون شعثهم ويغيرون بخيلهم ورجلهم على بلد قاص فيثوبوا بأسلاب الغزو

(١) اليونان وتسمى أخايا أيضاً

وسخط الآلهة ! أم تراهم أوحى اليهم بموت مولاهم فهم ههنا قائمون ما يريمون ، ولزاده آكلون ومن خمره شاربون ، حتى فرغت الجرار ، وخوت الدار ، وَضؤل الزرع وجف الضرع ! ! أبداً ماملك أحد مثل ماملك مولاى ! لقد كانت ثروته تعدل مايملك عشرة أو عشرون أميراً ، ولا أزال أذكر مما ملكت يداه اثنى عشر قطيعاً من الأنعام كانت ترعى العشب فى مروج الشاطئ [1] المقابل ، وكثيراً من قطعان الأغنام وأرعال [2] الخنازير وأسراب الماعز ، عليها أُجراء وخدم ورعاة لا يحصون ، ورجال مخلصون يزرعون فى حقوله الشاسعة ويحصدون ، ورجال يجلبون من قطعانه كل كناز للذبح ... أما أنا ... فقد عهد إلىّ بهذه الأرعال [3] التى ترى ، أطعمها وأعنى بها ، و ... واأسفاه ؛ وأرسل إلى الُخطّاب كل يوم بخيارها » .

وصمت الراعى بينما كان أوديسيوس يصغى ويلتهم طعامه ويفكر ألف فكرة ، ويدبر ألف تدبير لسحق هؤلاء الُخطّاب المفاليك . حتى إذا انتهى ، قدم إليه يومايوس كأسه دهاقا ، فتقبلها وشرب ما فيها وقال : « ترى ماذا كان اسم سيدك أيها الصديق ؟ لابد أنه كان مشهوراً ذا ذكر ، لما وصفت من واسع ثرائه وسمو جاهه وبسطة ملكه . لقد قلت إنه ذهب إلى طروادة مع أجاممنون ، فهل تتفضل فتذكر لى اسمه عسى أن أقص عليك من أنبائه ؟ لقد ذهبت أنا الآخر ثمة ، وسافرت فى بلادشتى ، ومحال ألا أعرف العظماء الذين جاهدوا مع أجاممنون . » فأجابه الراعى : « واأسفاه أيها الأخ العجوز ! أبداً لا تنطلى الأنباء الملفقة عن مولاى على زوجه أو ولده ؛ فكم من جوّاب آفاق مثلك ، محتاج إلى لقيمات أو سروال ، قد لقى الزوجة المسكينة فلفق لها قصصاً مكذوباً عن رجلها ثم دلت الأيام على كذبه وزخرفه ، والزوجة فى كل ما تسمع تذرف الدموع وتصعد الآهات كأحسن ما تصنع زوجة وفية من أجل زوجها الذى قضى فى بلد بعيد .

(١) لعلة شاطئ آسيا .

(٢) جمع رعيل ويجمع على رعال أو أراعيل وهوفى الأصل للخيل والبقر .

(٣) حمع رعيل أى قطيع من الماشية أو الغنم

وأكبر ظنى أنك تطمع فى كساء تخلعه عليك هذه الزوجة المفئودة[١] الرءوم ، فأربع عليك ، فالرجل قد قضى ، وليس بعيداً أن تكون كلاب البرية وسباعها قد اغتذت به أو أنه قد غرق فأكله السمك ، ولفظت عظامه على سيف البحر لتذروها الرياح ، تاركاً وراءه قلوباً تأسى عليه . أحزنها عليه قلبى . تالله ما وددت أن أرى أبوى اللذين غادرتهما منذ أحقاب كما أتشوف اليوم إلى رؤية هذا الرجل . . . آه يا أوديسيوس ! أين أنت . . . إنك مهما شطت النوى وشحطت[٢] الدار فلن أبرح أذكرك وأسبح باسمك وأقرك بما أحسنت إلى وعنيت بشأنى ، يا من فراقك عندى آلم لى من فراق أعز إخوتى وأشقائى ! »

وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق لم تيأس من عودة مولاك هكذا ؟ ولم يخامرك الشك فى أن رجوعه محتوم لا ريب فيه ؟ إذن فأنا أقسم لك قسما لا أحنث فيه إنه لعائد لا محالة ، ومعاذ الآلهة أن أقسم وأؤكد الأيمان لأنال القميص الذى ذكرت أو الدثار الذى أنا فى شدة الحاجة إليه ، بل ليبق القميص والدثار حتى يتحقق قسمى وتبر يمينى فأتسلمهما منك ، فإنى أمقت الكاذب الحانث فى يمينه كما أمقت أبواب الجحيم ، والله على ما أقول وكيل . . . اطمئن إذن ياصاح وثق أن أوديسيوس لابد عائد هذه السنة إلى إيثاكا بل ربما عاد هذا الشهر ، ولن يمضى شهر آخر حتى يكون قد ثأر لعرضه من أعدائه وبطش بهم جميعا أولئك الفجرة الأشرار الذين جسروا على استباحة حماه ، وإهانة زوجه ، وعدم المبالاة بولد وسخر الراعى وقال : « أهكذا تقسم وتؤكد القسم يا صاح ؟ أبداً لن تنال الرهان أبداً ، فقد أودى أوديسيوس ولن يعود بعد . . . هلم هلم ، تحسّس[٣] كأسك الروية ودع هذا الحديث فإنه يحزننى ويثير شجونى . . . خل قسمك ، وليقدم أوديسيوس فى خيالك أو فى الحقيقة ، فأنا وزوجه

(١) المصابة المرأة المحزونة
(٢) بعدت
(٣) اشرب

وأبو ولده . . . كلنا نشتهى ذلك ونتمناه على الآلهة . . . يا ويح لك ياتليماك الحبيب؟لقد كنت أرقص طرباً كلما رأيتك تنبت كما نبت أبوك، وتشب على الفضائل التى شب عليها ! أين أنت ؟ لقد ذهبت إلى ملك بيلوس تتحسس أخبار أبيك ، وهاهم الخُطّاب يترصدونك ويتربصون بك ليغتالوك فى الطريق . ألا طاشت أحلامهم ، وحماك جوف الأعظم من مكرهم ، وحفظك لبيت أرسياس يا أعز الناس . . . ؛ ولكن تعال أيها الضيف الكريم . . . قل لى بربك وأصدقنى فى كل ما تقول : من أنت ، ومن أين أقبلت ، وفيم قدمت ؟ وما بلدك ؟ وأين يقيم أبواك ؟ وأى سفينة حملتك إلى شاطئنا ؟ فلعمرى إنك لن تدعى أنك وصلت إلينا سائراً على قدميك ! ! » فقال أوديسيوس يجيبه : « سأقص عليك من أنبائى التى لا يأتيها الباطلُ ما لو لبثت عندك عاماً بين هذه الخمر وذاك الطعام ، بينما يكد الآخرون من أجلنا ويجهدون ، ما فرغت من قصها عليك . . . فهى أنباء باكية وآلام متصلة ، شاءت السماء أن أقاسيها ، وأن أجرع غصصها . . . إذن فأنا ابن كاستور هيلاسيد أحد سراة كريت ، من سُرِّيته المحبوبة التى كان يعزها كزوجة . ولم يكن أبى يفرق بينى وبين إخوتى من زوجه ، بل كان يولينا حبه على السواء ، وكان الناس يبجلونه كأحد آلهتهم لثرائه الواسع ، وحسبه الضخم ، ولأعماله الناجحة ؛ فلما مات اقتسم أبناؤه كل ما ترك ، وكان نصيبى منزلا متواضعاً . ومالا كثيراً ، وزوجة غنية ذات مال وجمال . ولم يحاول إخوتى أن يَدُعُّونى[1] أو يأكلوا تراثى ، لما كنت عليه من كريم الخصال وحميد الفعال ، وجمال المنظر ووسامة المظهر – لا كما ترانى الآن – واأسفاه على مافات من نضارة الشباب ! تالله لن تستطيع ، ولن يستطيع أحد ، أن يحدس كم شقيت وكم بُليت ، وكم من الآلام والضنك وأوضار الحياة تحملت ؟ فلقد كنت لا أرهب الردى ، وكنت دائماً أخوض خبار المعامع فى حمى مارس ومينرڤا فأشك قلوب الأعادى وأبهر القادة

---

(١) دع دفع ورد

والزعماء بجلائل الأعمال . . . ولم يكن من دأبى أن أشغل نفسى بأكلاف البيوت ومشاغل الحياة المعيشية الدنيا ، التى هى بالأحداث والغلمان أولى ، بل كنت مشغوفا أبداً بركوب البحار وخوض غمار الوغى ،وملاعبة الأسنة ، وما إلى ذلك مما جعلته السماء غراما وفرحا لى ، وضراما وفزعا فى فؤاد سواى – والناس كما تعلم فيما يعشقون مذاهب . . ولست أرسل القول على عواهنه ، فلقد قدت إلى طروادة تسعة جيوش ظَفرتْ بفيالقها قبل هذه الحرب الضروس الأخيرة بينها وبين هيلاس . . . ولقد حزت الثراء الجم والغنى الوافر من جراء هذه الحروب ، فأصبحت بين شعب كريت المفضل المبجل . . . ثم كانت الحرب الأخيرة التى قتل بسببها مئات من السادة الصنايد من رجال الإغريق ، فاختارونى أنا وصاحبى إيدومين قائدين للأساطيل . . . ثم حاربنا حول طروادة تسع سنين حافلات مُثْقلات وفى العاشرة سقطت المدينة فى أيدينا ، وعدنا أدراجنا نطوى اليم لا ندرى ماذا خبأت لنا المقادير ، ومن ثمة بدأ جوف يرسل صَيِّباً(١) من الرزايا فوق رأسى ، حتى إذا وصلت إلى كريت سالماً لم ألبث طويلا هناك ، ولم أمتع بالأهل والوطن إلا شهراً واحداً ، ثم أقلعت فى نخبة من رفاقى بأسطولنا إلى مصر بعد أن أولمت لهم وقربت القرابين وقد أرسلت العناية لنا ريحاً جرت بسفننا رُخاء كأنما أبحرنا مع تيار نهر لا جبار ولا عنيد ، ولم يحدث لأى من جوارينا سوء حتى بلغنا شطئان مصر فى اليوم الخامس ، واتخذت سفننا سبيلها فى النيل عجباً . . ثم حدث ما لم أود أن يحدث ، إذ سطا رجالى بعد خُلفٍ فى الرأى وشجار بينهم عنيف على حقول الفلاحين فاستاقوا أنعامهم وسبوا نساءهم . واسترقوا أطفالهم ثم ذبحوا رجالهم . . . بيد أنهم لم يسلموا مع ذاك من شر المصريين ! إذ استيقظت المدينة على صراخ الجرحى وأنين القتلى وتصويت النساء فأقبل أهلها كالجراد ، بين فارس وراجل وكل يحمل السيف البتار أو الرمح السمهرى ، فأعملوا فينا

(١) وابلا

ضرباً وتقتيلا واستنقذوا السبى كله ، وشفوا حَرَدَ[١] صدورهم منا . . .
أما أنا . . . فيا ليتنى قتلت فيمن قتل واسترحت من هذه الدنيا التى جرعتنى ضعف هذه الآلام بعد ! لقد كنت أشهد رجالى يهوون إلى الأرض ، وأعلم أن جوف قد أنزل هذا البلاء بهم جزاء لهم وفاقاً ؛ فلما رأيت أننى لا محالة شارب بالكأس التى شرب بها رفاق ، ألقيت سيفى وجريت أعزل من السلاح إلى حيث الملك الكريم ، فركعت بين يديه ، وقبلت الأرض إجلالا له ، وبكيت ما شاء جوف أن أبكى ، ثم سألته العفو والمغفرة ، فرق لى ، ورثى لحالى ، وأمر بى فأخذنى فى جملة خدمه إلى المدينة . وقد رام رجاله أن يقصدونى برماحهم لولا أن صدهم مخافة من الله الذى أمّن اللائذين به ، المستذرين بظله ثم لبثت فى أهل مصر سبع سنين هانئا سعيداً محبوباً من الجميع وحدث فى السنة الثامنة أن قدم إلى المدينة رجل فينيقى جواب آفاق ، مازال بى حتى أقنعنى بالفرار معه إلى بلاده ، وأغرانى بأن له ضياعًا وأملاكا ومالا ، ففعلت ، ولبثت معه حولا بأكمله ، ثم حدث أن كلمنى بعد هذا الحول فى رحلة لا أعرف إلى أين ، كانت أكبر الظن للسطو والقرصنة ، أو على الأقل لأباع فى بلد قصى بيع الرقيق ، فينتفع بثمنى . . . ورحلنا . . . ولكن عاصفة جبارة هبت علينا وتلاعبت بنا ، وعبست السماء وكلح الدأماء[٢] وتمرد من تحتنا الماء ، ثم أرسل جوف صواعقه على السفينة فقصمها . . . وغرق الملاحون جميعاً ! . . .
وأكرمنى الله العلى اللطيف فبعث إلىَّ بقلع السفينة الأكبر فتعلقت به ، ولبثت الصَّبا[٣] تقذف بى نحو الجنوب أياماً تسعة ، وفى ظلام الليلة العاشرة ، دفعتنى على شطئان تسبروتيا حيث أكرم مثواى ملكها العظيم البطل فيدون ، وعنى بشأنى . وذلك أن ولده رآنى طريحاً على الشاطئ أكاد أموت من البرد والجوع ، فحملنى إلى قصر الملك حيث ردت إلى الحياة وأعطيت دثاراً وصداراً ، وخصصت لى غرفة فسيحة ذات

(١) غيظ
(٢) عبس البحر .
(٣) ريح الشمال

أرائك . . . وهناك سمعت عن مولاك النازح ، البطل أوديسيوس ، ورأيته بعيني رأسي وقد ذكر لى عن فضل الملك وإكرامه مثواه ، ما برهنت عليه أعماله ؛ ثم أرانى أوديسيوس كنوزه من الذهب والنحاس وطرف الحديد التى جمعها فى أسفاره ، والتى تكفى للنفقة على أسرته عشرة أحقاب . . . وكان الملك يحفظها له فى غرف كثيرة فى قصره إعزازاً له وتكريما ؛ وذكر لى أنه ذهب إلى ددونا النائمة بين أحضان الحور والسنديان ليستوحى كاهن جوف الأكبر عما إذا كان خيراً له أن يذهب إلى بلاده متنكراً ، أو فى صورته الصريحة الحقيقية بعد هذا الغياب الطويل عن أهله . وقد أكد لى الملك أن المركب الذى سيحمل أوديسيوس إلى بلاده – إيثاكا – معد فى المرفأ ولولا أنى أبحرت قبله لشهدته بعينى يركب الفلك ، ذلك أن فلكا آخر لملاحين من جزيرة لشيوم كان راسياً فى الميناء ، فأمرهم الملك أن يحملونى معهم ويذهبوا بى بأقصى مايمكنهم من السرعة إلى الملك أكاستوس. ولكنهم واأسفاه تألبوا علّى فى عرض البحر ، وتآمروا بى ونزعوا صدارى ، ونضوا[1] دثارى ثم انتهزوا فرصة المد فأرسلوا بى إلى شاطئ إيثاكا ، بعد أن ألبسونى تلك البزة القبيحة التى ترى ، ولكى لا أقاوم أدنى مقاومة ربطوا ذراعى وساقى وشدوا وثاقى فى السارية فلم أبد حراكا . . . بيد أن الآلهة رأفت بى وحلت وثاقى فقذفت بنفسى فى الماء وسبحت إلى الشاطئ حيث وجدتهم يعدون عشاءهم ويلتهمونه سراعاً . . . وقد اختبأت فى الأدغال الكثيفة فلم يرونى . . . وهالهم ألا يجدونى حيث شدوا وثاقى ، فذهبوا يبحثون عنى حتى إذا لم يقفوا لى على أثر ، أقلعوا عجلين ، ونجانى الله منهم ، وساقنى إلى الرجل الصالح الطيب الذى وصل حياتى وأكرم مثواى . . . » فتبسم يومايوس وقال : « تالله لقد أثرت فى فؤادى مقالتك أيها الضيف الكريم ، وأشجانى مالقيت من أهوال ! ولكنك كما يبدو لى لم تكن جاداً فيما رويت من أنباء أوديسيوس فلم أيها الأخ وعليك من سيما

(١) نضا الثوب خلعه

النبل ومخايل الفضل ما عليك ، تلفق مثل هذه الترهات المضحكات ؟ أما والله إنه إن يكن قد نجا من الموت فى ساحة طروادة بما ألب عليه من سخط الآلهة أجمعين ، فأكبر ظنى أنه قد غدا جَزَرَ السباع وكل نسر قشعم . . . واأسفاه عليه ! ألا ليته قتل فى سبيل بلاده فى حرب عَوان يحمى فى وغاها بيضة الوطن ! إذن لبكاه جميع الإغريق ، ولاجتمعت هيلاس كلها تتنافس فى صنع لَبِنَات قبره ، وتخليد ذكره ، ولأورث ولده المجد والخلود ! هأنذا ياصاح ثاو فى هذا المكان ، لاصق بذلك البيت العتيق ، يفد على فى كل آنة غرباء مثلك ، يروون لى القصص ، ويلفقون الأحاديث عن مولاى ، فبعضهم يبكيه ويتحسر عليه ، بعضهم يوشى الأكاذيب ليغنم بعض الرفد[1] وينال بعض العطاء ، حين أقدمه للملكة الحزينة الكاسفة ، بنلوب ! ولعمرى ما انطلت على يوماً أحاديثهم ، ولاخدعت مرة بما روّقوا وزوقوا ! ! أفتحسبنى أصدق مازخرفت أنت الآخر عن أوبة مولاى مثقلا بأحمال الذهب من كريت ، واهما أننى بهذا أبالغ فى إكرامك ، وأحرص على التلطف بك ؟ لم تصنع هذا أيها الرفيق بعد أن ترفقت بك الآلهة ، وهدتك إلى شاطئنا ؟ أما والله إنى إنما أكرمتك حباً لجوف ورهبة من بطشه ولما جاش فى صدرى من الشفقة عليك والرثاء لك ، والتألم من أجلك .» وقال أوديسيوس يجيبه : « لشد ما أوتيت قلباً أفعمته الوساوس ، ونفساً ساورتها الشكوك أيها الشيخ ! هبها أنباء ملفقة ، فما يمينى التى أقسمتها لك إذن ؟ تعال ! هلم نتقاسم يميناً تكون آلهة الألمب عليها شهداء ، إنه إن آب مولاك إلى بيتك هذا فى أقرب ما تظن من الزمان ، فيكون لى عليك صدار ودثار أصلح بهما شأنى حين أعود أدراجى إلى دلشيوم ... فإن لم يؤب عاهدتك فتجتمع أنت ورجالك وعمالك وتقذفوا بى من رأس قلعة عالية سامقة يخشى أحقر الآفاقيين أن يتربع عليها » وأجابه راعى الخنازير : جميل والله أيها الغريب اللاجئ ! تكون ضيفى ،

(١) العطاء

وتؤاكلني وأؤاكلك على مائدتي . وتطمئن إلى ، وتأتمنى ، ثم أقذف بك من حالق ؟ جميل والله هذا ! وتضيع صلواتي ونسكي لدى جُوف العلى ! صه ! هلم هلم ، العشاء ياصاح ! لقد آن وقت العشاء . . . البدار قبل أن يدهمنا عمالنا فيزحموا المائدة ولاتجد لك مكاناً بينهم » .

وهكذا تشقق الحديث بين الرجلين ، ثم وصلت رعال الخنازير وأهرعت إلى حظائرها حيث ارتفع قُباعها(١) وعلت ضوضاؤها . . . وهتف الراعي بأحد غلمانه فأمر أن يحضر واحداً من أسمنها لعشاء الضيف ولعشاء الرعاة . . . « . . . أفما نستحق واحداً منها مماتلتهم بطون غيرنا الذين ينعمون بثمار كدنا ونصبنا ؟ »

وجئ بخنزير جسد ، وأججت النيران واتقد الجمر ، وصلى يومايوس للآلهة ودعا لمولاه بالخير ! وتمنى له العود أحمد العود ، ثم أهوى بشاطوره على عنق الحيوان فخر يتلبط (٢) فى دمه ، وسلخوه بعد ذلك . وهم به يومايوس فقطعه ، ووضع إرب اللحم على صبغ الشحم ، ونثر من الدقيق على كل ذلك ، ووضع الجميع فى الجمر ، وكلما نضج شئ وضعه الغلمان على المائدة ، حتى إذا فرغوا تولى الراعي العجوز توزيع الأنصبة فجعل لابن مايا (٣) سبعة أسهم ، ولعرائس الماء سهماً واحداً ، وجعل لكل من عماله نصيبه بعد أن اتحف أوديسيوس بأجزل الأنصبة جميعاً ، ثم كان يمده بعد ذلك بإمدادات جمة ! ! مما أطلق لسانه له بالشكر وعليه بالثناء ... ورد عليه الراعي فى أدب وافر : « إن الله هو مانح كل شئ يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويعطى ويسلب ، له الملك ، لا شريك له » . ثم أدوا صلاتهم الخمرية فأهرقوا المدامة للآلهة ، وكذلك صنع أوديسيوس ، وَهمَّ ميسولوس مولى يومايوس وخادمه الذى اشتراه بماله — فوزع الخبز ، ولبث يخدم ويسقى ، ويجئ ويروح ، حتى إذا فرغوا نظف المائدة وأعاد كل شئ

(١) القباع بالضم صوت الخنازير .
(٢) يتخبط
(٣) هرمز

إلى مكانه ، وانصرف القوم إلى مضاجعهم ليناموا ليلة ليلاء ممطرة شديدة القر ، عظيمة البرد ، ونام أوديسيوس قريباً من مضيفه ، ولم يكن عليه من الغطاء ما يقيه هول القرس [١] فلفق هذا الحديث للراعى الشيخ ولمن نام معه من عماله : « لله ما تصنع خمركم بالألباب ياقوم ! لقد أوشكت أهذى وأنتفض وأملأ شدقى بالضحك ... ولولا هذا القر لقمت فرقصتُ ، ولكننى محدثكم حديثا من أحاديث الشباب فيه هذيان وفيه ثرثرة ، وفيه من حميا سلافكم مافيه . ألا ما أحلى أيام الشباب وما أروعها لورجعت ! ! إن لها لصدى فى نفسى يتردد ، وإنى ما عشت لن أنسى تلك الليلة القارسة الشاتية التى قضيتها فى صدر الشباب وريعان الصبى مع صديقى أوديسيوس ومنلوس فى كمين تحت أسوار طروادة ، فى مستنقع آسن ذى قصب ، نرقب من عدونا فرصة تظفرنا به وتنصرنا عليه ، مقنعين فى الحديد والزرد [٢] صابرين لما يصفعنا به بوريس [٣] من ريح عاتية وبرد ، ويسفعنا به من قر وبرد ، حتى انعقد الصقيع على دروعنا ، وكدت أنا اجمد ويجمد الدم فى عروقى ؛ لأنى واأسفاه استهنت أول الأمر بما أنذرت به الحال من هذا المآل ، فخرجت فى عدتى وسلاحى ، ولم ألبس معطفى ولم ألتفع ريطتى [٤] ، بينما قد احترز رفاقى فتدثروا بكل ثقيل ... وخفت ألا أصبر لهذا البرد فتكون القاضية ، فهتفت بأخى أوديسيوس : « أدركنى ياابن ليرتس النبيل فقد أشفيت على الهلاك من ذلك الزمهرير ! أدركنى بأربابك فإنى قد استخففت بالفصل الذى نحن فيه فلم أحضر معى معطفاً ويكاد يقتلنى البرد ويهرؤنى الصقيع » ، وأسكتنى أوديسيوس خشية أن يسمعنا أحد فلا نفلت من الموت ، وقال لرفاقه : « أيها الإخوان ! رأيت رؤيا بودى لويذهب أحد إلى أجاممنون فيطلب لنا مدَداً فلقد بعدنا

(١) القرس البرد الشديد جداً .

(٢) لابسين دروع الحديد .

(٣) رب ريح الشمال أو الصبا .

(٤) الريطة تشبه الكوفية .

عن الأساطيل ، ولسنا بخير لما ترون من قلتنا ! » وانبرى لها أندريمون فخلع معطفه وأطلق ساقيه للريح ... وأشار أوديسيوس الخبيث إلى ، فلبست المعطف واستدفأت به ، وحمدت الآلهة « أفليس فيكم أيها الأجاويد رجل رشيد ، فينزل لى عن معطفه أتقى به هذا البرد الشديد وأنا فى مثل سنى وأنتم فى ميعة شبابكم ؟ ألا تفعلون ! لتكن لكم هذه اليد علىّ تفضلا أو تأدباً ! » وقال يومايوس يجيبه : « لاعليك ياضيفنا العزيز ... إنك لن تشكو برداً ولا تقصيراً عندنا ... وليس لدى كل منا إلا دثاره وصداره ومعطفه ، وليس لدينا منها كثير نباهى به ، ولسوف يعود تلماك ابن سيدنا ومولانا فيخلع عليك من الملابس مايسرك ويبهجك ؟ ولكن رويداً فسأكفيك عادية القر برغم هذا ... وبرغم ما غمزت فى حديثك ولمزت ! ! » . ثم نهض فجمع شيئاً كثيراً من فراء الغنم وجلد الماعز فجعله ركاماً بالقرب من المدفأ ، ثم جعل عليها ظهارة [1] من الصوف ، فصلحت بذاك أن تكون لأوديسيوس وسادة وثيرة ليس بها من بأس ، نام فيها فاستراح ، والتحف بفراء آخر ، وبات ليلته والابتهاج يغمر نفسه لما رأى من حرص راعيه على ذكراه ، وحنينه للقياه وعنايته بقطعانه . أما الراعى العجوز الشيخ ، فكأنما أثرت فيه مقالة أوديسيوس فهب فالتى عليه سلاحه« وأضفى على كاهله دروعه بعد أن خلع واتزر بجلد عنز ثم أجلس »بازيه الباشق على كتفه الضعيف ، وحمل حربته التى يذود بها الناس والسباع عن رعاله ، وانطلق فى العراء ، حيث جلس على صخر مشرفة على السهل ، وذاك ليحرس القطيع النائم ... غير عابئ بقرس الريح ولا وحشة الليلة الليلاء ...

(١) ظهارة الفراش ونمطه مايفرش عليه كالملاءة

عودة تليماك

ثم رفت مينرڤا رفتين أو نحوهما ، فكانت فى وادى ليسديمون الخصيب حيث حل تليماك ضيفاً كريماً على الملك منلوس ، وحيث وجدته يتقلب على فراش السهد والأرق ، لا يستطيع أن يغمض عينيه من هول ما يفكر فى أبيه ... بينا نام ابن الملك نسطور ملء عينيه نوماً هادئاً عميقاً على سرير مقابل لسرير الفتى المحزون .

ووقفت الربة عند رأس تليماكُ وأنشأت تقول له : « إلام تظل هنا فى مُهَاجرك بأقصى الأرض نائياً عن وطنك ياتليماخوس ؟ أو هكذا رضيت أن يأكل العشاق الفساق تراثك ويذهبوا بنعماء السماء عليك ، ثم لا تلبث أن تثوب إليهم من تطوافك بالآفاق بقبضة من هواء ، وخيبة من رجاء ! هلم هلم ! سل الملك أن يأذن لك فى السفر من فورك فقد ألح جدك وأخوالك على أمك فى أن تتزوج من الأمير يوريم ، لما اتفق عليه من مهر ضخم ، وتقدمات وافرة ، أضعاف ما وعد الآخرون ... هذا فضلا عما يوشك أن يسلب من القُنى العزيزة عليك من بيتك ، التى تنقص من هنا لتزيد فيما هناك ، فإنه ليس أحب من هذا إلى فؤاد المرأة ، وهى سرعان ما تنسى أطفالها من زوج شبابها ورفيق صباها من أجل زوجها الثانى الذى تود لو تهبه كل شىء ، فالبدارَ البدارَ إذن ، وعد أدراجك إلى بلادك لتحفظ تراث أبيك ينفعك حين تكون لك زوجة صالحة وذرارٍ أنجاب ببركة السماء ورعاية الآلهة ... ثم خذ حذرك ياتليماك ، فلقد اختبأ زعيم العشاق فى ثلة من رجاله بين ساموس وإيثاكا يتربصون بك ويترصدونك ليغتالوك قبل أن تصل إلى شاطئ الوطن ... وإن فألهم لخائب ، ولن يفعلوه حتى يهال تراب الموت عليهم جميعاً ... ألا فارحل يابنى فى ظلام الليل ، واجْنُبْ سفينتك أن تسلك سبيل ساموس ، وابعد ما استطعت عن الجزائر القريبة منها ،

وسيرعاك بعض الآلهة ، ويسخرلك ريحاً رخاءً تسارع بك إلى بلادك . فإذا بلغت أول الشاطئ الايثاكى فانزل إلى البر ، ولتسلك الفلك سبيلها من دونك ، ولتذهب أنت إلى يومايوس راعى قطعانك الذى يحبك فأرسله إلى أمك كى تقر عينيها بأوبتك .» وما كادت تفرغ حتى زّفت [1] إلى الأولمب . وهب تلماك فأيقظ رفيقه من نومه قائلا : « هلم بيزاستروس ! هلم فأسرج الخيل ولنرحل من فورنا ! » وقال له ابن نسطور يجيبه : « هلم إلى أين ياصاحبى ؟ كيف نخبط فى هذا الليل الدامس ؟ ألا نصبر حتى تشرق ذكاء ، حتى يلقاك الملك فيخلع عليك ويحسن وداعك ، لتظل ذكراه الحسنة ماثلة إلى الأبد فى روعك ؟»

وانبلج الصبح ، فنهض منلوس الملك من نومه العميق ، ويمم شطر الغرفة التى نام فيها تلماك ورفيقه . وما كاد تلماك يلمح فى غبشة الفجر صورة الملك حتى هب مسرعاً ، وأضفى عليه طيلسانه الفاخر ، وأتّزر فوقه بمئزرآخر ، ثم دلف نحو الباب فلقى الملك ثمة وقال له : « بورك الملك وتعالى جده ! تالله لقد آن لى أن أعود إلى إيثاكا ، وبودى لو أذن الملك بذلك » فقال الملك : « إنا لا نستطيع أن نحجزك إذاكانت رغبتك أن تشد رحلك ياتلماخوس ؛ وإنه ليس أشق علينا أن يقيم ضيف لدينا برغمه ، أو أن نَعْجله على الرحيل من عندنا ... بيد أنه يحسن أن ننتظر قليلا حتى نهيئ لك أفخر الهدايا وأعز اللُّهى وحتى نعدها لك فى عربتك ، وسآمر ندَاماىَ فيعدون لنا فطوراً يليق بوداع ضيف كريم عزيز مثلك ، لابد له من أكلةٍ حافلةٍ تصبر لسفر طويل يزمعه . فلو أن سفرك هذا كان خلال هيلاس وكنت من أجله ستجتاز آرجوس شرقا لغرب ، إذن لسافرت معك ، ولجزت بك مدائن شتى ، ولأهرع إلينا عمال الأقاليم يقدمون إلينا الهدايا والتحف ، من صحائف الذهب وركائز الإبريز وكل كأس ثمينة ، من كل دابة مطهمة وجواد كريم » وأجاب تلماك فى أسلوب الفطين الحذر :

---

(١) زف الطائر أسرع فى طيرانه

« مولاى أتريدس ، منلوس العظيم ! تالله إنه لآثر إلى أن أرحل لساعتى ، فلقد تركت ورائى بيتاً لم أدعه فى صيانة أحد ، وحطاماً لست آمن عليه أحداً . وأخشى يامولاى أن أقضى فى رحلتى هذه وراء أبى ، فلا أكون قد أبقيت على نفسى ، ولاراعيت تراثه الذى تركه لى » وأمر الملك خدمه فهيأوا الخوان ، وزودوه بما بقى من عشاء أمس ، بعد أن أضرم رئيسهم إيتون ناراً أسخن عليها ما ينبغى أن يكون منها حاراً ... وتوجه الملك إلى غرفته ، فلقى فيها زوجه وولده ؛ فتناول كأساً من الذهب الخالص ، ودفع لولده بدلها من الفضة ؛ أما الملكة فنهضت إلى خزانتها فأحضرت ساجاً [1] عملت فيه يدها الصناع فزخرفته وزركشته حتى بدا كسماء التمعت فيها نجوم ... وعاد ثلاثتهم إلى حيث ينتظرهم تلماك وكلمه الملك فقال : « ذاك تذكارى إليك يا ابن أوديسيوس بودى لو تقبلته . وهو كأس عجيبة من صنع ڤلكان أهداها إلى البطل فيديم ملك سيدون [2] حين حللتُ عليه ضيفاً ، هذا وأنا أدعو لك أن يكلأك جوف فى رحلتك بعين الرعاية ، وأن يكتب لك السلامة والتوفيق ، ثم قدم إليه الكأس العظيمة وكذلك فعل ابنه ؛ أما هيلين فقدمت إليه الساج ، وتبسمت عن فم أنضر من أقحوانة ، وقالت له : «وأنا أيضاً أدعولك يابنى ، وأقدم إليك سدوساً [3] من أنفس الديباج حبذا لو جعلته قنْيَةً تذخره لك أمك حتى تقدمه بدورك لعروسك ليلة زفافها إليك » وكان لكلماتها فى نفسه نشوة ، فأخذ الطيلسان وناوله ابن نسطور الذى عنى به ووضعه بمكانه من العربة . ثم يمموا المائدة الكبرى ، وصبت الماء على أيديهم جارية ذات حسن وأناقة وظرف ، وأخذوا بعد ذلك فى فطورهم بينا وقف ابن الملك يدهق الكؤوس ويشرب الخمر ، حتى إذا فرغوا نهض تلماك ورفيقه فسلما وودعا ، وركبا العربة الفخمة المثقلة بأثمن الهدايا ، وتناول الملك كأسا من الخمر وسار حتى دنا من الخيل ؛ فصبَّها صلاة للآلهة من أجل الراحلين وقال : « لكما الصحة والصفاء أيها الشابان

(١) الساج الطيلسان .

(٢) سيدون هى صيداء

(٣) هو الساج أيضا .

اليافعان ، تحياتى إلى نسطور أخى الذى كان يرعانى كأحد أبنائه تحت أسوار طروادة » فأجابه تلياك : « لاغرو أيها الملك ، فسنقص عليه آية كرمك وعظيم سخائك ... وأرجو لو وصلت إلى إيثاكا فلقيت أبى أوديسيوس ثمة ، إذن لقصصت عليه هو الآخر ما غمرتنا به من حفاوة وكرم وعطف ! » وماكاد ينتهى من كلمته حتى بدا عن يمينه نسر عظيم يحمل فى مخالبه إوزة كبيرة بيضاء ، وقد حلق فى الهواء ، وجرى خلفه الخدم والحشم من أهل المدينة ، بيد أن النسر فاتهم جميعاً . . . وقد زُعج الملأ الواقف لتوديع تلياك ، وبدأ الهلع فى وجه بيزاستراتوس ، فسأل الملك فقال : (ليتفضل الملك فيحدثنا عن هذه العلامة إذا كانت من أجلنا أو من أجل مولانا ، ولكن الملك لم يحر جواباً لفرط دهشه . فلما لحظت حيرته هيلين زوجته ، تكلمت فقالت : « أيها الملأ اسمعوا وعوا ، فإنى أحدثكم كما علمتنى الآلهة ... تالله إن هذه لآية ، فكما غلب ذاك النسر أولئك الناس ، وذهب بتلك الإوزة البيضاء ، فهى له ، فكذلك يعود أوديسيوس من تجواله وطويل ترحاله إلى إيثاكا ، فيبطش بأعدائه الذين استباحوا عرضه وعشقوا زوجه ، ويخلو له وجه بنلوب » وانتفض تلياك من شدة ما أثرت فيه كلمات الملكة فقال : « ألا حبذا أن يتم هذا ! اللهم ياجوف المتعال حقق النبوءة أعبدْكَ ، واكتب لأبى السلامة أخبتْ لك ، وأكتب لى أعود إلى بلادى فألقاه ثمة تكن لك صلاة دائمة وذكرمتصل ياإله السموات ! » ثم حيّا الملك ، وألهب الجياد فانطلقت تنهب الرحب ...

ولم يزالا على سفر طوال يومهما ، حتى بلغا قصر ديوكليس مع مغيب الشمس ، فضيّفهما وباتا ليلتهما عنده ، وما كادت أورورا تنضر جبين الشرق بالورد حتى هبا مسرعين ، وودعا مضيفهما الكريم ، وواصلا رحلتهما ... وكان ابن نسطور قد أخذ بأعنة الخيل فجعلها تنساب حتى لكأنها تسابق الريح ... ولما بلغا أبواب بيلوس قال تلياك لصاحبه وهو يحدثه : « أنت عذيرى ياأعز الأصدقاء إذا سألتك أن تصل بى إلى السفينة

من غير أن تتوجه إلى بيتكم للقاء أبيك ، فقد يكبر عليّ أن أرفض نُزُله ، وأستأنى بذلك عنده ، فى وقت أنا فى أشد الحاجة إلى العودة إلى الوطن ... على أننى سأحفظ لك فى أعماق ذكرى خالده لاتمحى ، زادتها هذه الرحلة الحزينة جمالا ، وعقد أواصرها ما بين أبوينا من الود ، وما بيننا من اتفاق السن ، وصفو المودة وجميل الإخاء » وتردد ابن نسطور أول الأمر ، بيد أنه لم يستطع إلا أن يلبى رجيّة تلماك ، فثنى أعنة الخيل إلى الشاطئ حيث كانت تنتظره الفلك ، فنقل إليها متاعه ، ثم ودعه صديقه وعقرت القرابين باسم مينرفا ، وصلى لها الجميع وسبَّحوا سبحاً طويلا ... وإنهم لكذلك . إذا شاب طويل مفتول العضل يتقدم إلى تلماك ، فيخبره أنه قاتل آبق (١) ، وأنه يلوذ به ، وأن اسمه تيوكليمين ، وأنه يرجوه فى أن يسافر معه ، فهش له وبش ، وأخذ سلاحه فألقاه فى السفينة ، وأذن له فى الركوب ، وجلس الرجل مع تلماك عند مؤخر السفينة ، فى حين كان الملاحون يهيئون القلاع ، وينشرون الشراع ، ثم أقلعت الفلك ، وأرسلت مينرفا بين يديها سجسجاً تدفعها فى رفق ، وتطوى تحتها الماء فى حدَب . وكانت الشمس تتوارى بالحجاب ، وكان الليل يلقى سدوله فوق الكون ... وما هى إلا عشية حتى مرت السفينة بقيريا ، وبمدن غيرها . وجوف فى كل ذلك يحرسها ويرعاها .

* * *

هذا ما كان من أمر تلماخوس الفتى . . . أما ما كان من أمر أوديسيوس وراعيه ، فقد كانا يلتهمان فى هذا الوقت طعامهما ، وما كادا يفرغان من ذلك حتى أحب أوديسيوس أن يرى لنفسه إذا كان الراعى قد ضاق به ذرعا فينطلق من لدنه ، أو هو كريم ذو نخوة ونحيزة (٢) فيبقى عنده ، فنهض يقول : « أيها الراعى يومايوس . . . وأنتم أيها الأصدقاء الرعاة . . . اسمعوا وعوا . . . تالله إنى لأخشى أن أرهقكم بضيافتى أو أثقل عليكم

(١) نضرب صفحاً عن قصة هذا الرجل لبعدها عن الموضوع

(٢) مروءة

بلبثى عندكم طويلا ، فرجائى إذا انفلق الإصباح أن يقودنى أحدكم إلى المدينة لأستجدى وأتكفف ، فلن أعدم فيهم من يتفضل على ببلغة[1] أو كسرة أو جرعة ماء . . . ولسوف أيمم شطر بنلوب وعسى أن أستطيع لقاءها لأبلغها أنباء أوديسيوس ، فإذا لم أستطع فلن أعدم عملا فى خدمة العشاق ، لأنى والله المحمود ولى من أولياء هرمز رسول السماء ونصير الضعفاء ، ولن أضيق بتكسير الخشب ، أو إضرام الحطب ، أو حمل الكاس والطاس ، أو القيام على الشواء . . . أوما إلى هذا وذاك من عمل الفقراء البائسين » واهتز يومايوس إشفاقاً وقال : « أيها الرجل ماذا تقول ؟ أتجازف بنفسك فتلقى بها إلى التهلكة وسط هؤلاء الناس ؟ من أنت أيها الفقير حتى تحسبك تقدم الخمر لهم أو تخدمهم ولهم خدم شباب غُرَانيق ، وندامى كالكواكب نضرة وجمالاً . . . وَحشَم يلبسون أحسن الوشى وأفخر الحرير والديباج . . . لتبق معنا أيها الشيخ فلن نضيق بك ، وحين يعود سيدى تلماك فإنه يكسوك ويسبغ عليك ، ويبعثك مكرماً معززاً أنى شئت ». وشاع البشر فى أعطاف أوديسيوس فقال : « شكراً لك يايومايوس ألف شكر ، وجزاك الله عنى أجزل الخير ، بما كفيتنى شر السؤال وذل الاستجداء وليس شراً منهما على نفس أبية قاست الأهوال ولا تزال تقاسى . . . بيد أن لى مسألة عندك بودى لو جلوتها لى : ألا يزال والد أوديسيوس حياً يرزق ؟ وهل لا تزال أمة بخير ؟ أم أنهما اليوم من أهل الدار الآخرة ؟ لقد غادرهما أوديسيوس يوشكان أن يطرقا باب هيدز ، فهل عندك من أخبارهما شئ ؟ » . قال الراعى : « ومالى لا أصدق أيها الشيخ ؟ إن ليرتيس — أبا مولاى — لا يزال على قيد الحياة . . . لكنها حياة شاقة أنْقَضَت ظهره ، وأنفذت صبره ، وهو ما يفتأ يضرع للآلهة أن تخلصه منها بالموت . . . إنه قد فقد أحسن آماله حين فقد حامى شيبته الذائد عن شيخوخته ، ولده أوديسيوس ، وقد عجل له الشقاء موته وحياته هو من بعده ، فهو ما ينى يبكيه ، وما ينفك يُساقط نفسه حسرات عليه . . . أما أمه فقد

(١) البلغة اللقمة من الطعام .

قضت من أسى وحزن وطول بكاء ، قضاء ما قضى مثله صديق ولا عدو ! إننى حزين عليها يا صاح ، بل أنا أفتقدها كأعز من أمى لأنها نَشأَّتنى صغيراً ورعتنى كبيراً ، وكانت تحبنى كمحبة ابنتها ستيمينا التى تزوجت أحسن زيجة فى ساموس من كفء مهرها أحسن مهر وأغلاه . . . أبداً لا أنسى أنهم ألبسونى أحسن اللباس ، وأعطونى نعلين جديدتين ، فرحاً بزواجها ، ثم أرسلونى إلى الحقل ، ولكنهم لم ينقصوا من محبتى . . . لقد عاشت مولاتى بعد أوديسيوس معيشة شقية كلها آلام ، كنت أواسيها وأعزيها ، ولكنها ما انتفعت قط بعزاء ، ولا استروحت إلى سلوة ، حتى ماتت ، وهأنذا أبكيها كلما ذكرتها ، وقلَّ أن أنساها ، على أنى أحمد السماء على ما أولتنى من خير ، وأسبغت علىّ من نعم هى حسبى وحسب الضيف الذى يغشانى . . . على أنى أعذر مولاتى وسيدتى بنلوب إذا لم أر منها عطفا علىّ ، لأنها فى شغل بحالها وسط هؤلاء الأوغاد المعاميد . . . وهى بالرغم من ذلك تولى خدمها المقربين منها نصائح غالية تنفعنا جميعاً . . . ثم هى لا تنسى أن تنفح الكثيرين منهم ما يفرحون به من آلاء وأعطيات ، غير ما يأكلون وما يشربون » . وكأنما أراد أوديسيوس أن يتهكم عليه ويسخر به فسأله عن بلده ووالديه ، وعن القوم الذين أخذوه عنوةً ، و فى أى سفينه جاءوا به ، وبكم باعوه لأهل أوديسيوس ، فقال الرجل : « أيها الصديق أعرنى أذنيك ، وارشف خمرك ، أقص عليك قصتى ، فالليل طويل ، و فى جنُحه يحلو السمر ، وليس أشهى من أن يروِىَ ذو أشجان ، وانتم أيها الإخوان ، من كان منكم فى حاجة إلى النوم ليصحو مبكراً فليذهب ولينعم بالكرى . . . ثم أحسبك سمعت أو عرفت جزيرة سيريا التى عند أورتيجا . . . إنها جزيرة صغيرة ، لكنها غنية بأغنامها وماشيتها وقمحها وأعنابها ، كما اشتهرت بهوائها العليل ، ومناخها الجميل ، وصفوها وطيب رياها [١] . . . لذلك لا تعرف أبدان أصحابها الأوصاب [٢] ، بل يُعَمَّرون

(١) شذاها
(٢) الأمراض

حتى يأتيهم أبو للو (١) فيصميهم بسهامه ، وتعجل أرواحهم إلى هيدز ، ويقتسم أرض الجزيرة أهل مدينتين عظيمتين . كانتا تخضعان لسيطرة أبي الزعيم العظيم ستزيوس أورميند . . . وحدث أن أرست في شاطئنا سفينة فينيقية محملة بالطُّرف والتُّحف وبلعب الأطفال ، من صناعة الفينيقيين ؛ وحدث أن كانت في بيت أبي جارية قسيمة وسيمة ذات حسن وذات دلال ، كانت تقف على سيف البحر لبعض شئون المنزل ، فرآها بعض ملاحي المركب واستطاع أن يخدعها بكلام معسول ذي طنين وذي رنين ؛ ثم سألها من هي ، ومن أي البلاد أقبلت إلى هذه الجزيرة وكان الخبيث يمزج ألفاظه بنظرات الأبالسة ، وغمزات الشياطين ، وابتسامات الغزل ، فانقادت له ، ضعيفة كبنات جنسها إذا نصبت لهن شراك الهوى ، وجذبتهن أحابيل الغرام ، وقد أخبرته الغادة أنها من سيدون المشهورة بصناعة الصلب والنحاس ، وأن أباها أربياس الفلاح ، وأن بعض القرصان قد اختطفها حين كانت عائدة أدراجها من حقله ، وباعها لصاحب تلك الجزيرة بأبخس الأثمان وقد أغراها الملاح بالعودة معه إلى بلدها على فلكه ، وبالفرار من حياة الرق والعبودية للقاء الأهل والأحباب والأبوين المثريين اللذين كانا لا يزالان حيين يرزقان . . . فاستحلفته المسكينة إذا كان جاداً فيما قال ، فحلف لها ، واستقسمته إذا كان أميناً غير ذي غرض أو لُبانة ، فأقسم لها ؛ ثم تعاهدا على ذلك وقالت له : « والآن فلا يذكر أحد من أمري معكم شيئاً لأي من أهل المدينة ، حتى لا يفشو السر ويعلم به صاحبي ، فيكون في ذلك وبالي ووبالكم وهلاكي وهلاككم . . بل امضوا في بيع بضاعتكم وشراء ما يلزمكم . ثم إذا عزمتم أن تفعلوا فابعثوا أحدكم إليّ بقصر صاحب الجزيرة ، فإني مرضع ابنه . وهو الآن يحبو ، بل يدرج ، إلى محضرته معي فانه سينفعكم ، بل

---

(١) تضيف بعض النسخ ديانا — وهذه أول مرة نرى فيها أبو للو يقوم بوظيفة عزرائيل في الأدب اليوناني ، لأنها وظيفة هرمز (مركيوري) خاصة (د . خ)

تستطيعون بيعه فى أحد البلاد ببعض المال . وسأحضر معه كل ماتستطيع يدى أن تحمل من آنية وأكواب من خالص الذهب وغالى الفضة ، مما يخف حمله ويغلو ثمنه » وعادت البائسة إلى قصر أبى . . . ولبث الملاجون عامهم كله فى مرفئنا يبيعون ويشترون حتى إذا حال الحول أو كاد ، حضر واحد منهم إلى بيتنا يبيع بنيقة[1] من ذهب وكهرمان ، فالتف حوله وصيفات القصر ثم حضرت أمى فاشترت بضاعة الرجل الخبيث ، الذى استطاع أن يومى إيماءته المتفق عليها إلى مرضعى فلما انصرف من فى القصر من أضياف ، وذهب الخدم إلى شغلهن قادتنى مرضعى التعسة من يدى فمرت بى فى غرفة الزائرين ، حيث كانت أكواب الشراب لا تزال على المائدة فدست منها ثلاثة فى ثيابها ثم ذهبت بى – وأنا طفل لا أدرك – إلى المرفأ ، حيث ركبت معها فى سفينة الفينيقيين ، فأقلعوا ساعة الغروب . . . ودفعتنا ريح عاصف طيلة ستة أيام ، وفى صبيحة اليوم السابع ، أرسلت ديانا سهامها مسمومة إلى صدر المرأة – مرضعى – الآبقة – فماتت لساعتها – ووضعوا جسمانها فى سَأْبٍ[2] ثم قذفوا بها فى اليم ، طعمة غير سائغة للأسماك ، ورحت أنا ، لفرط حبى لها ، أبكيها وأُعْوِل من أجلها . . . ثم دفعتهم الريح والموج إلى شاطىء إيثاكا ، حيث ابتاعنى صاحبها العظيم ليرتيس ، وبقيت فيها إلى اليوم » وألم أوديسيوس لما قص الراعى وتوجع ، وواساه بكلمات طيبات . . . « فلقد وصلت فى رعاية جوف إلى سيد رحيم ورجل بر ، كفل لك الهناءة والحياة الهادئة . . . أما أنا ، فلا أزال موكلا بفضاء الأرض أذرعه . وببلد ألبسه وآخر أقلعه » . . . ولما يناما طويلا فقد قطع حديثهما حبل الليل . . . أما ما كان من أمر تلماك ورجاله ، فقد وصل ملاحوه سالمين إلى الشاطىء الإيثاكى ، وأرسوا ثمة ، وربطوا حبالهم فى أوتاد المرفأ . ثم اجتمعوا إلى فطورهم فأكلوا

---

(١) بوزن سفينة ولا تشدد ، هى (الياقة او الكولة) .

(٢) السأب والمسأب وعاء كبير للزيت أو الخل وهو الزق ولم نجد مرادفا لكلمة (برميل)المعروفة فاستعملناه (دخ)

وشربوا . . . فلما فرغوا أمرهم تلماك أن يذهبوا هم إلى المدينة ، « . . . أما أنا ، فذاهب لبعض شأنى فى المراعى القريبة وسأعود قبيل الغروب ؛ و فى الغد ، سأسقيكم سلافة الأوبة التى تذهب عنكم وعثاء هذا السفر » ونهض تيوكلمين (الشاب الآبق) فاستأذن فى الذهاب بالبشرى إلى والدة تلماك ، ولكن تلماك قال : « كلا ياتيوكلمين ، لا أريد أن تعلم أمى بقدومى اليوم ، فابق مع رجالى هؤلاء حتى لا تقع أبصار الخُطَّاب المناكيد عليك ؛ وإن شئت فاذهب إلى أحدهم ، يوريماخوس ، فهو أعظمهم قدراً وأنبههم ذكراً ، وهو الذى يحاول جاهداً الزواج من والدتى ، والجلوس على عرش أبى ، فاربط حبالك بحباله . . . أواه يا أرباب السماء ! حنانيك ياجوف ! بعداً لهذا الزواج ، وبعداً لمن يحلمون به ! » وما كاد يفرغ من حديثه حتى بدا إلى يمينه بازى باشق – هو من غير ريب رسول أبوللو الأمين – وقد أمسك فى مخالبه حمامة بيضاء ، فظل يُدَوِّم ويرنِّق حتى إذا كان بين الفلك فى البحر وتلماك فى البر نثر خوافيها[1] فى الجو ، فنزلن بالقرب من تلماك – وهنا – تكلم تيوكلمين فقال : « تالله إنها لآية من السماء ياسيدى ، إنك ابن أعظم من فى هذه الأرض ، وإن بيتك أعرق بيوتها ، وستظفر كما ظفر آباؤك وشكره تلماك ، وتمنى لو صدقت نبوءته ، ثم أوصى به أعظم رجاله وأخلصهم له – كليتوس – فاهتزت أريحية الرجل ، ووعد أن يكون له كسيده (تلماك) حتى يئوب . . . وسلم تلماك – ومضى للقاء يومايوس ثم أقلعت السفينة بمن عليها إلى المدينة .

---

(١) الخوافى أكبر ريش فى جناح الطائر والمقصود هنا الريش كله .

أوديسيوس يلقى تليماك

لقد كانت هَدْأة الفجر الساكنة الجميلة حينما هب يومايوس وضيفه من نومهما ليلبسا ثيابهما ويعدا فطورهما ، وليرسل الراعى عماله وراء قطعانه النائمة فى السهل الصامت الوديع . . . وحينما أقبل تلماخوس أهرعت إليه الكلاب تلحس ثيابه وتلعق قدميه ، وتهتز من نشوة وطرب لأنها رأته بعد طول الغياب . . . وقد لحظ أوديسيوس ذلك فقال يتحدث إلى الراعى « يومايوس ! هذا أحد معارفك أو الأودّاء إليك مقبل . . . لشد ما تملقه الكلاب التى أوشكت من قبل أن تعقرنى ! إنها لاتنبح ولا تكشر ، بل تقعى فى إثره ذليلة ! » وما كاد يفرغ من حديثه حتى كان ولده واقفاً أمامه فى رحبة الدار . وما كاد يومايوس يلمحه ، حتى هب من مقامه مسبوها مرتبكا ، وحتى انقذفت الأكؤس التى كان يمزج فيها الخمر من يديه . . . بيد أنه ذهب إليه يقبله ثم يقبله ، ويبالغ فى تقبيله ، كأبٍ مشوق لقى ولده فجأة بعد بضع سنين من مرارة البعد وألم الفراق ! ثم قال يكلمه : « أواه تلماخوس ؟ أهو أنت يانورعينىّ ؟ أنت نفسك ؟ أوَقد عدت ؟ تالله ما كان يخطر بخلدى أنك عائد من سفرك بعد الذى دبَّروا لك ؟ هلم ياحبيبى ! تعالى يابنى ! فلقد عادت روحى من سفر سحيق برؤيتك . . . تعالى تلماخوس فما أندر ماتزورنا هناك لطول اشتغالك بالمعاميد المناكيد ! ! » وقال تلماك يجيبه «أجل أيها الصديق؛غير أننى أتيت لأسألك عن أمى! ألاتزال مخلصة لذكرى أوديسيوس ، قائمة على عهده ، أم أنها هجرت مهاده لتقع فى شرك من شراك العناكب المحدقة بها ؟ » وأجابه الراعى فوصف له ما تلقاه الأم المحزونة من الضنى والحَزَن ، وما تذرف من الدموع فى جنح الليل لما يرميها به الحِدثان . . . ثم دخل تلماك بعد أن أخذ الراعى حربته ، فنهض أوديسيوس ليخلى لولده مقعده ، فأبى تلماك . . . « لأن المكان فسيح ، ولأن يومايوس يستطيع أن يعد لنا مقعداً آخر . . . فوالله

لتجلسّ أيها اللاجئ الكريم ؟» . وهيأ الراعى لسيده مقعداً من الحشائش الغضة والحلفاء الرطبة جعل عليها فروة كبيرة مما عنده ؛ وجلس تلماك . . . وأحضر يومايوس فطوره فى أطباق من أطباق أمس وشيئاً من الخبز والخمر ؛ ونشر الصفحات على الخوان أمام مولاه ، وأخذ الثلاثة يلتهمونها أكلة مريئة هانئة . . . حتى إذا فرغوا ، توجه تلماك بالحديث إلى راعيه فقال : « ممن ضيفك يأبتاه ؟ ومتى وصل إلى إيثاكا وكيف ؟وأى الملاحين حملوه إلى شاطئنا » . قال الراعى : « والله يابنى ما أستطيع أن أخفى عنك ما قال ؛ فهو يدعى أنه من نسل الأماثل الأمجاد من أمراء كريت ، وأنه طوّف فى الآفاق ، وسافر فى البلاد ورأى من المدن مالاعين رأت . . . وهو يقول إن فلكاً قبرسيا قد حمله إلى شاطئنا قبل أن تحمله رجلاه إلى كوخى هذا . . . ولكن . . . لم هذا ؟ ولم أتولى أنا الإجابة ؟ إنه أمامك وأنا أدع أمره لك ، فاصنع به ما تشاء ؛ إنه لائذ بك ، قاصد بابك ، وأحسب أن له حاجة عندك ! » وبدأ الألم فى محيا الشاب فأجاب : تالله لقد آلمنى حديثك أيها الأب يومايوس ! أنت تجعله لائذاً بى قاصداً بابى ، وأنت تعرف من حالى ما تعرف ، وتعلم أننى مُرزّأ بهذه الطغمة ، مشغول بوالدتى التى لا أستطيع أن أدفع عنها إصر هؤلاء الأنجاس المناكيد ، الذين طال لبُثهم حولها ، وتوقّحهم بسببها ، حتى لأخشى أن تضيق بهم فتختار مرغمة أفضلهم بعلالها ، أو أكثرهم عطاء وأوسعهم ثراء ... بيد أننى أوثر أن أمنحه دثاراً وصداراً ، ونعلين ، وسيفاً جرُازاً ، ثم أرسله إلى أى أقاليم العالم شاء ، فى حمايتى . . . وأن أحَبَّ ، فليبق فى ضيافتك أنت ، وسأرسل إليه ما هو حَسْبُه من طعام وشراب خشية أن يرهقك ، أو أن تضيق به . . . أما أن يصحبنى إلى القصر الذى تعلم من أمره ما لا يعلم ، فذاك مالا أرضاه له . . . فقد يغمزه أحد بكلمة فيجرحه ، وأجرح أنا بسببه ، وأنت لا يخفى عليك أننى صغير لا أستطيع مهما أوتيت من الشجاعة أن أرد عادية الأوغاد » ، وتولى أوديسيوس الإجابة فقال : « أوْه أيها الحبيب الطيب القلب ! لشد ما تتمزق نياط قلبى لما سمعت من أمر هؤلاء

الخطاب الأشقياء الذين يستبيحون منزل فتى كريم مثلك ! ولكن قل لى ، إذا أذنت أن أتكلم فى هذا الشأن : هل عن رضى منك لصقوا بمنزلك فما يريمون [١] ؟ أم برغمك أيها العزيز؟ اليس لك إخوة يسندونك ويشدون أزرك فتطردهم من بيتك ؟ أواه لوعاد لى شبابى الآن أواه ! وآه لو عاد الآن أوديسيوس ؟ تالله لو أننى فى حالك هذه لآثرت أن أمتشق سيفى فى وجوههم فإما أن أطهر بيتى منهم ، وإما أن أخر قتيلا بينهم فلا تقع عينى على ما يصنعون ، ولا أرى إلى عَيْثهم وعبثهم بكل ما فى منزل أبى من خير ومَيْر [٢] ، السنين الطوال !» فقال تلماك : ليس سراً أيها اللاجئ الكريم ما بينى وبين قومى ، وليس منهم من يضمر لى عداوة أويطوى جوانحه لى على حقد . . . أما الإخوة والأشقاء فليس فى أسرتنا من رزق هذه النعمة ، بل هذا دأب عائلتنا منذ القدم ؛ ذلك أرْسْياس لم ينجب غير ليرتيس ولم ينجب ليرتيس غير أوديسيوس ، وهذا لم ينجب غيرى . . . أنا . . . . هذا المرزأ المحزون الموجع القلب . . . من أجل ذلك طمع هؤلاء الطامعون فينا وتكالبوا على بيتنا من كل فج ، فأقبلوا من ساموس ودلشيوم وزاكنتوس وأطراف إيثاكا ، ومن الجزائر الكثيرة المنتثرة فى هذا البحر . . . كل يرغب فى أن تكون أمى له من دون العالمين زوجة برغمها ، فهم مقيمون لا يريمون ، آكلين ناعمين ، يستنفدون غلة ما ترك أوديسيوس ، آتين على كل ما فى بيته وخزائنه ، ويوشكون أن يأتوا علىَّ أنا الآخر !» ثم أمر يومايوس أن يذهب إلى القصر فيخبر أمه بعودته سالماً من بيلوس ؛ فذكره يومايوس بجده الضعيف الشيخ الذى امتنع عن الأكل والشراب منذ أن رحل تلماك يسائل عن أبيه . . . وذلك مما أضواه من الهم ، واستأذنه فى أن يمر عليه فيخبره بعودة مولاه حتى يطمئن هو الآخر . ولكن تلماك أمره بأن يذهب من فوره إلى القصر فيخبر والدته . . . وانطلق يومايوس . . . وكانت مينرڤا تنتظر ذهابه لتبدو لأوديسيوس فى صورة حسناء ذات وقار

(١) ينصرفون

(٢) المر [illegible]

وحسن سمت ، وقد أخذت الكلاب بروعة مرآها فتكبكبت فى أحد أركان الحظيرة ، وراحت توقوق وتهر [1] مما شدهها من منظر مينرفا ، وقد لفت فعلها أوديسيوس فهب مسرعاً إلى ربة الحكمة التى قالت له : الآن ينبغى لك أن تكشف نفسك لولدك فتقفه على حقيقة الأمر ، ثم تذهب معه إلى المدينة وفى قبضتك الموت الزؤام تُجَرِّعه صاباً ويحموماً [2] للعشاق . وسأكون دائما معك ، وسأشرف على المعركة بنفسى » ولمسته بعصاها السحرية فارتد إلى صورته الحقيقية ، وعاد إلى الكوخ فى حلته الضافية التى كانت عليه من قبل . . . فلما رآه تلماك شُده وفَرِق [3] وقال له : « أيها النازح الغريب ماذا أصابك ؟ لقد تبدلت أيما تبدل ! خبرنى أرجوك وأتوسل إليك ، أأنت إله كريم فنعقرلك القرابين ونذبح من أجلك الأضاحى ؟ » قال أوديسيوس : « ليفرخ روعك يابنى فما أنا إله ، إن أنا إلا بشر ، وإن أنا إلا أبوك الذى ذهبت تذرع الدنيا من أجله والذى بسببه غَصَصْتَ بكل هذه الآلام ، وصبرت للؤم هؤلاء الناس ! » ثم ضم إليه ولده وطفق يقبله ويذرف دموعه على خديه ! ! بيد أن تلماك لم يصدق وراح بدوره يقول : « أبى ؟ لن تكون مطلقاً أبى ! بل أنت إله تنزل من السماء ليعبث بى ، وليزيدنى شقوة وأشجاناً ! أى بشر يستطيع أن يصنع ما صنعت ، وكنت منذ لحظة عجوزاً محدودب الظهر مجعد الوجه غائر العينين ، تلوح فى مِزَقٍ وأسمال ، ثم تخرج هنيهة وتعود فى هذا البدن الفينان وذاك المظهر الفتان الذى لايكون إلا للآلهة ؟ فقال أبوه : « أى بنى أنا أوديسيوس ، ولن يرجع إليك أوديسيوس آخر سواى ! اطمئن فقد صنعت مينرفا ما رأيت بأبيك ، وما صنعته أنا بنفسى ، إنها ربة ولها القدرة على كل شئ ، ففى وسعها أن تظهر من تشاء فى صور شتى ، وليس هذا

---

(١) الوقوقة صوت الكلاب إذا خافت والهرير صوتها إذا أنكرت شيئا

(٢) الصاب المر واليحموم الحميم المغلى الذى يقطع الأمعاء .

(٣) خاف

على أثينا [١] بعزيز » وأحس تلماك ما كان يشع فى كلمات ابنه من حرارة وإخلاص لا يصدران إلا عن قلب أب ، فانطلق يبادل والده عناقاً بعناق ، ودمعاً بدمع ، وقبلات بقبلات ! ثم سأله كيف عاد إلى الوطن بعد كل تلك السنين الطوال ، فقص عليه قصته باختصار ثم قال له : «ولكن حدثنى أنت عن أمر أولئك الخُطّاب الأوغاد ما عددهم ، وهل نستطيع كلانا أن نقف لهم فنظفر بهم ؟ ؟ » فأجاب تلماك : « أبتاه ؟ لقد سمعت الثناء على شجاعتك وسعة حيلتك وجليل حكمتك فى كل ملحمة وبكل نقع . . . ثناءً يلهج به فم الدنيا جميعاً ! بيد أنه ينبغى ألا نجازف هذه المجازفة التى لانعرف ماذا وراءها . . . إذ ماذا يصنع اثنان بعشرين ومائة من خيرة صناديد إيثاكا وما حولها ؟ الرأى أن نفكر فى أنصار يشدون أزرنا ويكونون عوناً لنا » فقال أوديسيوس وهو يبتسم : « وما قولك يابنى فى اثنين الله – جوف العلى – ثالثهما ، ومينرفا نصيرتهما على القوم الظالمين ؟ أإذا كان هذان معنا ، أفنحتاج إلى عون آخر ؟ » فقال تلماك « أجل . . . تعالى جوف وجلت مينرفا . . . إن لهما لأيدياً فوق أيدى الناس لأنهما يحكمان من فوق عرشهما الممرد فوق السحاب ، فى الأرض وفى السماء على السواء . . » وقال أبوه يزيده طمأنينة : « وسيكونان معنا فى الحَلْبَة [٢] حين يجدجدها . . . فإذا كان الصباح فاذهب إلى القصر واختلط بالخطاب وسيقودنى راعينا الأمين إلى هناك ، متنكراً فى صورة الشحاذ الفقير الذى رأيت ، فإذا فرطوا [٣] علىَّ فلا تأس ، حتى ولو كان فرطهم بالضرب والسباب . . . ويسرنى أن تحتمل وتصطبر ، فإذا زادوا فاصرف عنى أذاهم بكلمة طيبة حتى يحكم الله بينى وبينهم حين يحين حينهم . . . واحذر أن تخبر أحداً بعودتى حتى ولأبى . . . بل على الأخص أمك بنلوب أو هذا الراعى يومايوس . . . إذ ينبغى أن نستعين على أمرنا بالكتمان حتى نعرف أصدقاءنا

(١) أثينا هو الأسم اليونانى لمينرفا .

(٢) ساحة المعركة .

(٣) ساء أدبهم .

ونخبر أعداءنا ! » وطمأنه تلماك وأكد له كل شئ . . . ثم وصل يومايوس إلى بنلوب فأخبرها بعودة تلماك ، وذاع النبأ بين الخطاب فذعروا ، لفشل مؤامرتهم ضده ، وانتشروا خارج القصر ، واعتزموا أن يبعثوا نفراً منهم بهذا النبأ إلى الطغمة التى ذهبت تتربص بالفتى لتغتاله إذ هو عائد من بيلوس . . . ثم اجتمعوا يمكرون السيئات ، ويدبرون قتل تلماك حين تتيح فرصة أخرى . وكان ميدون قريباً منهم فاسترق سمعهم وطار به إلى بنلوب التى هالها ما مكروا وما دبروا ، فذهبت فى جميع وصيفاتها إلى رحبة القصر ، حيث اجتمع أعداؤها إلى شياطينهم ، فصاحت بزعيمهم أنطونيوس من وراء حجابها قائلة : « أنطونيوس تبت يداك يا ألأم الناس ! أنت يا من يدعونك التقى الصالح وأنت أسفل مما يظنون طوية وأخبث سريرة ! كيف حدثتك نفسك بهذا التدبير السئ فترسم لأشرارك قتل ولدى الذى لم يعد لى فى الحياة رجاء غيره ؟ لأنه ضعيف بنفسه ؟ ألا فاعلم أنه قوى بالله الذى ينتقم لعباده من الظالمين ! أيها اللئيم أبمثل هذا تجزى جميل أوديسيوس الذى حال مرة بين أبيك وبين أعدائه معرضاً نفسه للتهلكة ، ولولاه لظفروا به ، ولولا أن قتل منهم من قتل وصرع من صرع لعجلت روحه إلى نيران هيدز وبئس القرار ؟ أفلم يكفك ما تأكل بغير حق من زاده ، وتعبث غير عابئ بعتاده ، فترسم لأشرارك غيلة ابنه ؟ » .

وانبرى يوريماخوس يهدىء من ثورتها ويطمئنها أن أحداً من العالمين لا يستطيع أن ينال تليماك بأذى ما دام حياً يدب على قدمين ... وكان يتكلم برغم ما كان ينطوى عليه قلبه ... لأنه كان من أكبر المتآمرين على حياة ابنها العزيز الحبيب ...! وبعد أن توارت أورورا عاد الراعى إلى حظائره يدب على عكازه ، وكانت مينرفا قد لمست أوديسيوس بعصاها السحرية فعاد إلى صورة الفقير الشحاذ وعادت إليه مِزَقه وأسماله ، فوجد سيده وضيفه الفقير يعدان عشاءهما . ولما لمحه تليماك قال له « ما وراءك يايومايوس الصالح ؟ أعلمت عن الطغمة التى تأخرت فى ساموس تتربص

بى شيئاً !» فأجابه الراعى .«تالله لا علم لى بشىء يا مولاى ، فأنا لم أنتظر طويلا فى المدينة لأتسقط الأنباء ، لأنك أمرتنى أن أرتد على عجل ، بيد أننى لمحت مركبا يطوى البحر إذ أنا عائد ، ويدخل المرفأ ، وفيه من العدة والعدد ما يبهر النظر ويخطف البصر ،وأحسب أنهم هم الأمراء الذين تعنى، غير أننى لا أجزم بهذا » .

ونظر تليماك إلى والده مبتسما ، محاذراً أن ينتبه الراعى إلى شئ .

أوديسيوس في قصره

ونضّرت أورورا جبين المشرق بالورد ، وخضبته بالشفق ، فهب تلماخوس من نومه الهانئ الهادئ الموشى بالأحلام ، فلبس وانتعل ، واخترط سيفه ثم قال لراعيه . « أيها الأب الصديق ، إنى متوجه إلى المدينة لألقى أمى ، فأكبر الظن أنها لن يرقأ لها دمع ولن تَخْفُتَ لها آهة حتى ترانى . . . أما هذا اللاجئ . . . فرأيى أن ينطلق إلى المدينة فليسأل الناس وليطرق الأبواب ، ولن يعدم إذا تكففهم أن ينال رزقه ويحصل على لقمات يتبلغ بها . . . إن لدى من المتاعب والمشاق ما يشغلنى عن كل جوّاب آفاق . . . إمض به إلى المدينة إذن ؛ فإذا آلمه هذا ، فهو حر . . . إنى رجل لاأعبأ أن أقول الحق ؟» فنهض أوديسيوس ليقول : « سيدى ! إنى لم أبغ أن أتلبث هنا ، فليس لشحاذ فقير مثلى أن يلتمس رزقه فى الحقول والغيطان ! بل إنى منطلق إلى المدينة ولست مقعداً أوضعفاناً فلا أقوى على عمل يؤجرنى عليه أحد أمرائها . . . تفضل أنت فاذهب لطيِّتك (١) ، وسأمضى أنا مع خادمك حين تمتع (٢) الشمس قليلا ، فأنا كما ترى رجل شيخ ، وأخشى أن يقتلنى برد الصباح وصقيعه ، وليس ما يحفظنى منهما إلا ما ترى من مزق مضى أصلها وبقى رقعها ! » . وانطلق تلماك فبلغ القصر ، ولقى أول من لقى مرضعه يوريكليا ، حيث كانت وأترابها ينشرون فراء على كراسى وحمالات مبعثرة فى الردهة . . . فلما رأته عجلت إليه ورحبت به وسلمت عليه ، وانطلقت الدموع من عينيها فانعقد لسانها وانحبس نطقها ، ثم اجتمع الجوارى يقبلن تلماك ويحدقن به حتى لفتن نظر الأم المعذبة المحزونة المطلة من إحدى شرفات القصر ، فأهرعت من عل وأخذت فى حضنها المحب الرحيم أعز الأبناء ، وأمطرت جبينه وخديه

---

(١) لحاجتك أو لشأنك

(٢) ترتفع

بالدموع والقبل ، ثم جعلت تقول له : « أو قد عدت إلى الوطن يانور عيني ! تلماك ! تالله لقد وقر فى قلبى أننى لن أراك بعد إذ أبحرت إلى بيلوس برغمى ، وعلى غير علم منى ، لتتسقط أنباء أبيك . . . ولكن . . . خبرنى يابنى ماذا عساك سمعت . » فقال الفتى : « أماه ! لم تعودين بذاكرتى إلى عبوس الحياة وقد أفلتُّ من الموت ؟ أولى لك ثم أولى أن تضفى عليك من أفخر أثوابك ، ثم تصلى للآلهة أن تهيئ لنا يوم انتقام عادل لا يبقى ولا يذر بيد أنه ينبغى أن أذهب الآن لألقى ضيفا كريما عزيزاً جداً على-عزيزاً جداً على ياأماه ! — حضر معى فى سفينتى أمس ، وقد أرسلته مع من يُضَيِّفه عنى حتى أعود فأضيفه أنا نفسى » وذهبت بنلوب فصلت طويلا للآلهة ، وانطلق تلماك فلقى نيوكلمنوس وعاد معه إلى القصر ، وجلسا يتحدثان ، بينما أحضر أحد الخدم مائدة حافلة بألوان الطعام وأطيب صنوف الشراب ، فوضعها أمامهما . . . وأقبلت بنلوب فجلست لدى الباب تنسج ثوبها الذى لاينتهى . فلما فرغا من طعامهما أقبلت فقالت تخاطب تلماخوس : «يبدو لى أنك لن تقص على الآن ما سمعت من أنباء أبيك ياتلماخوس ، وأوثر إذن أن أصعد فأضطجع فى فراشى الذى أبلله دائماً بدموعى منذ فارق أوديسيوس ، فإذا انصرف الأوغاد المعاميد وفرغت من شغلك بهم فاحضر إلى لتقص على من أنبائه .» ولكن تلماك قال : « أماه ! لم لا أقص عليك ما سمعت وما سافرت إلا لأطمئنك وأطمئن نفسى ؟ لقد سافرت إلى بيلوس وحظيت بلقاء نسطور الذى هش لى وبش وفرح بى كأنما أنا ابنه الذى افتقده طويلا وعاد فجأة إليه ؛ غير أنه لم يذكر لى عن أبى قليلا أو كثيراً لعدم علمه بشئ من أنبائه ، ولذلك بعثنى مع واحد من أبنائه إلى ملك أسپرطه لأسأله عن أبى . . . وقد لقينى منلوس فأحسن لقائى وأكرم مثواى ، ورأيت فيمن رأيت زوجه هيلين الحُسَّان المفتان التى شبت بسببها حروب طروادة ، والتى لقى من أجلها أبطال الإغريق أنكى ألوان العذاب . . . ولماسألنى الملك فيم قدمت ، نبأته بأنباء العشاق المعاميد ، ووصفت له ما يجرون على بيت أبى من الخراب ، فأرغى وأزبد ولعنهم أشد

اللعن ، وتوسل إلى الآلهة أن ترد إليهم أوديسيوس فيبطش بهم ، ويعيد إليهم صوابهم ثم قص علي ما سمعه من أحد أرباب الماء – پروتيوس – الذى أخبره أن أبي لا يزال حياً يرزق فى إحدى الجزائر النائية ، وأن عروساً من عرائس الماء تحجزه عندها فى تلك الجزيرة برغمه ، لأنها تحبه وتهواه ، وأنه لا يجد سفينة يثوب عليها إلى الوطن . . . هذا يا أماه كل ما علمته عن أبى من الملك منلوس ، وقد أذن لى فى العودة فأبت فى رعاية السماء وحفظ الآلهة » . وكانت بنلوب تصغى وثورة من الحزن تجتاح نفسها ، ولظى من الوجد يفتك بقلبها . فلما فرغ تلماك ، التفت تيوكليمنوس المتنبى إلى السيدة الرؤوم فقال : « يازوج أوديسيوس أعيريني سمعك ! إصغى إلى فسأتنبأ لك ! إن ابنك هذا لم يسمع عن أبيه أى نبأ يقين . . . أما أنا ، فقد بدت لى أمارات وشهدت فى السماء علامات . . . ومحال أن تكذب علامات السماء . . . أقسم بجوف العلى رب الأرباب ، وأقسم بهذا البيت بيت أوديسيوس ، أن زوجك هنا ، وفى إيثاكا . . . وهو يعلم كل صغيرة وكبيرة من أنباء الخطاب وخباثاتهم ، وإنه ليدبر لهم عقاباً هائلا لن يفلت أحداً منهم ! ! » وسكت المتنبى . . . وأقبل الخطاب من لعبهم فخلعوا عباءاتهم ، ثم نشطوا إلى الشاه والخنازير فجزروا لطعامهم . . .

هذا ما كان من أمر تلماك وأمه ، وما كان من أمر العشاق ، أما ما كان من أمر أوديسيوس فقد مضى فى الطريق إلى المدينة بخطى متعثرة والراعى بين يديه ، وعلى كاهله حقيبته ، وفى يده عكازه ، وكلما لقيهما أحد صّعر خده ، وشمخ بأنفه ، تقززاً من منظر هذا الشحاذ الفقير القذر . . . ثم أتيا إلى نبع يتفجر فى الطريق فيستقى الناس منه ، وقد بسقت من حوله أشجار الحور والسنديان ، وترقرق الماء فوق الحصباء كاللجين (١) يتدحرج من حيد (٢) أكمة هناك ، أقام الصالحون فوقها مذبحاً لعرائس الغاب حيث

---

(١) الحصباء الحصى واللجين سائل الفضة

(٢) جانب .

يتقدم الناس بنذورهم ويعقرون إضحياتهم . . . وقد لقيا هناك راعى ماعز الملك – ملانتيوس – يسوق قطيعاً من أسمن ما يرعى لأجل ولائم الخطاب . . . ولقد كان ملانتيوس هذا من أذنابهم ومتملقيهم . وكان يصنع كل مايحببه إليهم ويضمن له عطفهم . فلما رأى الفقيرين وأحدهما زميل له ، انطلق يعوى ويصخب ، ويسب ويسخر ، ويغمز الرجلين غمزاً شديداً موجعاً ، حتى غلا الدم فى رأس أوديسيوس : « إنشملا [1] أيهذان المسخان ! طاعون يجتاحك ياراعى الخنازير القذر ! حقاً إن الطيور على أشكالها تقع ! كلب يقود آخر . . . إلى أين ؟ إلى حيث يلتقط فتات موائدنا . عجباً ؟ ألا تطلقه معى إلى المزارع ينظف الزرائب ويحمل العلف ويحرس الغلة ويشرب ما شاء من اللبن الحازر [2] والمخيض ، ويكسو عظامه المعروفة بإهاب من اللحم ؟ ولكن هيهات ! لقد بلدت طباعه فلا يصلح لعمل شريف ! وهكذا ظل الراعى الشرير يقئ من هذا البذاء ، وركل أوديسيوس آخر الأمر ركلة قوية فى ساقه ، فلولا ما حرص عليه الملك من كتمان أمره لحطمه بسببها ، ولمسح به ظاهر الأرض ! ولقد هاج هائج يومايوس فدعا آلهته لتنتقم لرفيقه الضعيف ، وطفق يقول : ياعرائس هذا النبع المقدس اسمعى بحق ما عقر لك أوديسيوس وباسم ماضحى أن ترديه إلى بلاده لينتقم من أمثال هذا الوغد الزنيم الذى لا يحسن إلا أن يملق أعداء مولاه ، وإلا أن يغشى رحابهم ، بينما قطعانه سائمة فى المرج لا راعى لها ولا حفيظ ! » فصاح الراعى الوقح : « هاه ! أجيبى ياعرائس دعاء كلبك الأمين؟ أواه لو استطيع أن أحملك فى فلك أحد هؤلاء السادة فأبيعك بيع الرقيق فى بلد سحيق ! أوديسيوس ماذا أيها البهيم ! لقد أودى أوديسيوس ولن يعود إلى الحياة قط . وبودى لو ألحق به ابنه تلماك ! ! » . . . قالها وانطلق حتى بلغ القصر وغشى مجلس الخطاب

---

(١) تنحيا عن الطريق

(٢) شديد الحموضة والمخيض الذى استخرجت زبدته .

يُطرفهم بما حدث له مع راعى الخنازير . . . أما أوديسيوس وأمينه فقد سارا رويداً حتى أتيا بوابة القصر فلبثا عندها . . . وتناول أوديسيوس يد الراعى وقال : « يومايوس ! لاريب أن هذه سراى الملك ، انظر ! هاهى ذى الحجرات يتلو بعضها بعضاً ، هاك الرحبة الكبرى ذات العماد وذات الأبواب . . . وإنى أحدس أن هناك أضيافاً اجتمعوا لوليمة ، وهذا قتار اللحم يملأ خياشيمى ، وإرنان القيثار يجلجل فى أذنى » فقال يومايوس يجيبه : « أنت ذكى شديد الذكاء ! إنه هو المكان بعينه ، والآن ، هل تذهب أنت وحدك فتستعرض الأمراء ، وتعود ، أم تنتظر حتى أذهب أنا فأختطف نظرة إليهم ؟ على أنك يجب ألا تتلبث هنا فقد يراك بعضهم فيؤذيك ويطردك من هنا شر طردة » وقال أوديسيوس « بل انطلق أنت وإنى منتظرك هنا ، فإذا لكمنى أحد أو لكزنى أو ركلنى ، فشدما ما أحتمل هذا وذاك ، وهل هو إلا بعض ما احتملت فى حروبى الطويلة ؟ » وبينما هما يتحدثان ، إذا كلب كبير رابض يقف فجأة فيبصبص بذنبه وينصب أذنيه ، ويحدق بصره فى أوديسيوس ، ويظل مسحوراً ذاهلا ! ! آه إنه الكلب العزيز آجوس الذى رباه الملك قبل أن يرحل إلى طروادة . . . لقد أهمل أمره فهو رابض هكذا فى حمأة من الروث والقذر والقمل أمام بوابة القصر ، كالشاعر العجوز الذى يجترُّ ذكرياته ! ! لقد عرف صوت مولاه برغم السنين الطوال ، فبكى ، وهر ، وأرسل الدموع حراراً تسقى صدغيه ! وقد تأججت فى قلبه الحيوانى ثورة من الحزن الطارئ المفاجئ فلم يقو أن يزحف ليمسح بلسانه قدمى مولاه . . . وقد لحظ أوديسيوس ما أصاب كلبه العزيز فبكى هو الآخر تأثراً ، وسجل هذه الآية من الوفاء للحيوان على الإنسان ! وأشاح بوجهه عن الراعى حتى لايدرك ما بعينيه من دموع ، فلما مسحها بكمه قال يحدث يومايوس : « أليس عجيباً ومؤلماً معاً ياصديقى أن يتركوا هذا الكلب الذى تبدو عليه سيماء النبل فوق هذه الكومة من الروث ؟ ألا يكون أقعده الضعف عن متابعة الصيد ؟ وقد يكون إبقاؤهم عليه من أجل منظره وحسن سمته ! ؟ » فأجاب الراعى « أوه بلى أيها

الرفيق ! أما والله لو شهدته فى إثر مولاه أوديسيوس لعجبت لعظم قوته وشدة جبروته ! أبداً لم يخلق الله وقتئذ كلباً أتبع لصيد ، أو أقوى حاسة شم منه ، وأبداً لم يكن عندنا كلب كآرجس هذا الرابض يساقط نفسه أنفساً ! ! إنه يبكى مولاه الذى قضى وتركه من ورائه لإهمال الوصيفات وقلة اكتراثهن . . .أما عبيد هذا القصر فهم كالوصيفات حذوك النعل بالنعل . فهم لا ينشطون لعمل كما ينشطون وسيدهم بينهم ، ثم هم قد فقدوا بالعبودية وذلة الرق نصف آدميتهم ورجولتهم ! ! » ثم مضى أوديسيوس نحو صديقه وخدن صباه ، فبكى وذرف دموعه ، وكذلك فعل الكلب.. ، حتى مات . .ولكن بعد أن رأى سيده تارة أخرى ! !

ولمح تلماك راعيه فأومأ إليه ، وأخذه جانباً ، ثم أمده بنصيب جزيل من طعام الوليمة . . . وبعد لحظات أقبل أوديسيوس فى صورة الشحاذ الفقير ، وجلس على الأرض ، فأرسل إليه ولده شيئاً من اللحم والخبز مع يومايوس ، وأسر إليه أن يرسله بين الأمراء يتكفف ، وبالأحرى ليتعرف ؛ فلما فرغ من طعامه نهض فسار بينهم يسأل هذا ويحدق فيه ، وينصرف إلى ذاك ويحدجه [1] ويمد يده من أجل لقمة كما يصنع الشحاذون ، وقد رثا له كثيرون فأمدوه بلقمات ومضغ من اللحم . إلا أنطونيوس فقد استهزأ به وبمن أحسن من الأمراء إليه ، وغيرهم بأنهم يتصدقون بما ليس لهم ، ثم هاج وماج ، ورفع كرسياً أوشك أن يحطم به رأس أوديسيوس وأمره أن ينصرف فلا يعكر عليهم صفوهم أكثر مما فعل ؟ ! ولكن الكرسى صدع كتف الملك ، وأعنى رأسه : ووقف أوديسيوس كالصخرة لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة . . . ولكن ألف ألف فكرة سوداء كانت تكظ فؤاده وتزحم تفكيره . . . ثم مضى فجلس حيث كان من قبل ، وهتف بالخطاب فى صوت جهورى فقال : « سادتى الأمراء اسمعوا ! تالله لو أنها ضربة فى حرب بين كفئين لما حملت لها موجدة فى نفسى . . . ولكن أنطونيوس رأى من سلطان الجوع والضعف ما جرأه وأثار نحيزته [2] . . .

(١) يرمقه بنظره خاطفة (٢) طبيعته .

وأنا مع ذلك أترك جزاءه لله ، وأضرع إليه جل ثناؤه أن يقبضه قبل أن تزف إليه عروسه ! وكأنما خجل الخطاب مما فعل أنطونيوس فجعلوا يلومونه ويتلاومون فيما بينهم . قال قائلهم : « من يدرى ؟ ألا يحتمل أن يكون أحد آلهة السماء جاء ليبلونا . . . والويل لك يا أنطونيوس إذا صدق حدْسنا . . . ألا تعلم أنهم طالما يتنزلون فيغشون مدننا فى صور الشحاذين ليروا بأعينهم ما نأفك وما نمين [1] ؟ » ولم يبال بهم ولم يأبه لما قالوا . . . وكان تلماخوس يتميز من الغيظ ، ويُثير فى نفسه أوجع الألم لما نال أباه من الضرب ، بيد أنه غلب غضبه ، وحبسه فى أعماقه ، كما حبس فى عينيه وابلا من الدموع . . . وكانت بنلوب تطلع من شرفتها وترى ما حل بالرجل من إيذاء ، فهتفت بيومايوس أن يرسله إليها كيما تسأله عن أوديسيوس ، لما يبدو عليه من أثر السفر ووجوب الآفاق . قال الراعى : « أجل يامولاتى ، إنه رجل من كريت ، وقد خاض ألف مكروه قبل أن تحمله الصدفة إلى بلادنا ؛ ثم هو محدث ساحر الحديث طلى الرواية ، حتى ليخلب سمع من يصغى إليه بأشد مما يستطيع منشد مطرب أن يفعل ! وكلما طال حديثه لذت طلاوته ، وكثرت حلاوته ، فلا تمله أذنان ، ولا يضيق به مصغ إليه . . . وأعجب ما ذكره مرة لى أنه رأى أوديسيوس وعرفه فى أبيروس . . . بل يزيد فيؤكد أن مولاى عائد أدراجه إلينا ، حاملا معه كنوزاً من الذهب ، وأذخاراً لم تر العين مثلها ولم تخطر على قلب بشر ! ! » فتنهدت بنلوب وقالت : « انطلق إذن فأحضره ، ودعه يحدثنى بما روى وجهاً لوجه ، وسأهبه صداراً ودثاراً إذا توسمت فى قوله الحق ، وآنست فى روايته الصدق »

وادعى أوديسيوس أنه يخشى أن يجوز وسط الأمراء مرة أخرى ، وفضل أن يلقى الملكة فيتحدث إليها إذا جَنَّ الليل بجانب المدفأة ووافقت الملكة ، وصوّبت رأى الرجل ؛ وكان الوقت أصيلا فقصد الراعى إلى تلماك واستأذنه فى الانصراف إلى حظائره ، فأذن له ولكن بعد أن أمره بالتزود لعشائه ، ففعل يومايوس ، ثم مضى ليسهر على خنازيره .

(١) يأفك يصنع الإفك ويمين أى يكذب .

أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ

وبينما كان أوديسيوس جالساً يزدرد طعامه إذا شحاذ ضخم الجسم شائه المنظر يدخل فجأة ، فيلتفت إليه جمهور العشاق . ويعرفون فيه الفقير إيروس ، المشهور بنهمه الذى لا يوصف ، وبإقباله الشديد على أردأ ألوان الشراب . . . وكانت له عليهم دالة ، وليس فى الجزيرة كلها من يجهله . . . فلما لمح أوديسيوس جالساً يتبلغ بلقماته نظر إليه نظرات المحنَق وقال له : « انحرف عن الباب أيها العجوز القذر وإلا جررتك من عقبيك . . . ولو أننى أترفع عن مقاومة أمثالك ! ! » وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق إنى ما آذيتك ، وإن فى المكان لمتسعا لكلينا . . . أرجو ألا تثيرنى أكثر مما فعلت وإلا فلا يغرنك هرمى وتقدم سنى ، فتا لله لأرينك كيف أضربك ضرباً تقول منه الهامةُ اسقونى ! إجنح للسَّلم هو خير لك ! وأصغ إلى نصحى ، وإلا فلن تدخل قصر الملك أوديسيوس بعد اليوم . . . » وغيظ الشحاذ إيروس وقال : « اسمعوا ماذا يهرف هذا الشره المخرف ! ألا ما أشبهه بزوجة حمقاء تثرثر أمام كانون ! تالله ليخيل إلىّ أن أنقض عليه فأنفضَ ثناياه ! هلم أيها الرجل ! استعد للقاء ، وليشهد السادة كيف أمثل بك ؟ » وقهقه أنطونيوس وقال . « أيها الأُصدقاء اشهدوا ! إن إيروس يتحدى هذا الفقير ، والفقير بدوره يتحداه ، فهلم نجعل حولها حَلْقَة لنرى إلى هذا العراك المضحك ! » وسكت أنطونيوس ، وتكبكب الأمراء حول الرجلين ضاحكين عابثين ، ثم التفت إليهما أنطونيوس وقال : « اسمعا إذن ؛ ههنا كعكات ليس أجود منها . . . وإنها خالصة لمن يتفوق منكما على قِرنه[1] . . . ولمن فاز أجرٌ عندنا عظيم . . إنه سيجلس معنا فى جميع ولائمنا منذ غد ، ولن ندع أحداً من

---

(١) خصمه .

الشحاذين يضايقنا بعد هذا اليوم » وتخابث أوديسيوس وقال : « ياسادة ! من الظلم أن يتبارى رجل عجوز ضعيف مثلى مع هذا الهولة . . . ولكن الجوع يدفعنى إلى البطش به مع ذاك . . . بيدَ أن لى رجاء ألا يساعده أحد على ، فيلكمنى مثلا أو يلكزنى حينما أكون مشغولا به » فقاسموه ألا يفعلوا وتقدم تليماخوس ابنه فقال : « أيها الرجل ، إذا وسعك أن تناضل هذا الزميل فلن تخشى من هؤلاء رهقاً . . . إنى مضيفك ، وليس أحب إلى أنطونيوس ويوريماخوس من أن يشهدا هذا اللقاء الفذ بينكما ! » ثم إن أوديسيوس شمر عن ساعديه وفخذيه ، وكشف قليلا عن صدره ، عامداً ليظهر الأمراء على عضله المكتنز وقوته الخارقة . . وقد صدق حدسه ، فقد بُهت العشاق ونظر بعضهم إلى بعض يقولون : « واعجباً ! أى عضل وأى ساعدين وفخدين يخفى هذا الرجل تحت أسماله ومِزَقه البالية ؟ مسكين إيروس ! ماذا يبقى منه بعد هذا اللقاء ؟ ! » أما إيروس فقد انتفض واقشعرَّ بدنه مما عراه من الذعر ، ولكن الخدم لم يتركوا له أن يفر من اللقاء الذى دعا هو إليه ، بل شمروا له عن ساعديه وفخديه كما فعل غريمه ، ثم جروه إلى الحلقة برغمه . . وود أوديسيوس أن يبطش بالرجل فيحطمه بأول لكمة ؛ غير أنه آثر ألا يفعل خشية أن يكشف العشاق من هو . . . فلما امتدت الأيدى تَصنّع الدفاع وأقبل وأدبر . وكر وفر ، ثم أهوى على أذن الرجل بضربة سحقت عظامه ، وطرحته على الأرض . . . ولبث المسكين لا يبدى حراكا من هول ما حل به ؛ بيد أن أوديسيوس جره من عقبيه إلى ساحة القصر ، ثم عرج به نحو جدار كبير حيث سنده إليه ، وجعل فى يده عكازه وقال : « إلبث هنا ولا تغش منازل الملوك بعد ، وذُدْ بعصاك الخنازير السائبة ، فذلك خير من أن تصيب بها الغرباء أمثالى . . . فإن عدت إلى مثل حماقتك فلن يصيبك إلا شر مما رأيت ! » وتركه وانثنى إلى حيث كان ، فوجد العشاق يضحكون حتى يكاد يقتلهم الضحك . . . وهتفوا له ثم قالوا : « حقق الله آمالك ، وأنالك أمانيك أيها الغريب اللاجئ ، بما خلصتنا من هذا الشحاذ النهم الملحاح ! » وسمع أوديسيوس

دعاءهم وابتهل إلى الآلهة أن تستجيب ! ! ثم وضع أنطونيوس بين يديه كعكة كبيرة ، وزوده أمفينوموس بخبز وخمر صبها له فى كأس كبيرة من ذهب ، ودعا له بخير . وآنس فيه أوديسيوس طيبة ودماثة خلق فقال له : « هيه ! هلم أيها العزيز أمحضك نصيحتى وأحدثك عن تجاربى . . . ألا ما أضعف الإنسان ! إنه إذا ما مسه ضر دعا الله فإذا كشف عنه الضر فإذا هو مقتصد ناءٍ بجانبه كأن لم يمسسه ضر . . فأنا مثلا لقد كنت فى عنفوان صباى أعيث فى الأرض مغتراً بقوتى وفتوتى ، حتى أسقط الكبر فى يدى ففئْتُ إلى أمر السماء ، ولكن بعد أن كتب علىّ الشقاء ، وهكذا أولئك الأمراء الذين غرتهم الأمانى وأضلهم جبروتهم فأقاموا بهذا القصر غارين آمنين لا يظنون أن له صاحباً قد يفاجئهم بعودته فيستأصل شأفتهم ويذهب بريحهم . . . وإنى والله أيها السيد لأرى أنه عائد ليس من هذا بد ، وأنه عائد قريباً فتقبل أنت نصيحتى ولا تقم معهم ، بل انطلق إلى بيتك وأهلك ولا تَسْتأن[1] حتى يدهمك معهم فيحطمنكم أجمعين . . . » وشرب أوديسيوس ، ودفع الكأس إلى الأمير الشاب الذى بدت عليه أمارات الهمّ مما قال الرجل ، ولكن . . . وا أسفاه ! لقد كتب عليه الشقاء ، فلم يصغ لنصيحة أوديسيوس .

* * *

وبدا لبنلوب أن تذهب فى بعض وصيفاتها فتخطر بين الخطاب ليروها ، ولترى ماذا يكون . . . وقبل أن تفعل ألقت عليها مينرڤا نُعاساً وأَمَنَةً ، وبدت لها فى الرؤيا كأنما تعطيها لُهى عجيبة ؛ ثم إن الربة أضفت عليها رواء كرواء الآلهة ، ونضّرتها بنضرة الشباب والجمال ، فربا جسمها واستطال ، وزانته لمعة عاجية وسناء . . . فلما هبت من نومها ، فركت عينيها متعجبة ، وشدهتها تلك الغفوة الطارئة التى جلبت لها السعادة فى دنيا من الهموم . . . وتمنت لو أراحها الموت من حياة اتصلت فيها أشجانها

---

(١) ولا تتأخر

وباعدت بينها وبين إلفها بمفاوز من الآلام والأحزان . . . وانطلقت فى سرب من وصيفاتها فأشرفت على العشاق وقد ضربت بخمارها الشِّف على وجهها المتألق الناصع ، فذهل الملأ ، وزاغت أبصارهم ، وأحسوا أن شيئاً يخلع قلوبهم ، فما منهم إلا مَنْ تمنى أن يكون صاحب هذا الجمال الرائع والحسن الباهر ، والفتنة المتقدة . . . ونهض يوريماخوس فقال يخاطبها : « ياابنة إيكاروس بوركت ! تالله لورآك كل من فى هيلاس لاجتمعت حولك قلوب غيرنا من العاشقين ، ولأقبلوا من كل فج فازدحموا حولك ههنا . . . فى ذلك القصر العتيد ! » فقالت بنلوب : « يوريماخوس ! تالله لقد ذهب الآلهة بجمالى الذى تصف يوم رحل عنى زوجى أوديسيوس فيمن رحل إلى طروادة . . . وما أنس لا أنس ما قال لى وهو قابض على يمينى يودعنى : « زوجتى إن أكثر من ترين من هذا الجيش لن يعودوا إلى ديارهم . . . ففى طروادة محاربون صناديد ، وملاعبو أسنة لايشق لهم غبار ، وذادة ورماة ! وإنى لاأدرى ماذا يكون من أمرى هنالك ، ولذا ، أكل إليك كل ما أودع ورائى ، وإنى موصيك أول ما أوصيك بأبى وأمى ، فاعنىْ بهما كأحسن ما كنت تعنين وولدهما معك ، فإذا شب ولدى وترعرع ، فلك أن تتركى هذا القصر إن شئت ، وتتزوجى ممن تختارين من الأكفاء والأنداد » هذا وإنى أرى أن هذا اليوم العصيب قد حان ! ولكن واأسفاه ! إنكم اجتمعتم هنا لتأكلوا وتشربوا وتعيثوا وتعبثوا بكل ما ترك صاحب القصر . . . وكنت أظنكم تقيمون فى منازلكم وترسلون إلىّ هداياكم لتكبروا عندى ولا تهزلَ مكانتُكم لدى . . . ألا ساء ماتَزِرون » .

وتبسم أوديسيوس من قولها ، ووثق من إخلاصها ، وعجب من شدة ما سحرت ألباب الخُطّاب ومما أخذتهم به من حزم . . . أما أنطونيوس فقد أجابها بقوله : « أما هدايانا ياابنة إيكاريوس فلا أحبَّ إلينا من تقديمها إليك . . . على أننا لن نريم [1] عن هذا القصر حتى تختارى لنفسك بعلاً

(١) لن ننصرف .

يكون كفئاً لك » وأيد الخطاب ما قال قائلهم ، فنهضوا ليحضروا هداياهم ، وسرعان ما عادوا يحملونها . . . وتقدموا بها إلى بنلوب ، فهذا ثوب ثمين من قاقم [١] موشىً بالذهب تزينه اثنا عشر زراراً ذهبياً . . . وهذا عِقْدُ حُليت خرزاته بقطع من الكهرمان الحر ، وتلك أساور من ذهب وُشنُوف كثيرة وأقراط [٢] . وعادت بنلوب ومن خلفها وصيفاتها يحملن الهدايا واللهى . . . وأخذ الخطاب كدأبهم فى القصف واللهو والعبث والغناء . . . حتى أقبل الليل ،فقدم الندامى بمجامر من نحاس بها وقود يشتعل ، وطفقن يلقين فيها من الند والرند والعود ذى العرف . وطفق البخور يعبق فى أرجاء البهو الكبير . . . وهنا . . . نهض أوديسيوس وتوجه إلى البنات يقول : أيها العذارى أولى بكن ثم أولى بكن أن تذهبن إلى سيدتكن فتسلينها وتواسينها ، ، وسأقوم بالنيابة عنكن على هذه النار حتى ينصرف الخطاب . . . ولن يئودنى أن أقوم عليها حتى مطلع الفجر ، ولن أضيق بجمعهم مهما عبثوا بى ، فأنا رجل ذو تجاريب » . فتضاحكن به ، وقالت ميلانتو التى هى أجملهن وأقلهن احتشاماً وهى تعبث به : ماذا أصابك الليلة أيهذا النازح الغريب ؟ انطلق إلى حدَّاد المدينة فنم فى دكانه ، فهذا خيرلك من أن تسهر ههنا وتثرثر . . . هل غاب صوابك ياشيخ لأنك ظفرت بالشحاذ إيروس ؟ أربع [٣] عليك ، فقد تبتليك السماء بمن يبطش بك كما بطشت به ، ويطردك من هنا ! » . . . ورشقها أوديسيوس بعينه وقال : أسكتى ياهناه [٤] والله لأحدثن بما حدثت الأمير تليماخوس فليقطعن لسانك ، وليمزقن جسدك ! » ، وذعر العذارى وولين هاربات ، وقام أوديسيوس على النار وجعل يلحظ العشاق وفى قلبه ضرام ، ومافتئ يفكر فى ألف خطة للانتقام منهم والبطش بهم . . . ولم تشأ مينرڤا أن تنهى

---

(١) القاقم نوع من أنواع ثياب الفراء

(٢) الشنوف والأقراط (الحلقان) لأذن المرأة

(٣) ضع تلو .

(٤) الهناء الداهية .

هذا الشقاء الذى ضربته على أوديسيوس ، بل تركته يستهزئ به الخطاب ، ويسخر منه يوريماخوس ، فيضحك الخطاب إذ يقول : « ما أظن إلا أن الآلهة قد أرسلت إلينا هذا الرجل ليكون حامل مشاعلنا وحامى قبسنا . . . انظروا إلى رأسه النحاسى ، أليس يصلح أن يكون مشعلا يضئ لنا ؟ » ثم التفت إلى أوديسيوس وهو يقول : « أإذا استأجرتك لِتسوِّج [١] مزرعة لى بعيدة من هنا وتغرس بها أشجاراً ، على أن أطعمك وأكسوك وأنقدك مالا ، فإنك ترضى ؟ ولكن لا . . . إنى لأظنك تنسرق منها طواعية لغرائزك وخَبثِ جِبلّتك فتنطلق إلى المدينة لتستجدى وتتكفف . . . » .

وتخابث أوديسيوس وقال يجيبه : « يوريماخوس ! تالله إنه ليس أحب إلىّ من أن أباريك فى فلاحةٍ فى يوم من أيام الربيع ، حين يطول النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ، على ألا يذوق أحدنا طعاماً ولا يسيغ شراباً . . . أو أن يعهد إلى كل منها بأربعة أفدنة من أرض جبوب [٢] ، وثورين حنيذين ذَوَى خوار ، فى ذلك اليوم ، لترى أينا يصمد لحرثه ويفلح أرضه . . . بل إنى لأتمنى ، إذ نحن فى هذه الأرض ، أن يدهمنا عدو بخيله ورجله ، وتكون لى درع سابغة ، وخوذة من نحاس ، ورمح فى يدى ، لترى كيف لا يحول الجوع بينى وبين أقرانى ، وكيف أضرج بدمائهم الأرض ، وأتركهم فى البرية جَزَر [٣] السباع وكل نسر قشعم . . . أيها اللُّكَعُ الوقح . . . والله لو أن أوديسيوس رب هذا البيت قد فجأك الآن لضاقت عليك الأرض بما رحبت . . . أنت أيها المغرور المتعاظل الذى غره أن يكون شجاعاً بين نَوْكَى [٤] لاحول لهم ! »

وجُنَّ جنون يوريماخوس ، وأخذ مُتكأ ثقيلا وقذفه شطر أوديسيوس ، ولكن البطل انفتل بعيداً وسقط المتكأ على الساقى المسكين ، فخر إلى

(١) تجعل لها سياجا أى سورا
(٢) صلبة
(٣) طعام .
(٤) حمقى .

الأرض يئن ويتوجع . . . وغيظ الخطاب أيما غيظ ؟ وعلالغطهم ، وودوا لو يسحقون أوديسيوس ، لولا أن تقدم تليماخوس وحال بينه وبينهم وهو يقول :

« ياسادة ! إنى كصاحب هذا القصر ، لاأستطيع أن أطرد الرجل منه بعد إذ آويته وضيَّفته . . . والرأى أن تقطعوا سمركم هذا وتذهبوا من فوركم إلى منازلكم حتى يتصرم [1] الليل » . . . وأيده الأمير أمفينوس ، ووقفوا جميعاً فاحتسوا الكأس الأخيرة ثم انقلبوا إلى منازلهم . . . وفى نفس يوريماخوس من الهم ما تنوء بحمله الجبال . . .

---

(١) ينقضى

المرضع العجوز تعرف أوديسيوس

وهكذا خلا الجو لأوديسيوس وولده ، فقال يحدث تلماك : « أى بنى : ينبغى أن نخبئ أسلحة القوم فى مكان حريز . فإذا سألوك عنها فقل لهم إنك تحفظها لهم حتى لا تتأثر بالدخان والغبار وتقلبات الجو » وامتثل تلماك ، ودعا المرضع العجوز يوريكليا فقال لها : أماه ليقرَّ الوصيفات فى مضاجعهن حتى أنقل أسلحة أبى إلى مكان حريز فقد تراكم عليها الوسخ وأتلفها الدخان » وقالت يوريكليا معجبة : « أجل يابنى ، إنه ينبغى أن تعنى بكل ما يتعلق بأبيك وبكل ما ملكت يداك . . . ولكن قل لى . . . من يحمل لك المصباح حتى تنقلها إلى حرزها ؟ ألا أدعوهن فيحملنه لك ! » وشكرها تلماك ،وذكر لها أن الرجل الغريب سيحمله . وأهرعت يوريكليا إلى داخل القصر ، وهب أوديسيوس وولده يحملان الخوذ والدروع والرماح ، وبدت مينرڤا الكريمة تحمل بين أيديها مصباحاً ذهبياً كان يشع سنا عجيباً ، ونوراً لم تقع عينا تلماك على مثله ، فقال لأبيه وقد أخذه العجب « أبتاه ! ما هذا النور المنعكس على الجدران والعمد والقوائم والعوارض حتى ليكاد يجعلها تلتهب ! أبداً ما رأيت مثل هذا أبداً . . . لابد ياأبى أن إلهاً معنا هنا ! » وقال أبوه : « أخزنْ عليك لسانك (١) يابنى ، واملأْ قلبك بما ترى ، فإنه من نور السماء ، وهذا دَأبُ الآلهة . . . والآن ، لتصعد أنت فلتنم ملْ عينيك كى تستريح . . . أما أنا ، فباق هنا ، لأنه لا بد لى من أن أكلم أمك وخدمها » .

وانطلق تلماك إلى مخدعه ، وأقبلت بنلوب وأقبل فى إثرها سرب من خدمها فأعددن لها عرشاً ممرداً من ذهب وعاج استوت عليه وأسندت

---

(١) أصمت ولا تتكلم

قدميها العاجيتين إلى متكأ جميل ، فبدت كإحدى الآلهة . وجلس أوديسيوس على كرسى صغير بُثَّتْ عليه فروة غليظة . ثم كلمته الملكة فقالت : والآن أيها الغريب الكريم قص على من أنبائك وخبرنى من أنت ، ومن أى البلاد قدمت » فقال أوديسيوس : أيتها الملكة تعالى جدك[1] وصلح حالك . . . إن لك فى العالمين لذكراً يعبق كالعطر ، واسماً كريماً ليس لملك عظيم يحكم أمة عظيمة بالعدل وتجزيه بالمحبة . . . إننى يامولاتى رجل كرثه الزمان ، وعسفت به يد الحدثان ، فإذا سألتنى ما اسمى وما بلادى ، فإنك تثيرين فى أعماقى ذكريات عنيفة تدمى فؤادى ، وتفجر الدموع فى مآقىّ ، فأعفينى أيتها الملكة من ذكر ذلك ، فإنه ليحزننى أن أجلس بين يديك باكياً متصدعاً مهموماً . . . » وبدا الألم على وجه بنلوب وقالت : « أواه أيها الغريب ما أقسى ما ذبلت حياتى وذوت زهرتى مذ رحل زوجى المحبوب إلى طروادة ، تاركا لى الهم ، ومخلفاً لى الحسرة ! ألا ما أقسى ما يحن قلبى إليه ، ولشد ما يخفق من أجله ! لقد أسلمنى بعاده لليل أليل[2] من الآلام ، فما أدرى منذ فارق كيف أهش لضيف مسكين مثلك ، ولا كيف أبش لأحد من العالمين . . . وهؤلاء الأمراء اللؤماء الذين تكبكبوا حولى يريدون ليرغمونى على اختيار أحدهم بعلالى من دون أوديسيوس ، ولا أدرى كيف أذودهم ، ولا أعرف السبيل لدفع أذاهم . . . لقد مكرت بهم طويلا ، ولكنهم مكروا بى السيئات ، فلا أدرى كيف أنقذ نفسى منهم ؛ وهذان أبواى يريدانى على هذا الزواج البغيض إلىّ ، وهذا ابنى قد شب ، وهو يضيق بخطابى ذرعاً ، وإن فى صدره حرجاً منهم لأنهم يهلكون ثروته ، ويعيثون فى قصره ، ويخوضون فى عرض أبيه...ولكن...حدثنى بأربابك من تكون ، ومن قومك ، وأى بلاء من الدهر شردك عن وطنك . . . تكلم أيها العزيز ولا تحزن » . وأرسل

(١) الجد العظمة .

(٢) مظلم شديد الظلام

أوديسيوس آهة عميقة ثم تكلم فزخرف حديثاً طويلا مُوشىً ، ولفّق قصة حزينة متقنة ، وذكر للملكة أنه رجلٌ مرزّأ من جزيرة كريت كانت له نعمة وكانت له سعة من العيش ، وذكر أبويه وأهله والحياة الواسعة المخفرجة التى كانا يحييانها ، وذكر أنه عرف أوديسيوس أول ما عرفه حين غرقت به الفلك وقذفه الموج على الشاطىء الكريتى ، فهرول إليه وتلطف به وأخذه إلى داره حيث أكرم مثواه واحتفى به أبواه . . . ولم يكد أوديسيوس يفرغ من حديثه حتى ترقرقت الدموع فى عينى بنلوب ، وانطلقت تبكى على زوجها الذى لم تدر أنه جالس إليها يحدثها ويوشى لها أطراف الكلام . وتأثر هو من بكائها فكادت عيناه تفيضان بالدمع . لولا أن ملك حاله ، وهيمن على عواطفه ، فحبس العبرات التى أوشكت تنهمل بأجفان من حديد . . ثم أرادت الملكة أن تمتحنه إن كان صادقاً فقالت : « وهل تذكر أيها العزيز . : كان يلبس يوم لقيته ؟ تستطيع أن تصفه لى . وتصف رفاقه الذين صحبوه فى هذه الرحلة المشئومة ؟ » وتخابث أوديسيوس فقال : « مولاتى ! ليس من اليسير على شيخ مثلى أن يذكر أحداث ما قبل عشرين عاماً . . . بيد أننى سأحاول أن أرسم لك الظلال الضئيلة التى لا تزال تنطبع من صورته فى رأسى . . . . أذكر يامولاتى أنه كان يلتفع بثوب أرجوانىٍ موشى بالذهب ، وقد رسم فيه بالذهب أيضاً كلب صيد معروق يحمل فى بِرْطيله [1] ظبياً مرقَّطاً . وأذكر أننى رأيت قميصه ولمسته ، فلا أذكر أننى لمست فى حياتى أنعم ولا أرق ولا أثمن . . . وكان يسعى بين يديه مشير أكبر منه جسماً وسناً ، ذو كتفين مستديرتين وبشرة سنجابية وشعر مُفَلفل . . . وكان أوديسيوس يوقره ويبجله أكثر مما كان يبجل سائر أصحابه »

وصمت أوديسيوس ، وبكت بنلوب فاستخرطت [2] فى البكاء ثم قالت : « لشد ما كنت أرثى لك أيها الغريب النازح الجوّاب ؛ أما الآن

(١) عن ثعلب عن الأعرابى أنه فم الكلب أو شفته ولم يذكره صاحب القاموس
(٢) اشتدت

فإنى أحترمك وأعطف عليك ، بل أحبك ؛ تالله لقد صنعت له هذا الثوب بيدى ، وأنا التى وشيته بالذهب ! واأسفاه عليك أوديسيوس ! إنك لن تعود إلى ياحبيبى ! بُعْداً ليوم نزحت فيه عن وطنك إلى هذا البلد اللعين المشئوم . . . طروادة ! » وهش أوديسيوس وقال : « خفنى عنك يامولاتى ، ولا تتلفى قلبك بطول هذا البكاء . ثم لماذا تيأسين من أوبته وقد سمعت عنه أخباراً سارة حين كنت فى أبيروس ؟ لقد مات عنه كل أصحابه ، ولقد غرقت سفينته فى أعماق اليم لغضب صبته الآلهة عليه ؛ بيد أنه نجا مع ذاك . وهو الآن سليم معافى يوشك أن يصل إلى إيثاكا بخير . وأنا لا أرسل ما أقول حديثا ملفقاً . بل أحلف عليه وأقسم بأغلظ الأيمان أنه سيصل إليكم فى عامكم هذا . . . بل ربما كان بينكم قبل أن يتم القمر دورة هذا الشهر ! ! » . فتأوهت بنلوب وقالت : « ويك أيها الضيف ! تالله إن قلبى ليكذب ما تسمع أذناى ، وإنه لا يصدق أن صاحبى عائد يوماً إلى إيثاكا . . . ولكن هلم . . . إلى سآمر وصيفاتى فيغسلن قدميك ويعطينك ثياباً وكسوة ويهيئن لك فراشاً وثيراً هنا . فإذا كان الغد فستجلس مع تلماك على مائدة الأمراء ولن يجسر أحد منهم أن يكلمك كلمة أو أن يمد يده إليك بأذى » وشكر لها أوديسيوس وقال : « مولاتى لقد اعتدت أن ألتحف السماء إذا نمت ، وأن أفترش الغبراء ، ولن تمسنى وصيفاتك فقد يذعرن من خشونة قدمى . . . ولكن إذا كان فيهن واحدة مخلصة شربت من كؤوس الزمان مثل ما شربت من محن وآلام ، فلا بأس أن تغسل لى قدمى ، على أن تكون عجوزاً حيزبوناً ! ؟ » . وسرت بنلوب وقالت تجيبه : « أبداً ما علمت أحزم منك ولا أوفر ذكاء وعقلا أيها الضيف الكريم . لك ما سألت ، فإن عندنا خادماً أمينة طاعنة فى السن كانت موكلة بمولاى أوديسيوس إذ هو طفل تغسله وتسهر عليه ، وهى التى ستغسل لك قدميك..يوريكليا..يوريكليا..أقبلى فاسهرى على هذا الرجل العجوز الذى له مثل سنك وتجاريبك...إن له سحنة كسحنة أوديسيوس وسيماء كسيمائه . . إغسلى قدميه وقدمى إليه كسوة تليق

بضيف حل بيتنا » وكأنما هاجت ذكرى أوديسيوس شجون المرأة فترقرق الدمع فى عينيها الملوزتين [1] وقالت : آه يا أوديسيوس لشد ما ينزع فؤادى إليك ويخفق لذكراك ! تالله لم أر رجلا أحبت للآلهة كما أحبت وضحى لها كما ضحى . . . ومع ذاك فقد ناموا جميعاً عنه لم يتأذنوا برجوعه إلى وطنه ! ومن يدرى ؟ فقد تكون نسوة تعبث به كما عبث نسوة هذا القصر بهذا الرجل . . . هلم أيها الضيف الكريم ، لا أحب إلى من أن أغسل قدميك كما أمرت مولاتى . . . أوه ! ياللعجب ؟ ! لماذا ينجذب إليك قلبى هكذا ! يا للآلهة ! ! أبداً ما رأيت من أضياف هذا البيت العتيق أشبه بأوديسيوس منك صورة وصوتاً وخَطَراناً [2] . . . » . وتأثر الملك وأنشأ يقول : « ربما يا أماه ! لقد قال مثل ما قلت كثيرون ممن رأونى ورأوا أوديسيوس » وذهبت يوريكليا فأحضرت طَسًّا [3] به ماء ؛ وانتهز أوديسيوس انشغالها عنه فابتعد عن الموقد . لأنه ظن أن المرأة قد ترى الندوب التى بقدميه ، الباقية ثمة من عضة خنزير برى كان قد بطش به فى حداثته فتكشف ما حرص هو عليه من كتمان أمره . . . بيد أنها لمست النَّدَبة [4] الكبرى فى ساق سيدها إذ هى تغسلها . . وكانت الظنون قد ساورتها لما سمعت من صوته ، واستذكرت من صورته . فلما تحسست الندبة زاغ بصرها ، وحملقت فجأة فى وجه مولاها وسقطت يداها من غير وعى فانقلب الطس النحاسى محدثاً صوتاً مِرُناً مَدوياً . . . وسال الماء . . . وانحبس الدمع والمنطق فى عينى العجوز ولسانها ، ثم عالجت المفاجأة السارة المخزنة فى صدرها . . . وصرخت تقول : « أنت ! هو أنت ! والله إنك لأوديسيوس . . . لقد عرفتك . . . هذه هى النَّدبة التى أحدثها الخنزير بساقك ! لقد لمستها بيدى ! » وأهرعت العجوز مذهولة نحو بنلوب

(١) البارزتين كاللوزتين .

(٢) اهتزازاً وعنفوانا

(٣) الطس بالفتح والطست والطسة (الطشت) الذى يغسل فيه (قاموس) .

(٤) أثر الجرح القديم .

لتزف إليها البشرى الهائلة . . . ولكن مينرڤا كانت أسبق منها . . . فقد سحرت عيني بنلوب وسمعها . . . وعجل أوديسيوس إلى العجوز فأطبق بكفه على فمها وقال . « يوريكليا ! اصمتى ! أنا هو ! إن كلمة واحدة منك تقضى على ! لقد غذوتنى ونشأتنى فى حضنك صغيراً ، فهل تكونين نكبتى وشاحذة سكينى كبيراً ، وبعد أن وصلت إليكم بعد يأس وقنوط من عودتى ؟ اصمتى ! غُلىّ لسانك بسلاسل وأصفاد فلست أريد أن يعلم أحد أنى هنا . . . وإلا . . . فتالله لن أرحمك – ولو أنك مرضعى – يوم يجد الجد ! »

وارتعدت يوريكليا ، وقالت تجيبه : « أى بنى ! لم تكلمنى هكذا ؟ أتشك فى ثباتى وحفاظى ! اطمئن يابنى ، فسأكون أصمت من الحجر الصلد ، وأستر لسرك من الحديد ! » فحدجها أوديسيوس وقال « اصمتى إذن ، ولا تفسدى تدبيرنا ، ولنتوكل جميعاً على الله ! » وذهبت فأحضرت ماء آخر ، وأخذت فى غسل رجليه العظيمتين ، فلما فرغت ضمختها بأفخر الطيوب ، ووقفت تقلب عينيها فى مولاها بينما كان هو يربط لفائف على ندوب ساقيه . وأخذ أوديسيوس كرسيه وجلس قريباً من الموقد تلقاء بنلوب التى شرعت تحدثه وتقول : « أيها الضيف ، ما أرى بأساً فى أن أسألك إذا كنت أبقى هنا مع ولدى أو أختار أحداً من أولئك الأمراء فيكون لى بعلا . . . على أن رؤيا رأيتها لا تزال تضطرب فى خلدى ولا أعرف كيف أعبرها ذلك أننى كنت أقتنى عشرين إوزة بيضاء ، وكنت أحبها وأرعاها بنفسى ، فرأيت فيما يرى النائم نَسراً قشعما انقض عليها من الجو فافترسها جميعاً بينما كانت تأكل طعامها من المعلف الذى أعددته لها . . . ولما رأى النسر شدة حزنى والتياعى على أوزى ، وقف على نتوء قريب ثم أنشأ يكلمنى ويقول : لا تحزنى يا ابنة إيكاريوس على الأوز فإنه يمثل عشاقك الخُطّابَ الفُسّاق . . . أما أنا فأمثل زوجك النازح الذى سيعود من سفره فجأة فيبطش بالطغمة العاتية التى استباحت قصره ، وولغت كالكلاب فى عرضه . . . ألا يا ابنة إيكاريوس اسعدى ! » واستيقظت

من نومى مسبوهة ونظرت إلى إوزى لأطمئن عليه فوجدته سالماً . . . فهل تستطيع أن تعبر عن تلك الرؤيا أيها العزيز؟ .

فقال أوديسيوس : « أيتها السيدة الفاضلة . . . لقد فسر لك الرؤيا زوجك بلسانه . . . وهى تعنى غير ما قال . . . إنه قادم وشيكاالاريب . . . وإنه حامل إلى خُطَّابك العشاق مناياهم » .

واثَّاقلت بنلوب ثم قالت : « أبداً . . . إن هى إلا أضغاث أحلام ! إذا كان غد فإنى ذاهبة إليهم فذاكرة لهم شرطاً إن استطاعوه نالنى أقواهم فذهبت من فورى إلى بيتى ، وتركت كل هذا القصر الذى دخلته زوجة لخير زوج ، ليكون حلماً جميلا يزخرفه لى الماضى . . . وذلك أننى شارطة عليهم أن يحملوا قوس أوديسيوس فيصيبوا بها غرضاً يخترق السهم إليه اثنى عشر (دنجلا) [1] فإن أصابه أحدهم فإنى له » . وهش أوديسيوس وأيد فكرتها « لأن واحداً منهم لن يستطيع أن يوتر قوس أوديسيوس قبل أن يحضر أوديسيوس فيحطمهم جميعاً ! ! » وأشارت بنلوب إلى خدمها فأعددن لأوديسيوس متكأ وفراشاً وثيراً . . . وذهبت هى لتذرف فى مخدعها دموعاً من بلور .

---

(١) لم نجد فى العربية — أو لم نعرف — مرادفاً لمحور القرص أو العجلة ، فأجزنا هذه اللفظة لشيوعها بين الصناع .

نذير من السماء

طفق أوديسيوس يتقلب فى فراشه على أحر من الجمر ، وطفق رأسه يغلى كالقدر ، بل يفور كالتنور بطائفة ثائرة صاخبة من الأفكار والوساوس ، وهو لايدرى ماذا يصنع بهذه العصبة أولى القوة من أولئك الخطاب المفاليك ، وهو وحده ، ومهما يكن شجاعاً صنديداً فقد يتكاثر الذباب على الأسد فيقتله . . .

وهبطت من السماء مينرڤا اللطيفة فى صورة حسناء هيفاء ممشوقة القد بارعة القسمات ، فجعلت تواسيه وتطمئنه وتبشره بأن الأولمب كله من ورائه فلا يخاف ولايأسى .

ويقول لها :

–«هذا حسن أن يكون الأولمب، وتكونين أنت ياربة الحكمة، من ورائى حتى أنتصر على أولئك الجبارين... فكيف لا أخشى أن يهب من ورائهم قبائلهم وذراريهم واللائذون بهم يثأرون لهم فيحل بى بطش شديد ؟؟»

فتقول مينرڤا : « الذى يحفظك منهم غداً يحفظك من غيرهم بعد غد ، ولو جمعوا لك جحفلاً أضعافاً . . . فلا عليك أيها العزيز . . . خلّ عنك الوساوس إذن . . . ونم ملْ جفنيك . . . واترك للسماء قيادك فهى حسبك . . . » قالت هذا وزفّت [1] فى الأثير اللانهائى إلى أولمب ، تاركة وراءها القصر العتيد بمن فيه من نُوَّام وغير نوام . . .

مسكينة بنلوب ! لقد كانت هى الأخرى شاردة اللب ، موزعة القلب ما ترقأ لها عبرة [2] ، ولاتغنى لها عين ، ولا يقرلها قرار . . . لقد لبثت ليلها كله تتشوق إلى أوديسيوس وتبكى عليه ، وتستذكر أيامه ، وترثى لهذا

(١) طارت وارتفعت

(٢) ماتخف لها دمعة

الفتى اليافع تليماك ؛ ثم تدعو الموت كى يخمد أنفاسها ، ويُوَفّر عليها أحزانها . . . ولكن المنايا نوافر لاتستجيب لدعاء أحد . . .

وهبَّ أوديسيوس عند مطلع الفجر فانطلق إلى المذبح الكبير حيث جثا متضرعاً لهفاناً ، يسبح باسم زيوس العلى ويصلى له ويهتف به أن يجعل له علامة يطمئن قلبه بها ، وليعلم أن كبير الآلهة لايزال يحميه ويكلؤه ، كما كلأه فى شدائده فى البر والبحر . . . وكان أوديسيوس يُزكّى صلاته بأطهر الدموع وأحرها ، وكان سيد الأولمب يصغى لدعائه من علياء السماء ، فما إن فرغ الملك المحزون حتى أرسل زيوس فى الأرجاء زلزلة عظيمة مدوية رجّت أصداءها جنبات القصر الساكن ، وأحياد الجبال الشامخة . . . وكانت خادم بائسة تسهر طوال ليلها عاملة فى طاحونها ناصبة فلما وقرت فى سمعها الزلزلة ذعرت وروعّت ، وأزاحت طرف الستر لتنظر إلى السماء فلم تجد فيها سحابة واحدة ، بل وجدتها مشرقة بتباشير الصباح ، مضيئة بنور ربها . . فجعلت تجأر إلى اللّه وتقول : « زلزال وليس فى الأفق سحاب ! ! أما واللّه إنه لنذير ، أما واللّه إنه لغضبة السماء على هؤلاء المناكيد...القساة...الذين يقسروننى على هذا العناء وذاك النصب طوال الليل كأننى من حديد . . . ياجُوف العلى...إن يكن ما سمعت حقاً ، فإنى أسألك بحق أسمائك أن يكون هذا الدقيق آخر ما يأكلون من زاد هذه الدنيا ! ! » .

وتبسم أوديسيوس من قولها وتوسم فيه وفى تلبية السماء خيراً له ، وشاع فى أعطافه شعور قدسى باقتراب ساعة الانتقام . . . وكانت الوصيفات الأخريات يوقدن نار المدفأ فى الردهة الكبرى ، بينما برز تليماخوس من مخدعه مخترطاً سيفه ، ورمحه يختال من خلفه ، حتى إذا بلغ وصيد الباب الكبير هتف بالمرضع العجوز يوريكليا يقول : « كيف حال الغريب النازح ياأماه ؟ بودى لو أنكن عنيتن به كما ينبغى ، لأن والدتى على ماجبلت عليه من خير ولطف ، لاتهش لأمثاله من النازحين الغرباء »

وقالت يوريكليا تجيبه : « يابنى لاتثريب على والدتك فى هذا السبيل فقد احتسى ضيفكِ من الخمر ملء بطنه ، حتى لقد أبى أن يذوق طعاماً بعد ، وقد أبى إلا أن ينام على فراش خشن فى الردهة الكبرى ، ولا أدرى لماذا تشبث بهذا » . وانطلق تليماك إلى المدينة يتبعه كلباه . ثم أقبل الراعى يومايوس يسوق بين يديه ثلاثة خنازير كناز من أسمن قطعانه ، وما أن رأى أوديسيوس – الشحاذ الفقير فى حسبانه – حتى قصد إليه ، ولبث يسائله عما لقى من الخطاب العشاق–فذكر له أوديسيوس ما كان من وقاحتهم..وبينما هم كذلك ، إذ أقبل الراعى السفيه ، سليط اللسان ميلانتيوس وهو يحدو قطعانه وماعزه ، وطفق كدأبه يسب أوديسيوس ويرسل عليه وعلى يومايوس ما نزح به فمه من شتائم ، تحرشاً بالرجل الشحاذ الفقير ، ولكن أوديسيوس لم يحرك ساكناً . . . وأقبل راعى آخر يقود بقرة صفراء ، يدعى فيلتيوس ، فوقف عند زميله يومايوس يسأله عن صاحبه الفقير الشيخ ، وكأنما راعته ملامحه وحسن سمته: «إن له سيماء كسيماء الملوك برغم أسماله ومزقه!» ثم صافح أوديسيوس وقال له: «مرحبا أيها الأب! خفف الله عناءك ووضع عنك وزر ماتشكو... ياللسماء! إن مرآك ليفجر الدموع فى عينى لأنك تذكرنى بمولاى أوديسيوس الذى وكل إلى رَعْى قطعانه وأنا بعد صغير حدث، فكبُرَت كما كبُرْت، وتضاعف عددها...ولكنى واأسفاه لا أفرح بسمنها ووفرة عددها ، بل إن الحزن ليرزح على نفسى لأنها تسمن فتكون غذاء لامباركا ولا هنيئاً لأولئك الظالمين . . . ولولا رجائى فى السماء . . . وأملى الكبير فى عودة مولاى أوديسيوس لَلُذْت من بعيد بسيد آخر أخدمه ، لأن الصبر على خبائث هؤلاء العتاة الطغاة لم يعد فى طوق أحد . . . واأسفاه عليك يامولاى أين أنت اليوم ؟ ألاليتك تعود فتبطش البطشة الكبرى بهؤلاء الجبارين ! » . . . واغتبط أوديسيوس بماسمع من كلام الراعى فقال له : « لله ما أشجعك أيها الصديق ! ولكنى أبشرك وأطمئنك ، وأقسم لك أن مولاى عائد ما فى هذا شك ، وهو عائد عما قريب ، وستشهد عيناك هاتان مصارع البغاة الطغاة ! » . . . وبينما هما

يتحدثان إذا بالخطاب يقبلون أفواجاً فيملأون البهو ، ويجلسون إلى وليمتهم . فيشير تلماك إلى أبيه فيجلسه معهم . ويعد له مائدة ومقعداً ، ويحضر له من الشواء والخبز والشراب ما هو حسبه ويقول له بمسمع من الجميع « إجلس أيها السيد ولاتخش رهقاً . . . إنى أمقت أن أسمع شغباً اليوم . فالبيت بيت أوديسيوس وإنى لصاحبه ! » وغيظ أنطنيوس فقال : « دعوه فقد حق له أن يقول ما يشاء ، فتالله لولا أنْ حال جوف بيننا وبينه لأسكتنا إلى الأبد أنفاسه ! » وقال سفيه آخر : « طب نفساً ياتلماخوس وقرَّ عيناً . فهاك منحة منى لضيفك . مضغة مشتهاة ! » ثم تناول عظمة من السلة القريبة فقذف بها أوديسيوس الذى انحرف عنها فلم تصبه ، وعندئذ قال تلماك مغاضباً : تالله لو أصابته لأقصدْتك برمحى هذا فنفذ فى صدرك ، وخرج يلمع من ظهرك ، ولا نقلب العرس الذى تحلم به فكان مناحة تؤزّ بيتك . . . إنى لم أعد صبيا بعد فلا ترهبوننى سترون كيف أستطيع أن أضع لكل ذلك حداً بعد إذ طفح الكيل ! » وهنا هب لئيم آخر فحبذ فى سخرية مقالة تلماك . . . « لأن من حقه أن يحمى ضيفه . . . « ولكن اسمع ياتلماخوس . . . لم لا تمضى إلى أملك وقد يئست من عودة أبيك فتطلب إليها أن تحضر فتختار البعل الذى يروقها من بيننا ؟ » فتحمَّلَ تلماك الكلام وقال : « هى حرة مطلقة الحرية . إنى لا أقف فى طريقها ولا أقسرها على شئ ! » وما كاد يفرغ حتى انفجر المناكيد يضحكون ويضجون .

ثم حدثت المعجزة !

لقد تضرجت وجوه القوم بحمرة الدم . . . ولقد تحركت قطع اللحم فوق الخوان فهى تقطر دماً أحمر كأنه ينبثق من غلاصم قتلى ! ثم امتلأت عيونهم بدموع غِزار حرار . . . ثم طفقت دموعهم تعلو وتهبط وتنشق عن تنهدات تصعد من سويداءات القلوب . . . ثم هذا ثيوكليمنوس – الكاهن الآبق – يشهد المعجزة ويرى النذير ، فينهض فيهم قائلا : « تعساً لكم أيها

الأنجاس لقد سيئ بكم ! ماذا تخبأ لكم المقادير ياترى ؟ ماهذه الظلمات كأنها قِطَعُ الليل تغطش رؤوسكم وتزلزل أقدامكم ؟ وما هذه الدموع تتصبب من عيونكم فتشوى خدودكم ؟ انظروا إن استطعتم ! ما هذه الدماء التى تضرج جدران القصر؟ ماهذه الأشباح التى تكظ البهو الخالد ؟ إنها تتهاوى إلى عالم الفناء فويل لكم ! ؟ أوه ! وتلك آية أخرى لقد كسفت الشمس فجأة وتوارت بالحجاب ! الضباب الضباب ! ما أروع الضباب ينتشر فيملأ ما بين الأرض والسماء ! ! »

وبالرغم مما أنذر الكاهن فقد أغرق القوم فى الضحك ، ولم يزدادوا إلا خبالا . . . وقال قائلهم ، وإنه ليوريماخوس : « ما أحسب إلا أن به جِنَّة ! خذوه فغلوه ثم فى السوق صلوه [1] ، عسى أن يجد ثمة ضياء يمشى فيه ، إنه لا يجد ضياء هنا ! ! » .

وتلّبت الكاهن فقال : « أربع عليك يايوريماخوس فإن لى عينين وأذنين وإنى لأرى وأسمع . . . وانى نذير لكم من بلاء يحل بكم فلا يبقى ولا يذر . . أيها الأفاكون المفسدون ! » وانطلق الكاهن من القصر . . ولمز أحد الخطاب تلماك فقال : « ألا ما أتعسك فى كل من ضَيَّفْت من ضيف يافتى ! أما كان بحسبك هذا الفقير الشحاذ القذر الذى تطعمه ، ما عليه من سبيل ، حتى تجلب هذا المتفيهق الذى يدعى النبوة ويرجم بالغيب ؟ » .

وصمت تلماك فلم ينبس ، وظل ينظر إلى أبيه ، ويرقب ساعة الجد .

---

(١) ارموه واقذفوه .

وما رميت إذ رميت . . .

وكانت بنلوب جالسة فى الحريم تسمع إلى ضجيج القوم وعجيجهم ، فبدالها أن تضع حداً لهذا العبث العقيم الذى استمركل هذه السنين الطوال فأمرت بعض وصيفاتها فتبعتها إلى المخبأ الذى حفظت به أذخار الملك وعتاده ، والسلاح الذى فَرِقَت[1] منه قلوب وارتعدت فرائص وزاغت من هوله أبصار . . .

لله ما كان أشجاها ذكريات حافلة بأروع ضروب المجد ! هاهى ذى تلك الرماح التى طالما لاعب بها أوديسيوس الأسنة ، والسيوف التى طالما انتزع بها الأرواح ، والدروع السابغات التى كانت تدرأ عنه وتحميه ، وتحفظه وتفتديه . . . ثم هاهى ذى تلك القوس العظيمة معلقة فوق الحائط تلمع وترقص من حولها المنايا . . . القوس ذات الذكر التى أهداها إلى أوديسيوس أحد المعجبين به . . . ها هى ذى بعد هذه السنين الطوال لم يحملها أحد غير أوديسيوس ، لأن أحداً غير أوديسيوس لا يستطيع أن يثنى قوس أوديسيوس ، وفيها الوتر العُرُدُ[2] الذى لا يلين ولا يبين ولا يُرَدَّ ، إلا إذا كلمه أوديسيوس ! ! وتناولت بنلوب كنانة[3] السهام التى طالما قذفت المنون فى قلوب الأعادى ، وجلست تنثرها فى حجرها ، وتنتقى منها ، وتبكى أحر البكاء . . . لأن كل سهم منها كان يهيج فى قلبها ذكريات زوجها البطل .

وأشارت إلى وصيفاتها فحملن القوس العظيمة ، وحملن (الدَّناجل) ، ثم حملت هى السهام وسارت أمامهن ، وعلى وجهها نقابها

---

(١) انزعت ورجفت

(٢) الصلب

(٣) مخلاة

السادر الحزين ؛ حتى إذا كانت عند الأمراء هتفت بهم فصمتوا ، ثم قالت لهم وفى صوتها نبرة الحزن ، وموسيقى الآلام : « ها هى قوس أوديسيوس وتلك هى سهامه أيها السادة الأمراء فمن استطاع أن يثنيها فيرسل عنها سهماً يخترق الدناجل الاثنى عشر فإنى له ، وهو صاحبى . . وعسى أن تبطل السماء حجتكم اليوم . . فقد طالما ذهبتم بخير هذا القصر ، وأرَعتم[1] من زاده بحجة أنكم خطابى ، كما استبحتم أن تسموا أنفسكم ، فإليكم القوس فانظروا ماذا تصنعون وأشارت إلى الراعى يومايوس فتسلم القوس العظيمة ، وحملها معه زميله راعى الضأن فيلوتيوس . . . ثم إن الراعيين لم يطيقا ذكريات سيدهما التى هاجتها فيهما القوس فذرفا دموعهما ثم استخرطا[2] فى البكاء . . . وانتهرهما أنطونيوس فقال : « تباً لكما أيها الفلاحان القذران فيم هذا البكاء ! ألتهيجان الشجو فى فؤاد سيدتكما ؟ انطلقا أيها المسخان فابكيا بعيداً فتالله ما أحسب بكاءكما إلا يزيد فى صلابة القوس ، وتالله ما أحسب أحداً منا يبلغ منها مأرباً . . . وَىْ ! من منا له بأس أوديسيوس ؟ لقد كنت طفلا ، بل كنت وليداً ، حينما رأيت رجلا ذا صولة وفتوةٍ يهديها إلى البطل . . . أجل . . رأيت هذا بعينى هاتين . . » وكان فى كل ما قال ساخراً . . . فقد هيأ له الغرور أنه بقليل من العناء سيثنى القوس ويرسل السهم ويحظى ببنلوب ! »

ونهض تلياك فقال إنه سيسهم فى الرماية فإذا استطاع فإنه سيُبقى أمه لديه ولا يتركها تغادر منزل أبيه أبداً . . . ثم حفر حُفَراً على خط مستقيم فجعل فى كل منها دنجلا وثبت حولها بالحجارة والتراب . . . ثم إنه تناول القوس العظيمة وألقمها السهم ، وجمع قواه وطفق يشد ، ولكنه فشل مثنى وثلاث ، وكانت القوس تشمخ عليه فلا تكاد تنثنى ، حتى إذا حاول الرابعة وأوشك أن يظفر ، أومأ إليه والده ففهم مايريد وقال : « أوه لا يقدر

(١) أردتم وطلبتم

(٢) اشتدا

على هذه القوس إلا من هو أقوى مني وأكمل جسماناً وأتم بنيه . . . فليتقدم لها من شاء منكم حتى نرى ! ».

وقال أنطونيوس : إنهم جميعاً مشتركون فى التجربة حسب مقاعدهم ، حتى الكاهن . . . فنهض هذا ويمم شطر الوصيد[1] وحمل القوس الرهيبة وحاول مائة مرة أن يثنيها فلم يستطع ، فألقاها وقال : « أيها الرفاق . . . ماأحسب هذه القوس إلا موئسةً للجميع . . . لقد أوهتنى وذهبت بمُنَّتِى[2] . . . ألا فلتحلموا بامرأة أخرى غير بنلوب ، فو الله ثم والله إنها للرجل الذى كتبتها المقادير له . . . الذى يحضر إليها بما ليس فى وسعكم من كنوز ومن أذخار » .

وغضب أنطونيوس وتجهم للكاهن ثم قال : « ألا ساء ما تقول أيها الرفيق ! أحسبت أننا نيأس من هذه القوس لأنك لم تقدر عليها ؟ ومتى كنت رجل جلاد وجهاد ، ومتى ثنيت قوساً أو أرسلت سهماً ! أربع عليك ففينا الكثيرون الذين يستطيعونها بالقليل الأقل من الجهد » ثم أمر راعى الضأن ملانتيوس أن يحفر حفرة ويوقد فيها ناراً يجعل بها وعاء من شحم ليعالجوا به القوس عسى أن تلين قبل أن يُدْلوا دلوهم . . فلما كان هذا أخذ الأبطال كل بدوره يحاول أن يثنى القوس ، ولكنها استعصت عليهم جميعاً ولم يبق إلا أنطونيوس ويوريماخوس ، وهما أكثر هذا الجمع قوة وأوفرهم فتوة .

ثم نهض راعى الخنازير ، يومايوس ، ونهض فى إثره صديقه الراعى الآخر ، فَحثّا الخطى خارج البهو لما شاهدوا من يأس القوم . . . وقد تبعهما أوديسيوس . . . فلما كانوا بعيداً قال لهما : « أيها الحبيبان ، إذا أرسلت العناية أوديسيوس فى هذه اللحظة ليبطش بهؤلاء المناكيد أفتحاربونهم

(١) الفناء والمقصود المكان الذى أعد للقوس والدناجل

(٢) قوتى

معه ، أم تحاربونه معهم ؟ » . . . فرمقه فيلوتيوس وقال : « يا للسماء ! تالله لو صحت أحلامك لرأيت كيف أفتديه منهم بنفسي ومهجتي ! وتالله لرأيت كيف يهتز سلاحي فيحصد رؤوسهم ويبعثر أشلاءهم ! » وقال يومايوس مثل هذه المقالة . . ولما وثق من إخلاصهما كشف لهما عن حقيقته فقال : « إذن فا علما أني أوديسيوس ، وهذه هي الندوب التي أحدثها الخنزير فى ساق ، وقد أبت إلى وطني فجأة فلقيتكما أول من لقيت ، وأكرمت مثواى يايومايوس وأنت لا تعرفني ، ولم أشأ أن أبدو للقوم حتى أعرف عدوى من صديقي » ولم يكد يفرغ من قوله حتى انحنى الرجلان يشهدان الندوب ، فلما استيقناها ذهلا عن نفسيهما ، وجثوا عند قدمي مولاهما ، وطفقا يقبلانهما ويغسلانهما بدموعهما ، ثم نهضا فألقيا سلاحهما عليه ، بيد أنه أمرهما أن يصمتا حتى لا يفضح أمرهم أحد . . . وقال لهما : « لابد أن نعود أدراجنا إلى البهو ، وسأنطلق أنا قبلكما ، وسأطلب منك يايومايوس أن تعطيني القوس لأقوم بنصيبي فى التجربة وسيرفض القوم أن أفعل ، ولكنك يجب ألا تبالي ، بل تناولني القوس ثم تسرع بعد هذا إلى الحريم فتخبر النساء فيه ألا يُذْعَرن إذا سمعن ضجة أو عويلا فى البهو ، أو شهدن حرباً وقتالا . . . أما أنت يافيلوتيوس فتسرع إلى باب البهو فتوصده وتحكم إغلاقه حتى لا يفلت منهم أحد أبداً » . ثم مضى فجلس مكانه لدى الباب ، وتبعه الراعيان . . . وفى هذا الوقت كان يوريماخوس يحاول محاولته ، وكان من وقت إلى آخر يذهب بالقوس العظيمة فيعرضها للنار عسى أن يسهل عليه ثنيها ، لكن القوس أبت مع ذلك أن تلين ، فلما بلغ من يوريماخوس الجهد(١) ألقى بها يائساً وقال :

« تباً لها من قوس عنيدة ، والعار الأبدى لنا جميعاً يارفاق ! مالنا ولهذا ؟ إن فى إيثاكا حساناً ، وإن فيهن أزواجاً تُرْباً أبكاراً لمن يشاء ! أوه

(١) التعب

ياللخزى ! أواه لو لم تقل الأجيال المقبلة كنا دون أوديسيوس قوة وأقل منه فتوة حين عجزنا أن نثنى قوسه ! ! يا للخزى . . . يا للخزى ! »

وروَّعَ أنطونيوس ! وذهل عن أمره ، ولم يشأ أن يخزى نفسه بأن يحاول كما حاول غيره . . . فوقف فقال : « ما أحسب القوس عنيدة ولا مستعصية كما تزعمون . . . ولكن اليوم يوم عيد أپوللو رب القوس العظيم ، فأنى لنا نحمل قوساً اليوم ! دعوها ، واتركوا الأهداف مكانه ، فلن يجسر أحد أن يدخل بهو أوديسيوس فيمضى بها ، وفى بكرة الغد يحضر ميلاتنيوس من قطعانه عنزات سماناً فنضحى بها لأپوللو ، ثم نتم محاولتنا »

ولكن أوديسيوس هب من مجلسه فقال : « ياسادة ! ما دمتم لن تحاولوا الرماية اليوم فأرجو أن تدفعوا إلىَّ هذه القوس لأجرب أنا أيضاً ، ولأرى هل لا تزال بقية من منَّةِ الشباب مخبوءة فى أعصابى أم أنها ذهبت بها جميعاً متاعب الحياة وكثرة التجوال فى أطراف الدنيا . . . » وجُنَّ جنون القوم لما قال أوديسيوس هذا ، وعجبوا كيف يجسر شحاذ فقير مثله أن يطلب أن يشارك السادات فى مباراتهم . . . ومن يدرى ؟ لعلهم ذعروا أن ينجح هذا الفقير فيما فشلوا هم فيه . . . قال أنطونيوس : « أخزن عليك لسانك أيها السليط الوقح ! ألا يكفيك أن يسمح لك بوجودك بين هؤلاء السادة الأخيار من أقيال[1] البلاد حتى تطلب أن تباريهم ! » وكانت بنلوب تطلع فلم تحتمل أن يؤذى ضيف ولدها هكذا ، فقالت : « أنطونيوس ، أنى لك أن تؤذى تلماك فى ضيفه ؟ بل ينبغى أن يحاول الرجل كما حاولتم ، فأما أنك تخشى أن يظفر فيما فشلتم فيه . . . فلا ضير . . . إنه لا جَرَم ليس يحلم مثلكم بأن أكون زوجة له ، فليفرخ روعك إذن ، ولتطمئنوا جميعاً » وقال يوريماخوس : « يا ابنة إيكاريوس ما دار بخلدنا قط أن تكونى زوجة له إذا ظفر ، ولكنا خشينا أن يفضحنا فى الناس

---

(١) أمراؤها وحكامها .

فيقول . « عجباً لسادات إيثاكا وما حولها ؟ يطمعون أن يتزوج أحدهم امرأة البطل العظيم أوديسيوس ثم لا يستطيعون رمى سهم عن قوسه ، ويأتى رجل شحاذ فقير فيثنى القوس ويرمى السهم وهم مع هذا لا يستحيون ! » هذا ما خفنا أن يكون يا ابنة إيكاروس وهذا ما خشينا أن يذهب بشرفنا ؟ » فقالت بنلوب : « لتطمئن يا يوريماخوس فليس فى مثل هذا يضيع شرفكم . . . ولكن الرجل ذو جسم طُوال ومظهر جبار ، وقد ذكر آباءه فُعلم أنه كريم العنصر طيب الأرومة[1] عريق المحتد[2] ، فلم لا يعطى القوس لنرى ما يكون ؟ وإنه إذا ظفر فسأخلع عليه وأدفع له سلاحاً وأرسله أنى شاء ! ؟ » . ثم نهض تلماك فقال : « أماه ! إن القوس قوسى وإنى لصاحبها ، أعطيها لمن أشاء وأصونها عمَّن أشاء ، ولن ينازعنى حتى أحد من العالمين ، ولو شئت لأعطيتها الرجل فتكون حقاً خالصاً له ، وما سمحت لأحد أن يمنعنى . . . تفضلى أنت فغلقى عليك أبواب الحريم ، وانظرى فى أعمال البيت ، وصرفى شئون الخدم ، وخذى فى غزلك ونسجك ، وسننظر نحن فى أمر القوس ، وسأرى أنا لمن تكون النوّبة ، فإنى هنا سيد لا مسود ! » . . . وشدُهت بنلوب قليلاً ، إلا أنها عرفت أن ابنها قال حقاً ، فانسحبت ، وغلقت عليها أبوابها ، وانطرحت فى فراشها حيث وافتها مينرڤا فسكبت فى عينيها غفوة هادئة لذيذة ، فاستسلمت لسبات عميق .

وتقدم يومايوس فحمل القوس وأوشك أن يذهب بها إلى أوديسيوس لكن الأمراء زأروا مغاضبين ، فخشى الراعى ، وألقى القوس ثانية ، فصاح به تلماك : « هات القوس هنا أيها الرعديد[3] لشدما أود أن أخلص منك ومن هؤلاء السادة الذين ترهبهم . . . ! » وسخر الأمراء وضجوا ضاحكين . . . ولكن الراعى تقدم إلى القوس فاحتملها ، وذهب بها قدُما إلى مولاه . . . وانطلق بعد هذا إلى الداخل فنادى المرضع يوريكليا وقال

---

(١) الأصل والمنشأ (٢) المنبت (٣) الجبان

لها : « إن مولاى يأمرك أن تغلقى جميع الأبواب ويقول لك إنه إذا سمع النساء ضجة فى البهو أو قتالا فليجلسن حيث هن ولا ينزعجن ، وليأخذن فى عملهن . أتسمعين ؟ » .

وغلقت المرضع الأبواب وبلغت رسالة مولاها . . . ثم هم فيلوتيوس فغلق باب البهو وأحكم إقفاله وربطه بسَلَبٍ[1] طويل كان لسفينة وألقى لدى الباب ؛ وعاد فجلس مكانه وعيناه لا تريمان عن مولاه . . .

وتناول أوديسيوس القوس فجعل يفحصها ويبحث فى أجزائها ، مخافة أن يكون السوس قد نخرها إذْ هو ناء عن بلاده . . . وزاغت أبصار القوم ، وجعلوا يُبَرِّفون فى الشحاذ الفقير ويقولون :

« الهِلَّوْفُ[2] الزنيم ! إن له لَعَيْناً فاحصة كأن لها عهداً بالرماية ؛ وإنه ليبحث القوس . كأنه يقتنى أمثالها ! » ثم قبض أوديسيوس على القوس ، وشد طرفها فى سهولة و فى يسر ، كما يشد الموسيقى وتراً من أوتار قيثاره ، ونظر إلى الأهداف المتراصة أمامه ، وأرسل سهماً اخترقها جميعاً ، وسمع له صوت كسقسقة العصافير . . .

يا عجباً ! ! لقد أراش أوديسيوس السهم ، وأرسل زيوس العلى زلزلة ورعداً مدوياً وثب له فؤاد البطل ، وطارت منه ألوان القوم ، وانقذف الرعب فى قلوبهم . . .

ثم أخذ أوديسيوس سهماً آخر فثبته ، ثم أراشه فا خترق الأهداف مرة أخرى . . .

---

(١) فى القاموس السلب لحاء شجر باليمن تعمل منه الحبال ونحسب أن منه إطلاق السلب على الحبال الغليظة فى مصر فلم نر بأساً من استعماله بهذا المعنى .

(٢) الهلوف بتشديد اللام وزان فردوس الثقيل الجافى البطين ونحسب أن منه نحت المصريون كلمة هلفوت وقد استعملناها لظرفها ومناسبتها كثيراً للمقام .

قال أوديسيوس : « تليماخوس أيها العزيز ! إن ضيفك لم يخيّب رجاءك ولا أضاع عشمك[1] ، ولقد أصبت الأهداف كلها على حداثة عهدى بالرماية . . . والآن ، هلم فإن النهار يوشك أن يولى ، وإنه لينبغى أن نعد وليمة المساء للسادة الأمراء ، ولن يعدموا بعدها ما دأبوا عليه من رقص وعزف ، وقصف وغناء . . . ! »

وهم تليماك فألقى حمائل سيفه على كاهله ، وتناول رمحه العظيم . . . وسنرى !

(١) فى القاموس العشم الطمع

الانتقام الهائل

ألقى أوديسيوس أسماله ؛ واطّرح مزقه ، وبرز للملأ أوديسيوس القوى الحديدى الجبار ، وتناول كنانة الأسهم التى تُهَمهم فيها المنايا وتغمغم ، والقوس العتيدة العنيدة ، ووقف عند الوصيد حتى لايفر أحد من أعدائه فينجو من الموت الذى هو ملاقيه ، ثم نثر الكنانة عند قدميه وهتف بالعشاق يقول : « وهكذا ياسادة تتم فصول المأساة ، وهكذا أيضاً تنتهى المباراة التى لم يفز فيها واحد منكم . . . والآن . . . انظروا إنى لن أسدد سهامى إلى هذه الأهداف بعد ، بل إنى مسددها إلى غرض آخر . . . » وشد الوتر العرُدّ ، وأرسل إلى حلقوم أنطونيوس سهماً مُرْاشاً عجل به إلى هيدز . وكان العِلج [1] يوشك أن يحتسى كأساً ذهبية من أعتق الخمر ، فسقطت الكأس من يده الذاهلة ، وسقط هو يتشحط فى دمه ، [2] ويلفظ أنفاسه . وذعر الآخرون حينما رأوا أخاهم يسقط إلى الأرض رمة لا نَفس فيها ولا حراك ، فهاجوا وما جوا ، وهبوا يبحثون عن أسلحتهم . . . ولكن ، هيهات ! لقد أخفاها أوديسيوس وولده ليلة أمس . . . فأنى لهم بها ! ! وصاحوا بأوديسيوس : « أيها المجنون لقد أخطأت المرمى ! ماذا أصابك إنك تسدد إلينا ؟ لقد قتلت أنبل شباب إيثاكا ، ثكلتك [3] أمك ! أبداً لن تحمل بعد هذه قوساً أبداً .

وانكشف الستر ، وعاد إلى الشحاذ الفقير عنفوانه ، وانقذفت من فمه الحمُمَ فقال : «أيها الكلاب ! فال [4] مازعمتهم أن أوديسيوس لن يثوب ! هأنذا أيها العبيد ! لقد استبحتم حمى بيتى وأذللتم قدسه الحرام ، وأوضعتم [5] فى الفتنة واعتديتم على نسائى ، ولن تبالوا أن تتعشقوا

---

(١) العلج الحمار والعير والبليد القلب الفاقد الشعور

(٢) يتقلب (٣) فقدتك

(٤) خاب (٥) أسرعتم

زوجي ، بينما رجلها حي يسعى على قدميه ، غير عابئين بمن يطّلع عليكم في السماء وهو بكم محيط ، ولامبالين بما تضج به الرفات الكريمة في ثرى هذه الأرض من فعالكم ، فويل لكم ، لقد حان حينكم !! » .

وارتعدت فرائص الكلاب كما دعاهم أوديسيوس ، وطارت حمرة الخمر من خدودهم ، ووقف يوريماخوس متخاذلا وهو يقول : «إن كنت حقاً ملكنا أوديسيوس فكلنا نعتذر عما ارتكبناه من الإثم في بيتك . ولقد تكلمت فقلت الحق كل الحق ، ولكنك قد أرديت أنطونيوس الذي دعانا إلى كل ذلك والذي لن يطمح أن يتربع على عرشك ويملك كما ملكت ، فاعف عنا واصفح عن خطايانا ، فنحن بالرغم من كل ما حصل شعبك الأمين ، ورعاياك الأوفياء الأولياء . . . على أننا سنعوضك مما استبحنا مالاً بمال وعتاداً بعتاد » فقال أوديسيوس : «يوريماخوس أيها النذل ! إنكم مهما ملأتم يدي من الذهب فلن تشفوا حَرَدي [(١)] ولن تُذْهبوا غُلتي [(٢)] حتى أنتقم منكم جميعاً لما صدر عنكم من إفك ، وما ارتكبتم من أوزار ! فاختاروا لكم ! الحربَ التي جدَّت بكم فجدوا بها ، والقتالَ الذي لا محيص منه ولا محيد عنه ، أو . فالفرار الفرار . . . ولن تجدو إلى الفرار سبيلا . . .» وزُلزل الجميع زلزالا شديداً ، وجفت ألسنتهم في حلوقهم فما عرفوا ماذا يحيرون ، ثم هتف فيهم يوريماخوس فجأة يقول : «أيها الإخوان ، لقد تحجر قلب هذا الرجل فلن يعرف سبيلا إلى الرحمة ، وقد قبض على القوس بكلتا يديه ، ووقف عند الوصيد يذودنا عن الباب ، ولن يفلت أحد منا من سهامه قط ، بل إنه سيقنصنا واحداً بعد واحد . . ولا أرى إلا أن تفروا إلى سيوفكم فتخترطوها [(٣)] وإلى المناضد فتدَّرعوا [(٤)] بها ، ثم نهجم عليه كرجل واحد عسى أن نزحزحه عن الباب فننجو بأنفسنا ونلوذ بالفرار فإذا بلغنا المدينة فإننا سالمون ! » ثم فرغ من صيحته واستل

---

(١) غيظي (٢) ظمئي

(٣) تستلوها (٤) تتخذوها دروعاً

سيفه ، وهجم على أوديسيوس مرعداً مزمجراً ، ولكن أوديسيوس أصماه بسهم فى صدره فصرعه ، وخر اللئيم يعالج سكرات الموت ، وانتشرت ضبابة الفناء الأبدى على وجهه المقبح فأطبقت عينيه . . . هنا . . . هاج الأمير أمفينوم وماج وهجم على أوديسيوس بسيفه الذى تقطر من حده المنايا . . . وكاد اللئيم ينال من خصمه منالا لولا أن قفز تلماك برمحه العظيم فأغمده فى صدره ورده عن أبيه وعاد مكانه دون أن ينتزع الرمح مخافة أن يتكاثر عليه الأعداء . وقال تلماك لأبيه : « أبتاه إنه يجب أن نستعد بسلاح أكثر . . . وإنى ذاهب فمحضر مانحتاج إليه وعائد بسرعة البرق » فقال أبوه وهو يَقصِيد [1] القوم بسهامه : هلم ياولدى وهات مااستطعت فلشد ما أخشى أن تفرغ هذه السهام فلا أستطيع أن أدفعهم عن الباب . . .» وانطلق تلماك إلى غرفة السلاح ؛ فأحضر ما مست إليه الحاجة من رماح وسيوف وخوذات ، وادّرع بما هو حسبه منها ، ثم ألبس الراعيين الأمينين درعين سابغتين [2] وزودهما بسيفين بتّارين ، ووقف الثلاثة إلى جنب البطل العظيم يمنعون تكاثر العشاق عليه ، بينا هو يرسل سهامهم فتخترقهم وتستأصل شأفتهم واحداً فواحداً ، حتى إذا فرغت سهامه ، وقف الأبطال الثلاثة يذودون من دون الباب حتى لبس أوديسيوس دروعه ووضع على رأسه خوذته ، وأخذ رمحين عظيمين فى كلتا يديّه ، وعاد إلى كفاحه ، وكانت فى الجانب الآخر من البهو بوابة صغيرة لم يفطن العشاق إليها ، فارسل أوديسيوس راعى الخنازير ليحرسها وليحول بين العشاق وبينها . . . وضاقت الدنيا حتى غدت كِكفة الحابل فى أعين القوم ، وتجهمت لهم حتى غدت كالليل البهيم ألقى غواشيه فوق رؤوسهم ، وناء بكلكله على صدورهم . . . فقال قائلهم : « ألا يستطيع أحد أن يمرق من البوابة فيصيح بأهلنا ويستنجد لنا ؟ » .

---

(١) أقصده بسهمه أى إصابة

(٢) ضافيتين .

فانبرى له ميلانتيوس [1] يجيبه : « هذا عبث لن يكون وراءه طائل فإن رجلا واحداً يستطيع أن يقفنا جميعاً لو فعلنا ، دون أن نبلغ الباب . . . بل لدىّ فكرة . . . إنى أعرف أين خبأ أوديسيوس وابنه اسلحتنا وسأنطلق فأحضر لكم منها ما يقيكم منها . . . » ثم تعلق بحبال مدلاة من كُوَّة فى السقف وتسلق عليها حتى نفذ ثمت ، وانطلق إلى غرفة السلاح فأحضر اثنتى عشرة درعاً ورماحاً كثيرة وخوذات ، وظل يلقى بها من الكوة فيتلقاها رفاقه ويدرعون بها . . . ولو كان مع أوديسيوس سهم واحد يرسله إلى هذا العلج قبل أن يتعلق بالحبال لما استطاع أن يحضر هذه العُدد قال أوديسيوس : « أى بنى لقد خاننا بعضهم ودل القوم على غرفة السلاح ، فانظر كيف يتضاعف عناؤنا ويزيد بلاؤنا » فقال تلماك : « كلا يا أبتاه ، إنه لم يخنا أحد ، والذنب ذنبى ، فقد تركت باب الغرفة دون أن أوصده . . . يومايوس ! إنطلق فغلِّق باب غرفة السلاح ، وأحضر مفتاحها ؛ وانظر هل خاننا أحد ، أو أن هذا من فعل ميلانتيوس كما أحْدِس ! » وانطلق يومايوس فرأى ميلانتيوس ذاهباً إلى غرفة السلاح ليحضر عُدداً أُخَر ورماحاً ؛ فقال الراعى : « ها هو ميلانتيوس الوغد منطلق إلى الغرفة كما حدس مولاى » وهتف بتلماك : « ها هو ذا ! ها هوا ذا ! هل أحضره حياً ليلقى جزاءه أم أقتله حيث هو ؟ » فقال أوديسيوس : « بل اذهب أنت وأخوك الراعى فشدا وثاقه واحبساه فى الغرفة حتى يلقى جزاءه ، وسأبقى أنا وتلماك لنذود دون الباب » وانطلق الراعيان فوقف كل منهما خلف مصراع من باب الغرفة حتى إذا برز ميلانتيوس انقضا عليه وكبلاه ودفعاه داخل الغرفة ، ثم ربطاه فى عمود هناك ، وقال له يومايوس « اهنأ ياصاح وارقد هنا إلى الصباح ، وأكبر ظنى أن الشمس لن تشرق عليك إلا وروحك فى عالم الظلال والأشباح ، فلا تراك قطعانك بعد اليوم » وأغلقا الباب وعادا أدراجهما إلى مولاهما وولده ، ووقف الأربعة

(١) هو الراعى الخائن الذى أصبح ضلعه مع العشاق ضد مولاه أوديسيوس

يناضلون جحفلا بأكمله . ثم بدت مينرڤا الحكيمة فى زى منطور وطيلسانه فعرفها أوديسيوس وفرح بها قلبه ، وهتف بها قائلا . « منطور أيها العزيز ، معونتك وتأييدك ، فنحن صديقان منذ القدم ! » وهتف العشاق ينادون : « احذر يامنطور وإلا فتلقى حتفك بعد أن نظفر بهذا الوغد . ولحظت مينرڤا ذعر أوديسيوس مما رأى . ملح القوم فقالت تؤنبه وتحثه : ما هذا التقاعس عن الحلبة يا ، . س ؟ هل فقدت شجاعتك وعنفوانك ؟ إنك ما أحجمت مثل . . اليوم طوال عشر سنوات حاربتها فى طروادة من أجل هيلين ، فهل ب عليك أن تلقى هذه الحفنة من عشاق بنلوب فى بيتك ، بل فى عقر دارك ؟ هلم ! قف إلى جانبى وانظر إذا كان منطور قد عق الصداقة القديمة ! » .

وحاربت معه ساعة ، ولكنها تركته ليعمل للنصر بمفرده ، وانسحرت. فكانت عصفوراً من عصافير الجنة جعل يرف ويرف فى سماء البهو ، حتى وقف على إحدى خشباته . . . وفرح العشاق لما رأوا من مفارقة منطور ، وعادت إليهم بعض شجاعتهم لمَّا رأوا المحاربين الأربعة يقفون وحدهم فى مدخل الباب الكبير . . .

وقال أحدهم يخاطب الباقين : هلموا فليقذف ستةٌ رماحهم قذفة واحدة إلى صدر أوديسيوس ، فإنه إن يسقط استرحنا منه ، فلن نلقى عناء من الباقين » ولباه أصحابه ، فقذفوا برماحهم فى صدر أوديسيوس ، ولكن . . . هيهات . . . إن واحداً منهم لم يصب غرضاً من الصدر العظيم . . . وهنا . . . هتف أوديسيوس برفاقه ، فانقض الأربعة على أربعة من المهاجمين فجعلوا فى صدورهم رماحهم ، ورد الله كيدهم فى نحورهم ، فقتل كل مهاجمه . . . وروّع الآخرون فارتدوا على أعقابهم ، وانزووا فى الركن السحيق من البهو ، وبهذا استطاع أوديسيوس ورفاقه انتزاع الرماح من صدور المقتولين . . . ولم يهتم الراعيان بما أصابهما من جراح بالغة ، بل وقفا يناضلان ويفديان سيديهما . . . ولما رأت مينرڤا ما

يلقى المحاربون الأربعة من تكاثر الأعداء رفَّت فى الهواء ، ثم كشفت عن درعها الهائلة التى تجلب الموت إلى كل من يراها ، ووضعت خوذتها الرائعة ثم انبرت للقوم ؛ وهَمَّ المحاربون الأربعة يطاردون الأعداء ، والأعداء يجرونَ من هٰهنا وهٰهنا مذعورين ذاهلين مما رأوا من درع مينرفا . . . وجعل أوديسيوس ورفاقه يصطلمونهم (١) أربعة بعد أربعة حتى لم يبق إلا المنشد المسكين فيميوس ، الذى قَسَره العشاق على الإنشادلهم ، وتطريبهم تطريباً لم يُؤْثره ، ولم يُؤَجر عليه . . . لقد فزع المنشد المسكين من هول المجزرة . . . وانطرح تحت قدمي أوديسيوس يقول : « مولاى ؟ أوديسيوس العظيم ! ارحمنى واعْفِنِي فقد قهرنى القوم على مارأيت ! اصفح عن المنشد البائس الذى يدخل السرور على أفئدة الآلهة ، ويذهب الحزن عن قلوب الناس ! » وهتف تليماك بأبيه يقول : « اصفح عنه ياأبى ، فإنه لاتثريب عليه ولا لوم . . . وهلم ننقذ المنادى إن كان لايزال به رمق ، فلقد كان يعنى بى إذ أنا صبى فى المهد ! » وكان المنادى قد فزع مما رأى ، وخبأ نفسه تحت مقعد كبير ، ثم طرح عليه جلد ثور ، فلما سمع تليماك يقول لأبيه هذا القول ، برز من مكمنه ، وتعلق برجلى تليماك ، وأنشأ يتوسل ويتضرع ، ويبكي ويتصدع فقال له أوديسيوس : لاتجزع أيها الرجل ، فلقد أنقذك ولدى كما أنقذ المنشد . . . اذهبا فانتظرا فى الرحَبَة ، فعندى ما سيشغلنى عنكما الآن . . . وانطلق الرجلان وهما لا يصدقان أنهما نَجَوا ، وجلسا عند المذبح ينتظران قتلهما فى كل لحظة . . . ثم مضى أوديسيوس يبحث فى البهو وتحت المناضد عمن يكون به رمق من الحياة فيجهز عليه ، بيد أنهم خروا جميعاً مضرجين بدمائهم فى التراب ، وقد تكبكبوا فوق بعضهم كالسمك فوق الساحل يقذف به الصياد فى يوم صائف . . . ثم قال لابنه أن يدعو المرضع العجوز يوريكليا ، فأقبلت ورأت أوديسيوس واقفاً كالمارد بين القتلى وقد لطخت الدماء يديه ورجليه وصدره ، فكادت

---

(١) يستأصلونهم

المرأة تجن من الفرح لهذا النصر المبين الحاسم ، وأوشكت أن تصيح وتزغرد ، لولا أن ردعها أوديسيوس عن ذلك : أيتها المرضع العجوز اكتمى فرحتك ، فإنه ينبغى ألا تكون شماتة فوق جثث القتلى ، وألا يكون صياح ، لأنها إرادة السماء قد نفذت فيهم بما أسرفوا من قبل وكانوا من المفسدين ! ثم أمر بالجثث أن تحمل خارج القصر . وبالدماء أن تغسل ، فتم ذلك فى أقصر وقت ، والتفت إلى المرضع يحدثها ويقول : « أرأيت ؟ اذهبى الآن فأحضرى ناراً وكبريتاً كيما نطهر الحجرة ، ثم أخبرى بنلوب أن تلقانى ههنا ! » فقالت العجوز « سمعاً وطاعة لك يابنى ! سأفعل ما أمرت ، ولكنى سأحضر لك ثوباً تلبسه قبل كل شئ فإنه لاينبغى أن تظل واقفاً هكذا فى أسمالك هذه » بيد أن أوديسيوس أمرها أن تفعل ما أخبرها من فورها ، فانطلقت العجوز ، وعادت بالنار والكبريت ، وأخذ أوديسيوس فى تطهير البهو الكبير .

بنلوب ... وأخيرا ... بنلوب

وهرولت المرضع العجوز فصعدت إلى الطابق العلوى ، حيث كانت سيدتها المحزونة تتقلب على فراش الهموم والأحزان فهتفت بها وهى تضحك ، وتكاد تجن من الفرح : « هلمى يابنيّتى فاشهدى بعينيك كيف حققت الآلهة أحلامك واستجابت لصلواتك . . . هلمى . . . لقد عاد أوديسيوس وبطش البطشة الكبرى بأعدائه فقتلهم عن بكرة أبيهم بعد ما كان من خباثاتهم ، وبعد ما استباحوا من حرماته وما أراغوا من خيره وهزئوا بولده . . . إنهضى ! » .

ولم تصدقها بنلوب ، وقالت مستهزئة بها : « لشد ما عدوت طورك وغبت عن صوابك أيتها المرضع العزيزة حين توقظيننى بمثل هذا العبث وذاك الحديث الملفق ! لقد حرمتنى من غفوة يالها من غفوة لم تكتحل بها عيناى بأهدأ منها ولا أروح منذ أن فارقنا أوديسيوس إلى الأرض المشئومة...تالله لو حصل مثل هذا ممن هن دونك سناً ومنزلة من الخدم لكان لى معهن شأن آخر... ولكن . . . لا عليك يايوريكليا فتبسمت المرضع ثم قالت : « وَىْ ! تالله إنه للحق ، ولا مرية فيما أقول إنه هو الشحاذ الفقير الذى كلمك والذى عبث به القوم وقد كان يعرف تلماك كل ذلك ، ولكنه جعله سراً بينه وبين أبيه حتى يثأر من الأمراء ويستأصل شأفتهم ! » فوثبت بنلوب من سريرها مسبوهة (١) ذاهلة ، وطوقت بذراعيها عنق يوريكليا ، وأنشأت تقول : « خبرينى بالله عليك أيتها العزيزة . . . خبرينى بالله عليك . . . إذا كان ما تقولين حقاً فأنى لأوديسيوس أن يلقى وحده كل هؤلاء ؟ وأنى لواحد أن يهزم فيلقاً من مائة أو يزيدون ؟ » فقالت المرضع : « لعمرك مارأيت كيف حدث هذا الأمر ، ولكنى سمعت بأذنىَّ هاتين أنين القتلى . . . لقد كنا

(١) مندهشة

جميعاً جالسات داخل القصر ، وفرائصنا ترتعد من الفَرَق [1] ، وكانت النوافذ كلها مغلقة بأمر سيدى ، حتى أقبل تلماك فدعانا إلى البهو ، حيث رأينا أوديسيوس واقفاً بين الرمم ، وهو الآن يطهر البهو من أدرانهم بالنار والكبريت ؛ والمدفأ يتأجج بلظى كالجحيم ، ولقد أرسلنى لأدعوك إليه حتى يفرح بك ، ويطمئن قلبك ، بعد طول العذاب » وكانت العجوز تتكلم وهى ما تنقطع عن الضحك والمرح ، فقالت لها بنلوب : « أيتها المرضع العزيزة لا يقتلك الفرح والصخب . . . تالله إنه لن يفرح بأوديسيوس اليوم أحد كما أفرح به أنا وولدى تلماك . . . هذا إن كان ما قلت حقاً . . . على أننى لا أصدق . . . لاجرم إنه إله كريم أقبل لينتقم لنا من هؤلاء العرابيد جزاء ما أنزلوا بنا من هوان فأبادهم جميعاً . . . أما أوديسيوس فلا ! لقد قضى أوديسيوس وقضى أوديسيوس إلى الأبد ! فقالت يوريكليا : « ألا تزالين غير مصدقة يا طفلتى (!)العزيزة ؟ ألا فاسمعى ! هاك دليلا آخر ؛ بينما كنت أغسل قدمى الرجل الفقير اللاجئ تحسست يداى نَدَبَةً فى ساقه ذكرتنى بالندوب التى أحدثها الخنزير البرى فى ساقى سيدى أوديسيوس ، فلما كشفت عنها تبينتها ، وتأكدت أنه هو ، وأردت أن أصيح بك لأخبرك ، وأزف إليك البشرى . لكنه أطبق يده على فمى فلم أستطع أن أنبس . . . تعالى ! هلمى معى الآن وانظرى بعينيك لترىْ إن كنت كاذبة ، تعالى جُعِلت فداك ! » وانطلقتا معاً ، وأطافت الذكريات برأس بنلوب ، ولم تدر ماذا عساها فاعلة إذا كان ما أنبأت به المرضع حقاً . . . فلما دخلتا البهو جلست بنلوب على مقعد كبير قريب من المدفأة ، ثم طفقت تُحَدِّقُ بصرها فى أوديسيوس ، وكان جالساً وظهره إلى عمود من عماد البهو ، وعيناه تبحثان فى الأرض ، وكأنه كان ينتظر أن تتكلم بنلوب قبل أن يفوه هو بكلمة . . . بيد أنها لم تنبس ، بل كانت ذاهلة شاردة ، تنظر إليه مرة فتوشك أن تعرف فيه بعلها الحبيب ولكنها كانت إذا نظرت إلى مِزقه

---

(1) الخوف

وخِرقه ، والأسمال التي لا تستر بعض جسمه الهائلة عجبت ، وتولاها الدهش ، وانعقد لسانها فما يكاد يبين .

وقال تلماك آخر الأمر : « أماه ! لشد ما تحجّر قلبك وغلظت كبدك ! لم لا تنهضين فتعانقي أبي ! ! أية زوجة ينحبس لسانها كما انحبس لسانك ، فما تكلم زوجها الذى آب من سفر سنين كلها أشجان وكلها أحزان ، وكلها آلام متصلة ومتاعب تنوء بحملها الجبال ! » فقالت أمه تجيبه : « تالله يابنى لقد ذهلت عن نفسى وإنى لفى تيهٍ فما أكاد أبين . . . ولكن إذا كان حقاً أوديسيوس ، فإن لنا علامات هى سر ذات بيننا ، ولا يعرفها أحد سوانا » فتبسم أوديسيوس وقال : « لاعليك يابنى ! دعها فستستبين حقيقتى حين أخلع هذه الأسمال » ثم انتحى وولده ناحية ، وأسر إليه أنهما ينبغى أن يتهيآ لما عسى أن يكون من تألب الإيثاكيين عليهما وشغبهم لما كان من قتل ساداتهم ، وما يتوقع من قيامهم بثورة عامة لاتبقى ولا تذر للانتقام من القاتل . . . وذكر أوديسيوس أنهما يجب أن يقيما فى البهو فيأخذا فى مثل ما كان العشاق يأخذون فيه من قصف وعبث ومجانة . . .

وحسب المارة أن بنلوب قد اختارت بعلها من بين الأمراء . . . « فهى لم تعد تطيق الوحدة ، ولا تحتمل الترمّل ، ولا تقوى على حياة الآمال الكواذب التى تجرعت غُصصها مدى عشرين عاماً » أما أوديسيوس فقد مضى فاستحم وتضمخ بأحسن الطيوب ، وأضفى عليه من كل سابرىّ وّفَوْف[1] موشى ، ثم تنزلت مينرڤا فنفخت فيه من روح الشباب ، وسكبت فى عروقه من دماء الفتوة ، ومسحت بيديها الكريمتين على وجهه المجعد ذى الأسارير ، فأشرق وتألق ، وهدلت شعره على كتفيه غدائر فاحمة كقطع من الليل البهيم . ثم إنه انطلق إلى البهو فجلس تلقاء بنلوب وأنشأ يقول : أيتها الزوجة المعجبة ! أما والله لقد ركّبت الآلهة بين جنبيك

(١) السابرى الثوب الرقيق الجيد — والفوف مثله

قلباً ليس كقلوب النساء . . . وأى امرأة تنتبذ من زوجها مكاناً قصياً كما تنتبذين يابنلوب . . . بعد إذ عاد إليك من تجوال عشرين سنة كلهن قلاقل وأهوال . . . يوريكليا ! هلمى فامهدى لى فراشاً بيديك الضعيفتين ، ما دام الحديد البارد الذى خلق منه قلبها لا يلين ! » ومع كل هذا فقد كان الريب يرين على فؤاد بنلوب ، فقالت تختبره : « مولاى ! إنى وأيم الحق لا معجبة ولا بى خيلاء ، ولكنى أذكر أحسن الذكر كيف كنت يوم همت بك سفينتك الجبارة إلى طروادة . . . يوريكليا ! إذهبى أيتها المرضع فأحضرى سرير زواجنا من المخدع ، واجعلى عليه الوسائد والحُسبانات [1] ليستريح عليه مولاك كما أمرك » وعجب أوديسيوس لما تكلمت به زوجته ، فقال : « إنك يا زوجتى تمزقين نياط قلبى بما تقولين ! أنى لأحد ما من العالمين أن يحرك سريرى بله أن يحمله ، إن لم تكونى قد أطلعته على سره ؟ لقد صنعت مخدعى واتخذت سريرى فى جذع الزيتونة الهائلة . . . فهل لا يزال سريرى فى موضعه ثمت ، أم أن أحداً قطع الجذع العتيد واحتمل السرير إلى مكان بعيد ؟ » وهنا ، مادت الدنيا برأس بنلوب ، وتأكدت أن الرجل زوجها من غير شك ، فخفق قلبها خفقاناً شديداً ، وانطلقت تعدو نحوه ، ثم طوقت عنقه بذراعيها ، وراحت تبكى وتنتحب ، وتقول له : « لا تنقم علىّ إذاً يا أوديسيوس ، ولا يحزنك أننى لم أعرفك منذ أول نظرة . . . أواه أيها العزيز ! لقد قضت الآلهة أن نفترق وأن نتعذب كل هذه السنين ، وما كان من شكى فهو أثر من احتراسى خشية أن يخدعنى أحد فيدعى أنه أنت ، أو يزخرف على ويبهرج حتى ينالنى بالخداع والحب . . . ولكن ما دمت ذكرت لى سر المخدع والسرير والزيتونة ، وهو ما لا يعلمه أحد غيرى وغيرك وغير يوريكليا . فالآن فاهنأ ، ولأهنا أنا ، وليطمئن قلبى . . . قلبى الوفى الذى أرده إليك كآخر عهدك به ، لا ينطوى إلا على حبك ولا يضمر غير الوفاء لك . . . »

---

(١) الحسانة الوسادة الصغيرة .

وعانقها أوديسيوس . . . وضم إلى صدره صدرها . . . والتف حول عنقه ذراعاها البضتان البيضاوان – وجمد عاجها الناعم الأملس حول كاهله ، ووقف أوديسيوس على شاطىء الذكرى كما يقف السباح المتعب المنهوك على شاطىء اليم وقد بلغه بعد جهد ، فأعضاؤه متراخية ، وأعصابه موهونة ، وقلبه خَفَقٍ ، وروحه نشوى وذراعاه مع ذاك معلقتان بالشاطىء وقد سمِّرتا فيه . . . وقال بعد لأى : « والله يازوجتى العزيزة إنا ما بلغنا بعدُ نهاية أشجاننا وأحزاننا ، وإن أمامنا لأمداً بعيداً وهموماً أخر تنبأ لى عنها الكاهن تيريزياس حينما رحلت إليه فى هيدز ، وإنى لا أدرى ماذا يكون من أمرى . . . ولكن . . . لا . . . لننطلق الآن إلى مخدعنا العزيز الطاهر فإن بى حاجة إلى الراحة والاستجمام . . .»

فقالت بنلوب : « المخدع الطاهر النقى معد فى أيما لحظة أردت ياأوديسيوسى العزيز ... بيد أنك أثرت شجنى وفزعت شجوى بما ذكرت عما يتربص بنا من هم جديد ، فهلا ذكرت لى ماذا زعم لك تيريزياس فى العالم الآخر ؟ إنى مشوقة إلى ما قال ، فاذكره بحق الآلهة عليك » فأجاب أوديسيوس « عمرك الله لم تسألين عن أمر إن يبد لك يسؤك ؟ ! ولكن لا ضير . . . سأذكر لك ما نبأنى به تيريزياس » ثم وجم قليلا وقال : « لقد أشار أن أحمل مجدافا عظيما على كاهلى ، ثم أنطلق مهاجراً إلى ممالك نائية وأصقاع سحيقة ، حتى أكون فى قوم لم يسمعوا عن البحر قط ، ولم يروا فى حياتهم مجدافاً ولا سارية ، فإذا لقيت أول من يسألنى عما أحمل ، وهل هو مذراة مما ينسف به القمح ، غرست المجداف فى الأرض ، ثم تقربت إلى إله البحار نبتيون الجبار بقرابين تمحو ما بينى وبينه ، وتعقد بيننا أواصر السلام والوئام ، كما تقربنى إلى أعوانه الآخرين من آلهة الماء ، فإذا فعلت استرحت من لأواء الحياة ، ونأت عنى أرزاؤها ، وعدت إلى شعبى وإليك ، وإلى ولدى وقصرى فعشت بينكم بسلام ، حتى يأتينى الموت ، هادم اللذات ، من أعماق البحر ؛ ولكنه سيكون موتاً طيباً لا مخوفاً ولا

مرهوباً ، بل سكرة بين أَمَنةٍ ونعاس . بعد إذٍ الجسم موهون ، والقلب فارغ ، والرأس مشتعل والروح سالية قالية » .

وهكذا ظل الحبيبان المشوقان يتحدثان قِطْعاً من الليل ، بينما كانت المرضع وخادمة أخرى تمهدان الفراش على ضوء المشاعل . . . ثم أقبلت الوصيفة فذهبت تمشى بين أيديها إلى المخدع ، وفى يديها المشعل المقدس يفيض نوراً ولألاء كما أفاض منذ عشرين سنة . . .

ولفهما ظلام الليل ، وسِتْرُ الهوى . . . وسكن البهو بعد ماضج بالعزف والقصف ، وهدأ القصر فى سدول السعادة .

أوديسيوس يصل إلى إيثاكا

وهنا. هرمز بأرواح القتلى فهمهمت ، ثم أشار إليها بعصاه فسحر الكرى مقلها ، ثم أشار كرة أخرى فأهرعت فى إثره كما تهرع الخفافيش فى إثر دليلها

وانطلق حبيب الآلهة فعبر عباب البحر المحيط ، وعبرت الأرواح الهائمة فى إثره ، وجاز صخرة لوكيديا ، وبوابة الشمس الخالدة ، ثم انطلق والأرواح الهائمة من خلفه ، فى تيه الأحلام ، وعبر بها فى مروج آسفوديل ذات الأشباح ، حيث لقى القتلى أرواح ذويهم وأبطالهم من رجال هيلاس الذين سقطوا تحت أسوار طروادة . . . وهناك . . . وقفوا طويلا يتناجون ، وكلم ابن بليوس قائد الهيلانيين أجاممنون ورثى له ، فكلمه أجاممنون وتحسر عليه ، ورأوا روح بتروكلوس حبيب أخيل زعيم الميرميدون ، وروح أخيل نفسه ، وروح أجاكس[1] العظيم . . . وعرف أجاممنون روح أمفيدويون العاشق المحروب الذى قتله أوديسيوس فيمن قتل من عشاق بنلوب ، فكلمه ، وكلمه امفيديون فقص عليه ما كان من مأساتهم الغرامية وما كان من أوبة أوديسيوس المفاجئة واختلاطه بهم فى صورة فقير شحاذ . . . إلى آخر القصة الدامية المشجية التى انتهت بقتلهم جميعاً . . . وما كاد يفرغ حتى بدا العجب فى محيا القائد أجاممنون ، وطفق يثنى على وفاء بنلوب ، وشجاعة صديقه أوديسيوس ، ثم راح ينعى على زوجته الآثمة كليتمنسترا ما كان من غدرها ، وتدبير غيلته مع حبيبها الفاسق إيجستوس . . .

وهكذا انتهت الأشباح الآثمة إلى ظلمات هيدز . . . إلى مملكة

---

(١) هو اياس أيضا.

بلوتو . . . حيث تلقى جزاءها العادل من مخالب سيربيروس الحادة وأظفاره القواطع .

هذا ما كان من أمر تلك الفئة الباغية .

أما ما كان من أمر أوديسيوس فقد استيقظ فى بكرة اليوم التالى ، واستيقظت معه بنلوب السعيدة ، وهب من فراشه فارتدى ملابسه ، ووضع عليه سلاحه . ثم أمر زوجه ألا تخاطب من الناس إنسياً حتى يعود ، وأن تغلق عليها أبواب القصر ، لأنه منطلق إلى أبيه ليزف إليه البشرى بنفسه . ودعا إليه تليماخوس ليصحبه ، وليصحبه الراعيان المخلصان الوفيان ، وبعد إذ يسبغ كل منهما عليه دروعه ، ويستعد بسلاحه .

وانطلق الأربعة يطوون شوارع المدينة التى خيم عليها الصمت دون أن يشعر بهم أحد من أهلها ، حتى بلغوا الخلاء ، ومازالو يذرعونه حتى كانوا عند المزرعة المصون الناضرة ، وهناك ، نظر أوديسيوس بعينين مشوقتين ، وقلب ملتاع خفِق ، إلى البيت الصغير الذى يؤوى أباه الضعيف الشيخ ، حيث يقضى أيامه فى أسى ليس بعده أسى ، ويجتر همومه فى صمت كصمت الموتى ، ويذرف دموعه فى قنوط وسكون . . . لا يراه أحد ، ولا يشكو بثه إلى مخلوق ، إلا هذه المرأة العجوز الحيزبون التى تخدمه فى رضى ، وتسهر عليه فى حب له ، وإشفاق من أجله . . . وكان ليرتس ، الأب الحزون ، يتلهى بالعمل فى بستان قريب يشذب شجيراته ، ويهذب زهيراته ، فأمر أوديسيوس ولده وراعييه أن يبقوا فى المنزل ليعدوا غداء فاخراً ، وشواء سمينا ، لأنه يجب أن يلقى أباه فى البستان وحده . . .

وانطلق أوديسيوس إلى البستان ، فوجد الفلاحين قد انصرفوا إلى أعمالهم ، ووجد أباه يجوس خلال الأشجار كالشبح ، ويهوى بفأسه فيحتفر حولهن ، وهو بين الفينة والفينة يصلح من لباسه الخشن الذى اتخذه من جلد عنز ، كما اتخذمنه قفازيه وجوربيه . . . ووقف أوديسيوس تحت كمثراة باسقة وطفق ينظر إليه ، ويقلب فى السنين الطوال التى يرزح تحتهن

عينيه ثم يتعجب للقلب الكبير الذى صمد لحدثان الزمان ولأواء الأيام فلم ينصدع ولم يَهِن ، وإن كان بعض حزنه لتنوء به الجبال .

وانبجس الدمع من عيني أوديسيوس ، وانهمر على خديه الحزينين ، وأوشك أن يمضى نحو أبيه فيأخذه فى حضنه ، ويفجأه بالبشرى القاتلة لولا خيفته على تلك الشيخوخة المتداعية أن تنقض حين لا تحتمل النبأ العظيم . . . نبأ عودة قطعة القلب والكبد بعد يأس دام عشرين عاماً . . . لهذا آثر أوديسيوس ألا يفعل ، وآثر أن يلقى أباه كرجل غريب جوّاب آفاق ، ويحدثه ، ليعلم ما فى قلبه ، فذهب إليه ، ووقف عن كثب يكلمه :

– « أيها الشيخ : ويكأنك لا علم لك بأمور هذا الزرع ، وإن أثمر بستانك وآتى أكله ! حقاً ، إنى لا أرى عشباً فى الأرض ، ولا شجرة إلا وهى مثمرة ، ولا زهرة إلا وهى مسفرة نامية ، وماذاك إلا لسهرك عليها . . . بيد أنه لن يسوءك إن لا حظت أنك تُعَنى بهذا البستان أكثر مما تعنى بنفسك ، مع ما أنت فيه من تقادم السن ولفحة الشمس ووطأة المرض . . . وما أحسب مولاك إلا قاسى القلب عليك ، قليل الاحتفاء بك والتوجع من أجلك ، مع مالك من سيماء النبل ، ومظاهر الملوك ؛ فما كان أحجى بك – وأنت فى هذه السن – أن تستحم وتتضمخ وتنام ملء عينيك ، لا يزعجك عمل ، ولا تئودك أكلاف الحياة ! ولكن قل لى بالله عليك أيها الشيخ ، لمن تَنصَب كل هذا النصب ، وبستان من هذا ؟ خبرنى ! لا تخفِ على أيها الأب ، فلقد لقيت من سألته فلم يأبه بى ولم يُعْنَ بمسألتى...ولقد ذرعت الرحب حتى وصلت إلى هذه الأرض ايثاكا لأنى كنت أقدم فيما مضى من الزمان فأحل ضيفا على أمير عزيز فيها ، وما أعرف إن كان لا يزال حياً يرزق أو مضى لا قدر الله إلى هيدز ! ولقد كان هذا الصديق يزورنى فى وطنى فأكرم مثواه ، ولقد كان يحدثنى الأحاديث عن أبيه ليرتيس ابن آزيرياس . . . وما أنس لا أنس أيام كان يحمل إلى الهدايا

فأردها إليه أضعافاً مضاعفة ، فمن ذاك أنني نفحته مرة بسبع بِدَر من خالص الذهب ، وبجمالة من فضة مزدانة بأفواف الزهر ، واثنى عشر صداراً واثنى عشر دثاراً ، ومثلهن من أكرم البسُط ، وشىء كثير من ثياب القاقم والسنجاب ، ثم أهديت إليه أربع جوارٍ كُنّس أبكارٍ اختارهن بنفسه ، مثقفات مهذبات ، يتخايلن فى الخز ، ويرفلن فى الديباج » .

وازدحمت الدموع الحِرار بكل الذكريات المشجيه فى عينى الرجل الشيخ ، وقال يجيب أوديسيوس : « أيها الأخ لقد بلغت مناك ، فهذه هى إيثاكا . . . بيد أنها – واأسفاه ! – نهب مقسم بين فئة باغية ظالمة لا تخضع لقانون ولا تعرف شريعة . . . أما صديقك فوا أسفى عليه . . . ويا ألف أسى على هداياك ! من لك به اليوم ليردها عليك أضعافاً مضاعفة ياصاح ! ولكن قل لى بربك واصدقنى : منذ كم سنة لقيت صديقك التعس ، الذى هو ابنى ! ؟ إيه . . . ! له الله ! ما أحسب إلا أن السمك قد اغتذى به ، أو أنه غدا يوماً جزر السباع وكل نسر قشعم ! أواه عليك ياأوديسيوس ياولدى ! هكذا قضيت ولم أذرف على ثراك عبرة ، ولم تكتحل عينا أمك قبل أن تموت برؤياك . . . ولا بنلوب ! ولا بنلوب أيضاً كانت إلى جانبك لتغمض بيدها أجفانك . . . ولكن . . . ولكن قل لى أيها الأخ من أنت ، ومن أى البلاد قدمت ؟ وابن مَن من الكرام الأكابر ؟ وفى أى الرفاق وصلت إلى إيثاكا وفى أى السفائن ؟ أم وصلت بك إحدى الجوارى المنشئات ثم غادرتك فى إيثاكا ؟ » .

وقال أوديسيوس وهو يلفق ما يقول : « أما من أنا . . . فـ . . . أنا إيبريتوس بن أفيداس بن يوليبمون من أمراء أليباس ، من أعمال صقلية ، ولقد هبت على سفينتى عاصفة هوجاء فدفعتنا نحو بلادكم وألقينا المراسى فى ميناكم . . . ولقد لقيت أوديسيوس لآخر مرة منذ خمس سنوات ، وقد افترقنا وكلنا أمل أن نلتقى لنتبادل تذكارات المحبة وهدايا الصداقة والوفاء والود » .

وانعقدت سحابة مظلمة من مرارة الحزن فحجبت الضوء عن عينى ليرتس ؛ ثم إنه أهوى إلى الأرض فقبض قبضات من التراب وراح يحثوها على رأسه ، ويئن أنينا مؤلما . ولم يحتمل أوديسيوس أن يرى أباه فى هذه الحال ، بل كاد صدره ينشق من حسرة عليه ، فهرول وأخذه ملء ذراعيه وجعل يضمه إلى صدره ويقبله ويقول : « أبتاه ! أبتاه ! هو أنا ذا ! أنا أوديسيوس عدت إليك بعد عشرين عاما فافرح وهدئ روعك ، ولتنته آلامك ، وإليك أحسن البشريات ! لقد قتلت أعدائى العشاق جميعا . قتلتهم فى بيتى ، وانتقمت لك ولى ولبنلوب ! » .

بيد أن ليرتس وقف ذاهلا عن نفسه ، ثم نظر إلى ولده وقال : « إن كنت حقاً ولدى أوديسيوس ، فهات برهانك الذى يقطع شكى ! »

فقال أوديسيوس : « ألا تصدق ! إذن فانظر إلى الندوب الخالدة التى أحدثها فى ساقى خنزير الفلاة إذ أنا حَدَث ياأبى ! ألا تذكر يوم كنا على جبل برناسوس ، وكان جدى أوتوليكوس معنا ثمة ، وكان يتحفنى بالهدايا واللهى ؟ وهاك دليلا آخر يوم مشيت معك فى هذه الحديقة ورجوتك أن تجعل بعض هذه الأشجار باسمى ، فمشيت معك ، ورحت أنت تسميها لى بأسمائها ، فجعلت لى ثلاث عشرة كمثراة ، وعشر تفاحات ، وثلاثين تينة ، وخمسين صفا من الكروم الناضرة التى كان يزرع القمح بين عرائشها والتى كانت تتدلى منها العناقيد من كل لون ! »

وانجاب الشك عن فؤاد ليرتس ، فأخذ ولده بين ذراعية المرتجفتين وراح يضمه ويقبله ، ويُصعّد فى صدره الرحب القوى أنفاسه ، حتى إذا وهنت قواه أرسله ، وأخذ يحدثه فيقول . « يا للآلهة ! ياأرباب السموات الخالدة فى شعاف الأولمب ! أهكذا قضيت آخر الأمر أن ينصب جام غضبك وحُمم نقمتك على هؤلاء الكفرة الفجرة ! ولكن لشد ما أخشى أن يتألب الجمهور علينا ، فيهرعوا إلى هنا ، ويطلبوا ثأر ذويهم ..

فتبسم أوديسيوس وقال له يطمئنه : « لاعليك ياأبى . . . هلم الآن

فلنذهب إلى بيتك الجميل ، فلقد أرسلت تلماك ثمة ومعه الراعى ، يومايوس الوفى ، ليعدوا لنا طعاماً سريعاً خفيفاً » .

وأعد الطعام ، ومزجت الخمر ، وذهب الخادم العجوز فأعدت حمّاماً لسيدها الشيخ ، ثم ضمخته وأضفت عليه ملابس نظيفة . . . وتنزلت مينرڤا الكريمة فمشت بيديها الإلهيتين على جسم ليرتيس فتدفق الشباب فى عروقه ، وعاد إليه رُواؤه وحسن سمته ، فلما خرج من الحمام تعجب أوديسيوس وقال له . « تالله ياأبت إنى لا أشك فى أن بعض الآلهة قدرد إليك صباك . وخلع عليك بُرْدة الشباب من جديد ! ! »

ولم يكن عجب ليرتيس بأقل من عجب ولده . . . « تعاليت ياجوف ! وتقدست يامينرڤا ! وسما جدك يا أپوللو ! لقد كسوتمونى نضرة الشباب التى كانت لى يوم ملكت مدينة نريكوس بمعونة السيفاليين الشجعان ! أواه لو قُدِّر لى أن أقف إلى جنبك أمس يابنى ، ليكون لى شرف مجالدة الأوغاد الذين قتلت ، إذن ، لحظيت بكوكبة منهم أضرج أديم الأرض بدمائها ، فاشفى منهم حَرَداً فى صدرى ، وغِلاًّ فى حشاشتى ! » .

وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، ثم جلسوا على الأرائك متقابلين . . . وكانت الخادم العجوز قد انطلقت إلى المزارع فدعت كبير الفلاحين دوليوس ، فأقبل فى رجاله الذين كدهم العمل وأنهكتهم المثابرة . . . فلما رأوا ما ارتد إلى سيدهم من شبابه ، وهذا الرجل الغريب الذى يجلس بين العائلة المقدسة ، وقفوا مسبوهين مشدوهين ، لا يعرفون ماذا يقولون . . . وحدجهم أوديسيوس ، ثم بدأ يكلمهم فى لطف وخبث ويقول : « اجلس أيها العجوز دوليوس فكل أنت ورجالك . . . فليس ثمة متسع لدهش أو عجب . . . اجلس قبل كل شئ فاملأ بطنك وبطون رجالك . . . لقد انتظرناكم طويلا ، لكنكم استأنيتم ! » ولكن سرعان ما عرف دوليوس مولاه حين سمع صوته ، فأقبل عليه ، وتناول يديه ، وطفق

يغمرهما بالقبل الباكية ويقول : « أوه يامولاى ! هكذا والله تستجيب السماء ! لقد طالما جأرنا ولقد طالما دعونا فلها الثناء إذردتك إلينا ! فعش واسلم وسُرَّ وابتهج . . . ولكن . . . هل علمت الملكة بقدوم مولاى ؟ ألا ننطلق من فورنا فنزف إليها البشرى ؟ »

وطمأنه أوديسيوس ، فجلس الرجل مبتهجاً مسروراً . وجلس أبناؤه معه ، وأخذوا فى أكلهم وشرابهم ، وأخذ أوديسيوس يلاطفهم ويداعبهم . . . وهكذا عاد الحبور مرة أخرى إلى بيت ليرتيس !

* * *

وقرع آذان الناس فى المدينة ما كان من قدوم أوديسيوس . وما حاق بالأمراء المعاميد من نكبة على يديه الجبارتين ، فأهرعت جموعهم إلى قصره صاخبةً ناعبةً ، ثم انطلقوا إلى حيث كدست أجساد القتلى فحرّق كل قتيله ، وأُرسلت جثث الغرباء إلى ذويهم فى أوطانهم فى سفن الصيادين من كل فج لتُحرّق ثمة . . . واجتمعوا بعدُ ليتشاوروا بينهم فيما ينبغى أن يكون . . . فنهض يوبيتيس والأسى يزلزل جوانحه وأنشأ يقول : « أيها الرفاق ! لقد كان هذا الرجل الطاغية حرباً دائمة عليكم فلم يصبكم منه إلا الشر ، ولم تثمر لكم فعاله إلا الندامة ! فلقد ساق شبابكم وخيرة أبطالكم إلى طروادة المشئومة حيث قتلوا أجمعين ، وها هو ذا ينقلب اليكم اليوم ليذبح ساداتكم وذوى الصولة فيكم . . . فهلموا إذا ورّوا رأيكم فيه قبل أن ينطلق إلى بيلوس فيطلب العون عليكم ، وتصبحوا على ما قصرتم نادمين ! إنا إن لم نثأر لضحايانا فأى عار يَسمنا وأى خزى يصمنا ياقوم وأية حياة هذه التى تحيونها بعد ما حل بكم من هوان ومذلة . . . لخير لكم أن تذبحوا أنفسكم فترحلوا إلى هيدز مع أرواح قتلاكم ولن تكونوا على ذلك من الآسفين ! » ثم جلس وهو يتصدع من الحزن على صاحبه أنتينوس الذى كان أول ضحايا أوديسيوس . . . وقام ميدون المنشد التعس فقال : « أيها المواطنون أعيرونى آذنكم ! تالله إن أوديسيوس

لم يرم سهامه إذ رمى ، ولكن بعض الآلهة كان يرسم له وينافح عنه ، ولقد رأيته بعينيّ هاتين فى صورة منطور ، ووالله ما هو منطور ، ووالله لقد كان يمشي بين يديه ههنا وههنا فيُرَاع العشاق وتفزع قلوبهم ويسقط بعضهم فوق بعض فتاخذهم سهام أوديسيوس ويروى من دمائهم سيفه ! » وما كاد يفرغ ميدون ، وكان فيهم أميناً صادقا ، حتى طارت ألوانهم وامتقعت وجوههم ونظر بعضهم إلى بعض ، وادّارأوا [١] طويلا ، ثم وقف هاليتير بطلهم القديم بن مسطور ، وكانت له دراية بكشف أستار الماضى والحاضر والمستقبل ، فَصَعَّر [٢] خدة وقال : « أيها الإخوان ! ياأبناء إيثاكا إسمعوا وعوا ؟ تالله لقد طالما مهدتم للفتنة ، وإنها لثمرة أنتم غارسوا شجرتها وأنتم اليوم جنُاتُها . . . أتذكرون يوم رجوتكم فألحفت عليكم فى الرجاء أنا وصاحبى ميدون هذا ، أن نذهب فنمنع القصر من شبابكم ، ونصون عرض أوديسيوس من أبنائكم ، ونصرفهم عن ولده وزوجته ومتاع هذه الحياة الدنيا ، فأبيتم أكبر الإباء ، ورفضتم أقبح الرفض ، وجعلتموها فتنةً كنت أستعيذ بالآلهة منها ؟ ! فعلام تغلى مراجل صدوركم ياقوم ؟ وفيم ائتماركم بالرجل وقد ثأر لعرضه ؟ ألا فاسمعوها كلمة مخلصة أسدّيها إليكم . . . الرأى ألا تذهبوا ، وألا تجعلوها فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، بل اقعدوا ههنا آمنين ، ولا تكونوا كالذى سعى إلى حتفه بظلفه ، وأبطأت عليه المنايا فسعى قُدُماً إليها ! » وما فرغ حتى زجر القوم وتصايحوا به ، وضجوا من كل مكان . . . ثم إنهم سمعوا إلى شيطان يوبيتيس ففزعوا إلى أسلحتهم ، وأسبغوا عليهم من دروعهم ، وانطلقوا إلى المدينة فنظموا فيها صفوفهم وأقاموا يوبيتيس قائداً منحوساً عليهم ، وما جعلوه كذلك إلا ليلقى حتفه بيد أوديسيوس ، وتعجل روحه إلى النار ! ومضت مينرفا إلى سيد الأولب جوف العلى فوقفت ببابه تقول .

« أبتاه ! أبِنْ عن سريرتك ، واكشف عن مكتوم قلبك ومكنون نفسك ! هل يحل على هذه الفئة الظالمة غضبك ، أم أنك مانحها محبتك ،

(١) تدافعوا واختلفوا . (٢) أمال خده من الكبر .

ومحصنها بحمايتك ؟ » فتبسم من قولها وأنشأ يجيب : « وفيم هذا التساؤل يابنتي ! ألم تَقْدُرى أنت أن يعود أوديسيوس إلى وطنه فيذبح بيديه أولئك العتاة الطغاة ، ويريح وجه الأرض من خباثاتهم ؟ ليكن ما تشائين ! إصنعي ما بدا لك . . . ولكن نصحى أمحضك إياه يامينرڤا ! مادام أوديسيوس قد ثأر لنفسه من أعدائه ، فليكن السلام على الأرض ، وليحل الأمان فى ربوعها ، وليتقاسم الملأ على الود والصفاء ، وليحكم أوديسيوس بين الناس بالعدل . . . وعلينا نحن أن ننزع ما فى صدورهم من غل فينسوا سخائمهم ، ويطّرحوا ثاراتهم ، ثم لتكن لهم من أنفسهم أمَنَةٌ ، ولتجر البركات عليهم أجمعين ، وليصبحوا بحولنا أصفياء متحابين »

وزفّت مينرڤا من السموات العلى إلى إيثاكا .

وفرغ أصحاب أوديسيوس من أكلهم فامرهم أن يتحسسوا آثار القوم ، فانطلق أحد أبناء دوليوس إلى المدينة فرأى من استعداد أهلها ما رأى ، وجاء إلى مولاه على عجل فقال له : « مولاى ! لقد تسلح الإيثاكيون وهم موشكون أن يقدموا إليك ! » فنهض أوديسيوس فادّرع ، وادّرع أبوه وابنه وخادماه وأبناء دوليوس الستة ، وأدَّرع دوليوس كذلك ، وادرع الفلاحون الآخرون ، وحمل كلُّ سلاحه ، وبرزوا إلى الطريق وفى مقدمتهم أوديسيوس .

وبدت مينرڤا فى صورة منطور وفى طيلسانه ، فلما رآها أوديسيوس فرح واستبشر ، والتفت إلى تلماك فقال : « أى بنى عليك أنت أن تحمينا اليوم فقد عرفت ما خاض أبوك من معامع ، وسنرى من يحارب خيراً من صاحبه اليوم ! » فقال تلماك يجيبه : « اطمئن ياأبى فسترى كيف يحمى العسلوج[1] فرعه ، وكيف يشب الفرع على أصله ، تالله لن أفضحك فيما وكلت إلىَّ يا أبى ، ولن يخيب رأى أهلى فىّ ! » وفرح الوالد بمقالة ابنه ، وشكر للآلهة وأثنى عليها .

---

(١) المسلوج الفرع الصغير.

واقتربت مينرڤا من ليرتيس ، وهى لاتزال فى صورة منطور ، فقالت له : « أوه أيها الجد الوقور ! صلِّ لمينرڤا وابتهل ، وتوسل إلى جوف ، أن يمنحاك القوة والجلد ، ثم اهجم بحربتك على يوبيتيس فروّها من دمه ، فالسماء كلها معك » ولمسته بيدها فتدفق شبابه فى قلبه ، وكان جيش الأعداء قد اقترب منها فطار ليرتيس إليهم برمحه وأقصد يوبيتيس بضربة فى صدره ، فخرج سنان الرمح يلمع من ظهره ، ورأى أوديسيوس ذلك فطار إلى الملأبسلاحه ورماحه ، وانقض تلماك فى إثره ، وهجم الآخرون فى إثر تلماك ، ولم يطل القِراع ، فقد فزع الأعداء واختلط نظامهم ، فولوا الأدبار ، ولكن هيهات ! لانجاة اليوم ، فلقد سد عليهم أوديسيوس ورفاقه الطرق ، وأخذوا عليهم المسالك ، فهم فى ضيق ، وهم ذاهلون !

وهتفت ابنة جوف العذراء بأوديسيوس ورجاله تقول . « السلام عليكم أيها المحاربون ! السلام السلام ! قبل أن تجرى دماؤكم أنهارا ! ! »

ثم بدت مينرڤا فى صورتها الإلهية المقدسة فارتعدت فرائص القوم ، وتخاذلوا فيما بينهم ، حتى أصحاب أوديسيوس ! لقد ارتجفت أعصابهم وعصف الذعر بسواعدهم ، وكادت سيوفهم ورماحهم تنتثر على الأرض . . . ولم يعبأ أوديسيوس ، بل هجم كالنمر على القوم المنهزمين يود لو يصعقهم ، وطفق يبرق ويرعد ، ويزأر بصوته المدوى العظيم ، فغضب سيد الأولمب ، وأرسل إحدى صواعقه نذيراً من لدنه إلى مينرڤا ، فجعلت إليه ذات العينين الزبرجديتين ، وزجرته عن الناس وهى تقول . « لا ياأوديسيوس ! لا ياابن ليرتس النبيل ، لايجدر هذا بماضيك ! ضع حداً لهذه المجزرة المروّعة أو تجلب عليك غضب جوف العلى ! » .

وخبَت أوديسيوس ، وسُرت مينرڤا ، وعقد منطور الصلح بين الفريقين ، ودخل الناس فى السلم كافة . . . !

فهرس

مطبعة نهضة مصر

